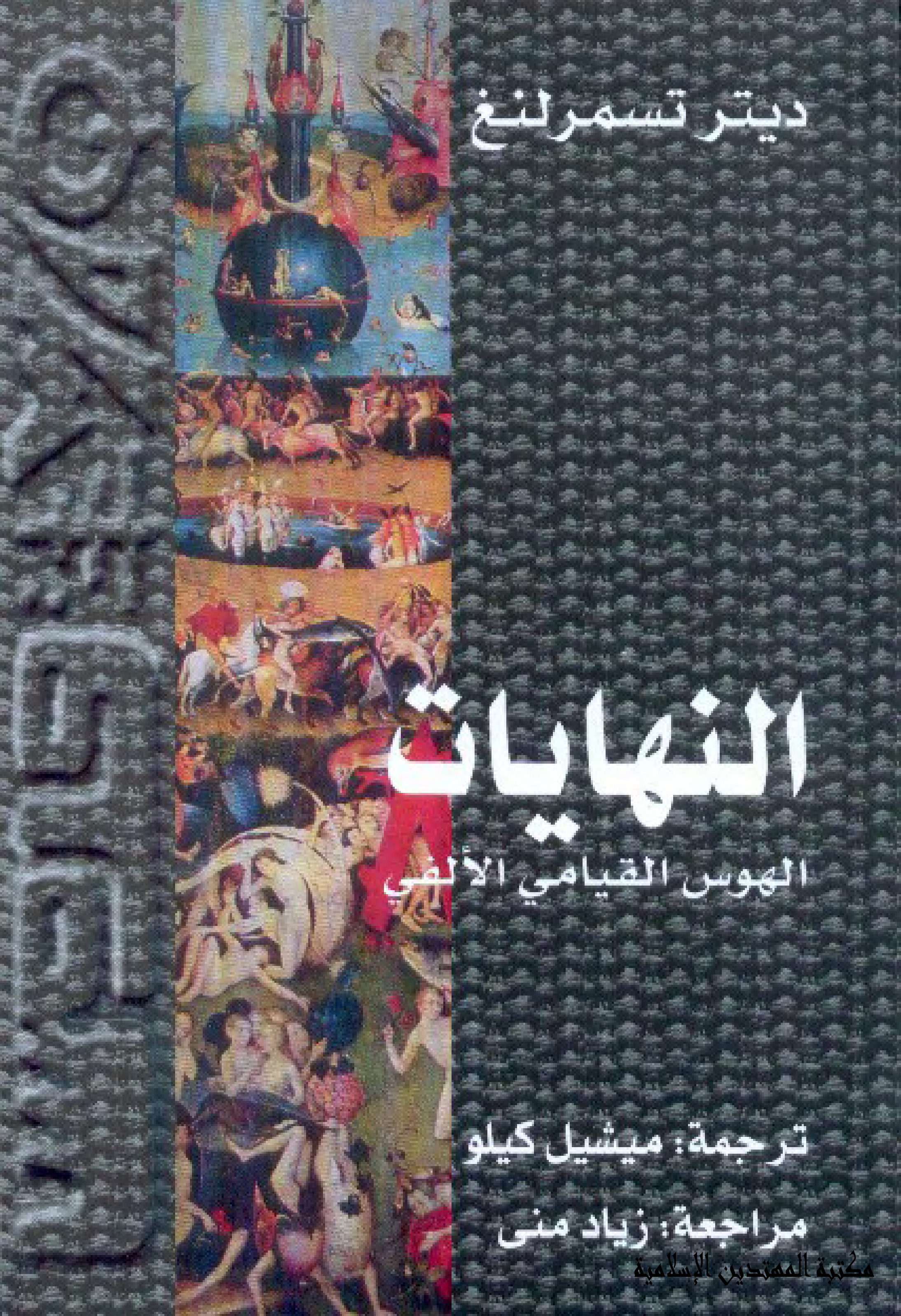


ديتر تسمرلنغ

النهايات

الهوس القيامي الألفي

ترجمة: ميشيل كيلو

مراجعة: زياد منى



النهايـــات

الهوس القيامي الألفي

النهايات – الهوس القيامي الألفي
تأليف: دِيتَر تْسمَرْلِينْغ
ترجمة: مِيشيل كَيلو
تصميم الغلاف: نبيل المالح
اخراج: محمد غيث الحاج حسين

التوزيع في سوريَة: قَدْمُس للنشر والتَوزيع
شارع ميسلون، دار المهندسين (0905)، الفردوس
ص ب (6177)
دمشق، سوريَة
هاتف: (+11 963) 9836 222 برّاق: 2226 224 7393 /442
جوّال: (+94 0 961) 167 517
بريد إلكتروني (cadmus@net.sy)؛ (books@cadmusbooks.net)
التوزيع في العالم: شركةُ قَدْمُس للنشر والتوزيع (ش م م)
ص ب (6435 / 113)؛ شارع الحمرا ، بناء رسامني
بيروت، لبنان
هاتف: (+1 961) 054 750، برّاق: 053 750
جوّال: (+3 0 961) 512 620؛ 411 722
بريد إلكتروني: (daramwaj@inco.com.lb)
لابتياع إصداراتنا على (الشبكة) انظر : (www.alfurat.com)

التوزيع في الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع
وسط البلد، خلف مطعم القدس؛ ص ب (7772) عمّان 11118، الأردن
هاتف: (+6 962) 8688 463؛ برّاق: 7445 465
بريد إلكتروني: (alahlia@nets.jo)

إنّ الآراءَ الواردةَ في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار.
السعر: (8) يورو. السعر في سَورية (300) ل س.
عدد كلمات الكتاب: (50576) كلمة تقريبًا.

ديتَر تْسِمَرْلِينْغ

النهايـــــــــات

الهوس القيامي الألفي



ترجمة: ميشيل كيلو

قَدْمُس للنـشر والتـوزيع

http://library.ajeeb.com/cadmus

لابتياع نسخ الكترونية من إصدارات قدمس

http://www.arabicebook.com

المحتوى

ملاحظاتُ الناشر على النصِّ والمَراجِع في الكتاب

* المادة اللغوية بين الأقواس المزدوجة « » تشير إلى أنَّ النصَّ مقتبسٌ .
* المادة اللغوية المكتوبة بين ‘ ’ تشير إلى أنها اقتباس ضمن اقتباسٍ آخرَ .
* المادة اللغوية بين قوسين منفردين ‹ › تشير إلى المصدر الذي اقتبست منه النصوص المقتبسة.
* المادة اللغوية بين الفواصل المقلوبة " " تعني أنها اعتراضٌ على المحتوَى، من الكاتب الأصلي إذا كان النصُّ مقتبسًا ، أو من مؤلِّف الكتاب .
* المادة اللغوية بين قوسين كبيرين [ ] تشير إلى أنها ليست موجودة في النص الأصلي أو مؤلف الكتاب.

قَدْمُس للنشر والتوزيع

10
النهايات: الهوس القيامي الألفي

مقدمة

بالنسبة إلى كثيرين في العالم بأسره، تحول قرننا إلى عصر رؤيوي، كنا نحن الآخرين محض نظّارة، وإن كنا لم نبق بمنأى عن المشاركة فيه. من المنطقي إذاً أن يدور الحديث بالنتيجة عن: (عصر الخوف) و: (عصر الحروب العالمية) و: (نهاية كل أمان) وأخيراً عن: (نهاية العصر الحديث).

تلك النزعة الإبادية كانت قد توطنت الخواطر، وهي تتلقى كل يوم غذاءً جديداً. وتمدها كل نظرة نلقيها على الجريدة أو شاشة التلفاز بزاد وفير، تتسم شعاراتها وتكثيفاتها الكلامية مثل: بيئة، مناخ، غابات، إبادة الشعوب، مجاعات، حروب، أوبئة، طاقة نووية، فائض السكان، وغير ذلك من كلمات مرعبة، بحضورها الكلي في حياتنا. لقد بدأ الإنسان رحلة إلى الجحيم لا أحد غيره مسؤول عنها. صحيح أنه لا يريد دوما زيادة سرعته نحو القاع، لكنه يبدو عاجزاً عن إيقاف اندفاعه نحوه. أما ما كان قد اعتبره عقلانياً وأدرك ضرورة القيام به،

فليس سوى مشروع صعب أخفق فيه المرة تلو الأخرى، وتخطى غالباً قدراته. ومع ذلك، يبقى الفعل المتفق مع العقل الأمل الوحيد الذي يستطيع امتلاكه.

حتى عندما لم يكن الإله مات بعد؛ كان على الإنسان أن يكافح الجنون اليومي. من جانبه، لم يكن وضع أسلافنا مما يحسدون عليه بأي حال؛ بدلالة الشهادة الفصيحة التي يقدمها لنا تاريخ الرؤيا.

ألم تزل الأزمنة البعيدة تعنينا بعد. أم أننا نجلس في مقصورة تاركين مأساة تاريخية تمر أمام أعيننا، فتقشعر أبدانُنا لمرأى مهاوٍ يصعد منها بشر لا نعرفهم، شوهتهم جراح رهيبة، وشوهت وجوههم الطافحة بالخوف، وقد أضنتهم الحاجة والضيق، وسيّرهم الغضب، مع أنهم عاجزون ومتروكون وتائهون. ألا يفور من هذه الهُوى الدم والدخان، وتومض فيها النار وتضطرم الفوضى. مع ذلك، عاودت الأرض دوماً تضامها من جديد، وبدا أن المأساة لم تكن غير محض دغدغة حسنة القصد لأعصابنا.

ليس الأمر كذلك، فالعرض مازال مستمراً إلى اليوم ونحن الآن الممثلون. ولأن في وسعنا رؤية حال الخطر في الماضي: أعني أنفسنا. ولأن البعيد قريب جداً منا، ما دام قد بيّن لنا ترابطات المعاني، ونشّط ذاكرتنا، وفعّل معرفتنا، فإن من لا يعرف أي شيء، لا يختبر أيضاً أي شيء، لذلك يعني الماضي شيئاً ما لنا.

سيهلك العالم ما دام هناك بشر، لذلك ثمة تصورات حول نهاية ما في مختلف الثقافات والأديان؛ لكن العالم ينشأ نشوءاً جديداً لا يفتأ يتكرر على الدوام، وهذا كان الأمل الكبير في جميع الأزمنة؛ وينضوي الاندثار والخلق الجديد في مسار دائري كوني. هذا ما قررته آلهة الأساطير، واقتبسته عنها آلهة الأديان. يستمر الزمان والمكان إلى أبد الآبدين وتنغلق الدائرة من جديد على الدوام. غير أن المسيحية اخترقت هذا التصور، وجعلت للزمان والمكان بداية ونهاية قطعيتين. وقالت إن الزمان والمكان سيقلعان عن الوجود بعد الفناء الأخير، بعد يوم

الحشر، وإن الحياة ستصب في الأبدية الإلهية، حيث تبلغ هناك هدفها النهائي.

تخلت العلوم الطبيعية الحديثة، التي تكونت في ركاب العقلانية والتنوير، عن هذه التصورات، وركزت اهتمامها على تهيئة علاقات »فردوسية« للإنسان على الأرض، فكان على جهودها جميعها وضع هذا الهدف نصب أعينها. كما عقدت الآمال على رفع الإنسان إلى سوية أخلاقية أعلى. لم يتحقق هذا في أي مكان كما يبدو، لكن ترقية نوعية الحياة هو ما تحقق على الصعيد المادي في ما يسمى العالم الغربي. وخلق الإنسان الأدوات المكرسة لتحسين العالم، بيد أن قرننا أكد أنه لا يعرف كيف يستخدمها بطريقة صائبة. لقد أُلغي الإله، ولا بد أن يفكر (الإنسان الأعلى الآن) على حدّ تعبير فريدريش نيتشه، بالكيفية التي سيتدبر بها أمره حيال اندثار تسبب به هو ذاته.

14
النهايات: الهوس القيامي الألفي

1) بدايــات
يهوذا في السبي البابلي

المسألة بسيطة جداً في الأساس. إن اندثار العالم هو نهاية الزمان، نهاية التاريخ. بأي شيء ترتبط المسألة، عندما تكون الأمور بلغت منتهاها وبأية طريقة يحدث ذلك. ثمة لدى علماء الفلك ما يخبروننا به. يقول هؤلاء إن الشمس ستنطفئ تماماً خلال خمسة مليارات من السنين؛ وإن ذلك سيفتح أبواب الجحيم على مصراعيها. بالنسبة إلى هواة الفلك أمثالنا، لا بد من تصديقهم، بعد أن عوّدنا أنفسنا على تصديق العلم، وخاصة منه العلوم الطبيعية الدقيقة.

لنتصور الآن ما سيحدث: ستغلي المحيطات، وستتمدد الشمس إلى حد أن السماء بأسرها ستصير كصفيحة متأججة . . . هذا التصور المقلق يتركنا مع ذلك باردي الأعصاب، لاعتقادنا أنه لن يتحقق إلا بعد وقت طويل جداً من اختفاء الجنس البشري والمخلوقات الأخرى عن وجه الأرض، وأن الإنسان قد يتمكن

من قذف نفسه في هذه الأثناء إلى عوالم نائية، يواصل فيها حياته الأرضية القديمة. ولكن إذا ما قيض لأحد أو لشيء حي البقاء على الأرض قبل بداية النهاية، فلن يكون لذلك أية أهمية بالنسبة إلينا. ماذا سيكون عندئذ المليار من السنين، وما المليارات الثلاثة والخمسة. إنها ليست سوى كم رياضي صرف، ولا تعني شيئاً بالإضافة إلى ذلك، فلا شيء منها سيكون قابلاً للتصور، ولا شيء سيمس شغاف القلوب. إنها ستكون عديمة الأهمية. أما الإثارة الناجمة عنها فلن تفوق الإثارة التي تولدها في أنفسنا قراءة جدول لوغاريتمات.

إذا افترضنا أن علماء الفلك لا يخطئون، قلنا إن العالم سيكون محتوماً ونهائياً، وسيحدث بالطريقة الأكثر جذرية. إنه سيكون حدثاً كونياً، لكنه لن يحمل أي معنى لنا، لأنه سيقع في عتمة مستقبل قصي إلى درجة يستحيل حسابها.

يقع نشوء الكون بدوره في ظلمة ماض يستحيل حسابه، مع أنه هو بدايتنا جميعاً، وبداية تطور الحياة التي دأبنا نحن البشر على اعتبار أنفسنا أعلى مراتبها. يقدم العلم قدر ما يستطيع معارف حول هذه المجالات الزمنية أيضاً، وإن كانت طبيعتها المؤقتة تتركنا نهاية الأمر في حال من عدم الرضا، وتثير لدينا الإحساس بأن الأمور لا يمكن تفسيرها بحساء أول، وبحيوانات ما صغيرة أولى أحادية الخلية؛ وبأن هناك نقصاً ما. أما السؤال عن الجهة التي جئنا منها، فيجيب العلم عنه بمعنى مادي أولاً وأخيراً، بينما يبقى فكرنا وروحنا قلقين، لأن الحساء الأول ليس غذاء كافياً لهما.

من أين جئنا وإلى أين نمضي. هذه أسئلة وجودية بالنسبة إلى الإنسان، مازال الأطفال يطرحونها ببراءة، ونريد نحن أن نعرف كيف بدأت الأمور وكيف ستنتهي.

لا تكفي الملاحظة الصرف. ولا يكفي أيضاً نشر الوقائع من أجل تلبية متطلبات الفكر والروح. إن العيون ليست وحدها التي ترى، والآذان ليست

وحدها التي تسمع – يريد الفكر والروح أن يريا ويسمعا بدورهما؛ لكن هذا يعني أنهما يريدان المشاركة في الإحساس والتفكير؛ والمشاركة في حدث والتفكير فيه يعنيان ملأه بالمعنى وجعله قابلاً للإدراك، ما دام تأويل الأحداث هو الذي يعطيها معنى.

لكن التاريخ لا يكشف بحد ذاته وفي أي حال من الأحوال معنى خفياً، رابطة سببية، تطوراً في الزمان؛ فالتاريخ هو بالأحرى التأريخ، أو تأسيس معنى ووضع رابطة سببية واختراع تطور. لا يجد التاريخ معنى مسبقاً للعالم بل «يقدّم ذلك المعنى». التاريخ هو «إعطاء معنى لما لا معنى له»[1].

تخلق الفنون، بعمومية التسمية، معنى، وخاصة القياسية منها كالفن التشكيلي والموسيقا والأدب. إنها تؤول الحاضر والماضي والمستقبل ولا تكتفي بوصفها. «لا يعكس الفن ما هو مرئي بل يجعل الأشياء مرئية» هذا ما يقوله الرسام والنحات العظيم بول كلي. فما الشيء الذي يجعله مرئيا غير المعنى. ألا تدرج هذه النظرة التأريخ بوقار في الفنون، ونمّكن كبار المؤرخين من أن يكونوا أدباء كباراً في الوقت نفسه، مثلما كان تِيُودور مُمزن (1817 – 1903 م) الذي نال مؤلفه الموسوم:)تاريخ روماني(جائزة نوبل عام (1902 م)؛ وونستون تشرشل (1874 – 1965 م) الذي منح بدوره جائزة نوبل للأدب عام (1953 م).

من المفيد التذكير أن الأمور لم تختلف اختلافاً جوهرياً بالنسبة إلى أسلافنا. فقد رأى الإنسان الأول، مذ نزل عن الأشجار ونظر عبر السهب وهو منتصب القامة، كيف التمعت البروق المنقضة من الغيوم، وكيف قصفت الأشجار وأشعلت النار من حين لآخر، فكان ينكمش مذعوراً عند انفجار البرق إلى جانبه. وكان ينتابه خوف شديد عندما يسمع دوي الرعد، فتطلب روحه المضطربة تأويلا للظواهر، وتجده بأن تجعل آلهة معينة مسؤولة عن البرق والرعد؛ آلهة أخضع نفسه لها لاعتقاده أنها هي التي تهدئها.

لا زلنا نخضع اليوم أيضاً لخبراء الأرصاد الجوية، مع أن توضيحاتهم لا تطمئننا تماماً. يتوجه هؤلاء إلى قدرتنا على الفهم، لكن الشعور بالخوف يبقى وتسري قشعريرة خفيفة في أوصالنا، إن ضجت العناصر وباغتتنا العاصفة.

هناك خبرة أولى أكثر أهمية من هذا؛ مخيفة ومطمئنة في آن معاً، هي دورة الفصول. ألم يندثر العالم القديم وينشأ عالم جديد في زمن يتكرر كل مرة وعود لا يتوقف. لم يكن شيئاً ما يثير الخوف من أن تتلون أوراق الأشجار في وقت معين بالبني والأصفر، وأن يسقط الثلج، وينصرف الإنسان لتكديس مؤونة الشتاء في مخازن المغائر، لأنه لم يكن يجد شيئاً في الخارج يمكنه الإفادة منه، متى انحدرت الشمس عن صفحة السماء. إن الاقتناع بأن الشمس سترجع لتمنح الدفء من جديد وتجعل كل شيء أخضر وزاهراً، كان يهدئ الخواطر. وتواصل الأشياء بقاءها، لأن كل شيء يبدأ من جديد. إنها دورة أزلية من الاندثار والخلق الجديد، معناها كامن فيها هي ذاتها، لأن الآلهة رتبتها على هذا النحو.

فناء وتجدد، موت وولادة، زوال وانبثاق؛ لم تكن النهاية أبداً حداً نهائياً، انطفاءً نهائياً. إنها معطى طبيعي متأصل فينا. صحيح أن المرء يستطيع التفكير في احتمال سقوطه في عدم مطلق، ويستطيع أيضاً التعبير عن ذلك بطريقة مفعمة بالذكاء، لكن هذا لا يعدو أن يكون أفكاراً وتركيبات تجانف الواقع الروحي؛ واقع ثقافتنا الروحي على الأقل، الذي يتطلب أن تلي النهاية بداية جديدة. وقد حافظت ثقافتنا الروحية على هذا التطلب منذ بداياتها الأولى، فكانت الأسطورة شكل التعبير عنه، وبالأخص منها أسطورة فناء العالم وانبعاثه من جديد. وقد سمحت أسطورة الخلق الجديد، التي حولها مرور الزمن إلى «معرفة» تأصلت بعمق في الروح، للبشرية بتجاوز كل اندثارات العالم التي حدثت حتى اليوم. ليس للتصورات الرؤيوية، ولغيرها من تهيؤات اندثار العالم، غير معنى واحد: تستمر الأمور، وتبدأ من جديد دوماً، بشكل من الأشكال وفي مكان من الأمكنة. لنسجل أيضاً أن اندثار العالم يطلق بحد ذاته قدراً من الخوف أقل من ذلك الذي

تتسبب به الظروف المرعبة المفضية إليه؛ على غرار ما يخشى الإنسان الطريقة التي سيموت بها أكثر مما يخشى الموت ذاته، كما يدّعي بين أشياء أخرى.

في الفقرات السابقة، عرجنا على أطول فترة زمنية يمكن التفكير فيها، هي تلك التي تقع بين بداية الكون ونهايته. يمتلك العلم تفسيرات جاهزة حول البداية والنهاية وحول طريقة التفكير فيهما. إنه يستطيع إخبارنا بسبب حَدَث ما أو باحتمال حدوثه. لكن تفسيراته لا يمكن أن تدعي الصواب إلا في إطار نظامه، النظام العلمي، وحده. ليس بوسع العلم تعيين السبب والقصد الأخير؛ السبب الأعمق للأحداث والأفكار، مع أن هذا بالذات هو ما نريد معرفته. أردنا مما سبق تفسير إشارات، لاعتقادنا أن الإيمان هو الذي يحاول تقديم أجوبة.

ما الذي جرى في فلسطين، التي أخذنا منها تصوراتنا الرئيسة، خلال العصر ما قبل المسيحي، عند منعطف القرن السابع إلى القرن السادس. «عميق نبع الماضي. ألا يجب على المرء اعتبار أغواره عصية على الكشف»[2]. على المرء أن يعتبر الماضي نبعاً عميق الأغوار بالفعل. لكننا سنحاول استخراج مائه بشجاعة خيّرة.

نحن الآن في بابل نبوخذنصر الثاني، الذي استمر حكمه من (604 إلى 562 ق. م)، آخر عظماء ملوك إمبراطورية بابل العالمية، تلك القوة السياسية الكبرى، التي اختفت من التاريخ على يد ملك الفرس قورش عام (539 ق. م) وتحولت إلى إقليم فارسي. وكان بلصازار ولي عهدها خلال سنواتها العشر الأخيرة.

يصور العهد القديم بابل ونبوخذنصر الثاني تصويراً بالغ السلبية والسوء. وفي ذلك ظلم لهما، إن نحن قومناهما بمعايير تاريخية عامة ولم نرهما بأعين يهودية، أي بذلك المنظار الذي يرى فيه المنتصر المهزوم، فلا يترك له أي وجه إيجابي.

عندما انهارت المملكة الآشورية، استردت يهوذا حريتها كاملة على وجه التقريب. كان البابليون وحلفاؤهم الماديون أعداء للآشوريين، فجرد نِكُو الثاني، فرعون مصر وحليف ما بقي من أشور، حملة عسكرية على بابل وبلاد

مِيدْيا، هدفها الحيلولة دون تشكل قوة عظمى جديدة، وفرض مطالباته القديمة في سورية / فلسطين، حيث كانت تقوم أيضاً مملكة يهوذا. وقد اعتقد حوشيا، ملك هذه المملكة، أن المصريين يشكلون تهديداً جسيماً لاستقلالها، الذي كانت قد أحرزته بشق الأنفس، فما كان منه إلا أن أرسل جيشه لمواجهتهم. لكن جيش الفرعون أنزل به هزيمة ماحقة أدت إلى إخضاع يهوذا لسيادة مصر.

اقتسمت بابل ومِيدْيا غنيمتهما الآشورية، فأخذت بابل سورية / فلسطين، من بين مناطق أخرى، كانت أيضاً مطمع الفرعون نِكو. لكن نبوخذنصر الثاني، ابن ملك بابل المريض نابوبلسار، أنزل هزيمة حاسمة عام (605 ق. م) بالفرعون، أعادت يهوذا إلى السيطرة البابلية. تولى نبوخذنصر الثاني العرش عام (604 ق. م) عقب موت أبيه، فأقسم ملك يهوذا يمين الولاء كتابع له. وحين حنث بقسمه بعد أعوام ثلاثة أرسل نبوخذنصر الثاني عام (598 ق. م) جيشاً إلى أورشليم، فاستسلمت دون أن يصيبها دمار. عندئذ، نفى ملك بابل تابعه ملك يهوذا وعائلته إلى بابل، حيث أمضى حياة لا تخلو من المسرات. كان الملك أسير نبوخذنصر الثاني، الذي لم يكن بالتأكيد إنساناً رقيقاً أو عطوفاً، لكنه منحه مقاماً لائقاً داخل قلعة بابل الجنوبية، وأمر بتزويده بإمدادات وافرة من المخازن الملكية، ثم سمح له، في فترة لاحقة، بالعودة إلى يهوذا. هكذا، كان وضع الملك جيداً جداً، رغم منفاه الإجباري.

إن أراد منتصر السيطرة على شعب من الشعوب، كان عليه فرض إطاعته على رؤوسه القيادية . . . أو قطعها. وقد نجا الملك المنفي، ومعه قسم كبير من الشريحة القائدة في يهوذا، بعد أن وجد كهنة وأنبياء وموظفون وسواهم من علية القوم أنفسهم مجبرين على الانتقال المؤلم إلى بابل، لأن نبوخذنصر الثاني اعتقد أنهم قد يتحولون إلى مثيري فتن، إن هم بقوا في بلدهم. كان هؤلاء معروفين بموقفهم المعادي من بابل، بغض النظر عن التجليات التي قد يفصح عن نفسه من خلالها. بنفيهم، لم يبق في يهوذا غير المترددين، وعديمي الرأي والشجاعة، والمحبطين،

وأصدقاء بابل، الذين شكلوا أغلبية كبيرة. اعتقد ملك بابل أن نفي تابعه عن يهوذا سيحول مرة واحدة وإلى الأبد دون نشوب تمرد آخر فيها.

لكن حساباته كانت خاطئة. وحين تأكد من ذلك جاء رده شديد القسوة. كان صدقيا، الملك الطيب، حسن النية، المحبب والضعيف، المحاط بموظفين فاشلين ومستشارين حمقى، دمية بابل في أورشليم. في البداية، كان نبوخذنصر الثاني يرى في صدقيا مبعث اطمئنان له، لكنه كان يحس أيضاً أن قصر نظره وضياع بصيرته وضعف إرادته قد تورط بابل من جديد في وضع حرج، دون قصد من ملك يهوذا.

ما الإمكانات التي كانت متاحة لمن بقوا في يهوذا. إذا ما تأملنا علاقات القوة، وجدنا أن هؤلاء لم يكن لديهم أية إمكانات على الإطلاق. بل إن إرميا، النبي سيئ السمعة في البلد كله بسبب نبوءاته (بين حوالي 650 وبعد 587 ق. م) أعلن بصوت جهير في أورشليم أن يهوه، الرب، سيرمي الشعب بالسيف والجوع والطاعون، إن لم يحن هامته ويضع عنقه تحت نير ملك بابل. وقد حمل هو نفسه نيراً حقيقياً على كتفيه كان يسير به في شوارع أورشليم، تأكيداً لخضوعه لبابل. لقد بدا وكأن إرميا كان يتحدث عن العلاقات السياسية انطلاقا من رؤية ذكية (إرميا 8:27).

لكن الرجل لم يكن يمتلك رؤية كهذه، لأنه لم يكن يفكر سياسياً بل فكَّر وأحس دينياً. قهر نبوخذنصر يهوذا. حسن. إن هذا ليس سوى عقوبة فرضها يهوه، بسبب السلوك الآثم والمتزندق لشعبها وقادتها حتى ذلك الوقت. فقد ارتد الشعب المرة تلو الأخرى، فأصدر يهوه حكمه عليه. وهذا شيء حسن عليه احتماله بصبر وطاعة.

من المفهوم أن خطب إرميا لم تكن محبّبة كثيراً إلى الناس. هذا لم يكن أيضاً قصد إرميا. فقد أعلن ما أوحى يهوه به إليه، أي أنه نطق بالحقيقة. هناك أنبياء آخرون

تساءلوا إن كان اليهوذيون شعب يهوه المختار أم لا؟ وقالوا إن يهوه سينتقم من نبوخذنصر الثاني في أقرب وقت. ستُباد بابل، وسيعود المرحّلون في مواكب مكللة بالنصر في أقرب وقت، هذا ما كان الشعب يريد سماعه. لكن إرميا أسمى هؤلاء بغضب واحتقار: «منجمون، مفسرو أحلام، سحرة» (إرميا 27:9).

كان صدقيا الملك يصغي إلى أقوال إرميا، فوقع شيئاً فشيئاً تحت الضغط، فقد كان من الصعب الإمعان في تجاهل تطلعات يهوذا، خاصة أن التململ كان يتعاظم بسبب إحجام القيادة عن أي فعل. في هذه الأثناء، تحركت مصر من جديد، ومال الفرعون بْسَامّتِخ الثاني إلى خطط الاستيلاء على سورية/ فلسطين. رأت يهوذا في نفسها حليفاً طبيعياً لمصر، مع أنها كانت تستبدل على الأرجح سيادة بابل بالسيادة المصرية العليا. من جانبه، كان الملك متردداً، بسبب نفوذ إرميا على الأرجح. لكنه ما لبث أن خضع لحزب الحرب ولبْسَامّتِخ الثاني، الذي كانت ضغوطه تتزايد، وحملاته العسكرية قد بدأت. أخيراً، تنكر صدقيا لبابل عام (589 ق. م) وحذت حذوه دول تابعة أخرى. فكان ذلك قراراً ترتبت عليه زوال مملكة يهوذا.

أتى رد فعل نبوخذنصر الثاني سريعاً ومصمماً، فأرسل جيشه لمواجهة قوات الفرعون قبل أن تتمكن من تثبيت أقدامها في سورية / فلسطين، ودحرها بقوته المتفوقة وهزم معها يهوذا، التي احتلت من جديد، ثم حاصر أورشليم عام (587 ق. م) وطوقها واحتلها في العام ذاته؛ وأزال، عندئذ، أسوارها، وأحرق قصر الملك والهيكل، وتركها فريسة للنهب. قبل هذا بقليل، كان صدقيا قد فر بصحبة بعض أتباعه المخلصين، لكن قبض عليه قرب أريحا وأجبر على رؤية أبنائه وهم يشنقون، قبل أن تسمل عيناه ويجر مقيداً بالأغلال إلى بابل.

فتش المنتصرون المدينة والريف بحثاً عن القادة. كما ألقوا القبض على إرميا، الذي سرعان ما أخلي سبيله بأمر من نبوخذنصر الثاني نفسه. بذلك بدأت موجة الترحيل والنفي الثانية، وإن كان نبوخذنصر لم يفكر بإفراغ يهوذا من سكانها، وأبقى فيها من انتسبوا بوجه عام إلى الشرائح اليهوذية الدنيا، كي لا تتحول إلى بلاد مقفرة.

إذا كان إرميا قد رأى في نبوخذنصر الثاني عبداً وسوطاً ليهوه، وبالتالي أداة في يده، فإن رؤية دانيال تصبغه بلون قاتم باعتباره شيطاناً سيصاب في النهاية بالجنون - وجهة نظر المهزوم والخاسر. يجعل سفر دانيال، وكذلك المؤرخ الإغريقي هِرُودُت، من ملك بابل طاغية غشوماً.

كان نبوخذنصر الثاني واحداً من أكثر ملوك عصره جبروتاً وفاعلية. فقد كان عقلاً خلاقاً، وديبلوماسياً بارعاً، ومحارباً بارزاً؛ عاشت بلاده حقبة ازدهار وتفتح في كنفه، وهو الذي دعم الفن والثقافة والعلم، واستخدم القسم الأكبر من عائدات الضرائب الوافرة، المتدفقة من التجارة المزدهرة، لإعادة بناء العاصمة بابل وجعلها أكثر فخامة وأبهة من أي وقت سابق.

حاول كل حاكم تأبيد نفسه عن طريق أعمال البناء. لم يكن نبوخذنصر استثناء هذه القاعدة. فقد شاد أبنية ملوكية بالفعل، جديرة بكل المعاني بإمبراطوريته العالمية. ومازالت أسوار بابل الجبارة، وحدائق سميراميس المعلقة داخلها تعتبران إلى يومنا هذا من عجائب الدنيا السبع.

في ظروف أخرى؛ ظروف ودية، كان يمكن لليهوذيين المرّحلين أن يروا في مدينة بابل وريفها ضرباً من جنة، يمكن مشاهدة برج معبدها من بعيد؛ لأنه كان بناء جباراً ومهيباً ينتصب كالهرم بحجمه الهائل، يكسوه قرميد أزرق زجاجي يوزع ضوء الشمس المتلألئ؛ بينما يسمق صاعداً إلى عنان السماء كجوهرة تزدري أية مقايسة، ويبرز بجلال فوق أسوار المدينة. إنه برج بابل المعروف، الذي عدّه اليهود ثم المسيحيون رمزاً للتجبر البشري. إلى جانب البرج، كانت هناك أيضاً الأسوار ببواباتها، وهي مهيبة تبعث الخوف في النفوس لكنها تَعِد، في الوقت نفسه، بحماية عصية على الانتهاك، وتعدّ تعبيراً عن سيطرة تكره الرعايا على الطاعة وتحميهم في آن معاً.

وجد المنفيون المرّحلون، المرهَقون بعد مسير استمر شهوراً، حقولاً خصيبة

وأقنية ري زرعت ضفافها بأشجار نخيل تتمايل برفق على جوانبها. ورأوا قطعانا حسنة التغذية، وغرباء يتجولون برؤوس مرفوعة، يثرثرون ويتاجرون بسلام بعضهم مع بعض، يرعون المواشي ويزرعون الحقول ويضحكون أو يتشاتمون؛ يلهو بينهم أطفال يحاولون إمساك بعضهم بعضاً، يتضاربون ثم يتصالحون من جديد. تلك كانت بلاد العدو «القادم من الشمال» بلاد الشيطان، بلاد «سوط يهوه» التي هدمت أسوار مدينتهم وهيكلها، ونفتهم.

خصّ البابليون المرحّلين بأماكن سكنى بنوا فيها أكواخاً وبيوتاً، ثم بدؤوا يعقدون صداقات مع جيرانهم الغرباء، بينما كان أطفالهم يلهون مع مجايليهم من غير اليهوذيين. حين كان الحنين إلى الوطن يأخذ بأنفسهم، كانوا يجلسون على «مياه بابل» يشكون مصيرهم ويبكون. أما كبار السنّ بينهم، فكانوا يتذكرون في مناسبات كهذه كلمات إرميا (مزامير 137).

رغم هذا، كان للحياة اليومية وطأتها الخاصة، التي حالت بينهم وبين الشكوى والأنين، هم الذين وجدوا أنفسهم مجبرين على تدبّر أمورهم، ولحاضرهم حقوقاً عليهم لا يمكنهم الإفلات منها.

شجّع نهوض بابل الاقتصادي المنفيين على المشاركة فيه. وقد وصلت بعض أسرهم إلى حال من اليسر، فمارست التجارة، وعقدت صفقات مصرفية، وأقامت صلات تجارية شملت البلاد بأسرها ومناطق ما وراء الحدود. في حين كانت أسر أخرى أقل نجاحاً وحظاً، فلم تجد ما تفعله غير الشكوى وخلع طابع أسطوري على الوطن الضائع.

أقلع المرحّلون، هنا وهناك، عن حمل الإيمان بيهوه على محمل الجد. في سماء آلهة بابل، التي لمع في مركزها مردوك وعشتار، إلهة الحب والخصب المغرية، كان بوسع اليهوذيين إيجاد ما يستجيب لحاجاتهم تمام الاستجابة. فلا عجب أن تعرض دين يهوه لأزمة. ألم يثبت مردوك أنه الإله المتفوق. ألم يكن أشد جبروتاً من يهوه، الذي

عجز عن منع تدمير أورشليم والهيكل. أليس من الأجدى عبادة مردوك، ربما ليس بمفرده بل إلى جانب يهوه .ثم من الذي يعرف كيف يتدبر أمره في أوقات سيئة كهذه.

شعر كهنة يهوه بالقلق يغزوهم، فعدم الاكتراث الواضح بخسارة آلهة الآباء، وتبني آلهة الآخرين، ذلك كانت له نتائج عميقة بالنسبة إلى فهم الذات، قاومها الكهنة بتقوية الإيمان الأصلي، كي لا يصيبه مزيد من الضرر.

عموماً، لم يكن الميل إلى التكيف جارفاً، ولم تكن جاذبية الثقافة الأجنبية المتفوقة كبيرة إلى حد يهدد جدياً إيمان المرحّلين بيهوه. عندما يعيش المرء في بلد معادٍ، وبابل كانت بلداً معادياً، فانه يرص صفوفه، ويعنى بتقاليده، ويفكر فيما هو قيم وعزيز بالنسبة إليه. من هنا، تركت الطريقة المتراخية، التي كانت عادة جيدة في الوطن، محلها لأعراف صارمة في بابل.

هناك أمر لم يكن ممكناً أو مسموحاً ليهود المنفى القيام به: إنه تقديم الأضاحي ليهوه؛ فبابل كانت بلاداً دنسة لا جدوى من تقديم الأضاحي فيها. كانت إقامة هيكل ليهوه مسألة منعت ذاتها بذاتها أيضاً. ذلك كان مأزقاً يجب الخروج منه. وقد وجدوا له تدبيرا بالفعل، بأن أسسوا مدرسة دينية تحولت فيما بعد إلى كنيس أقاموا فيه صلواتهم، وغنوا، وأنصتوا إلى شراح شرائعهم الدينية، وتجمعوا كل يوم سبت لإقامة احتفال تحول بعد حين إلى أكثر من تعويض عن أهمية العبادة.

كانت الشريعة «التثنوية، المحفوظة بصيغة معدلة في سفر التثنية، وجوهرها تنظيم العبادة» هي التي شدت في النهاية أزر المرحّلين، ومنحتهم سنداً وأماناً في الغربة. ألم يكن الأنبياء على حق في نبوءاتهم وكلماتهم المهددة، التي أعلنت أن الأحوال ستؤول إلى نهاية سيئة، إذا لم يفكر المرء ويتوب.

لقد فكروا وتابوا. ذلك أمر لا يمكن إنكاره. بل إن بعضاً منهم، ممن كانوا قد نظروا بإشفاق وازدراء إلى رجال الرب الذين ماتوا منذ وقت طويل والى

أخلافهم، وبينهم مثلاً إرميا، طلب الصفح والمغفرة في قرارة نفسه. لقد رأى بعيدو النظر منهم التطور المثقل بالكوارث، لأن حكمتهم تحدرت من يهوه. وأعلن هؤلاء ما رأوه لشعبهم وتمسكوا به رغم خطره أحياناً على حياتهم.

كان وضع يهوه صعباً لدى الذين بقوا في فلسطين. هذا الإله لم يتمكن من فرض نفسه دون معارضة منذ أزمنة موسى، بل كان في تنافس دائم مع آلهة الثقافات المحيطة بإسرءيل. وقد داخل الشك فيه نفوس بعض الناس عقب تدمير أورشليم، فتساءلوا إن كان جباراً كما زعم الأنبياء، أو اختارهم فعلاً كشعب للخلاص الأبدي.

وكان للنتيجة التي ترتبت على الكارثة السياسية أن تترك ارتساماتها في حياتهم: فانفتحوا من جديد، وبصورة طوعية، على الثقافات الغريبة. وسمحوا بعبادات أجنبية، إلى أن بدا يهوه وكأنه أحياناً محض إله إلى جانب آلهة أخرى. لقد قدم اليهوذيون له الأضاحي، بطبيعة الحال، لكنهم قدموها لآلهة أخرى كذلك، وخاصة آلهة كنعان التي كان لها جاذبية خاصة بالنسبة إليهم. وقامت الأديان المختلطة الأخرى من جانبها بإضفاء طابع شديد الغموض على العلاقات الدينية في الوطن، أدت إلى ظهور تصورات جديدة في إقليم سمر، نواة مملكة بني إسرءيل الشمالية السابقة، تصحبها عبادات شعوب شرق الأردن، جعلت من الصعب تمييز يهوه أورشليم عن يهوه إقليم سمر، أو عن ملكون العمونيين، أو عن كموش المؤآبيين؛ علماً بأن آلهة بابلية عبدت إلى جانب هذه الآلهة، وبأن طقوسها وجدت أتباعاً كثيرين لكونها طقوس دين الدولة المنتصرة والمسيطرة. حدث هذا في وقت شهد استمرار ديانة يهوه الأصلية، التي كانت محدودة الوجود على كل حال، واستمرار استخدام أنقاض الهيكل لأغراض تعبدية.

من الضروري أن نوسع الدائرة قليلاً، لقياس حجم الانقلاب التاريخي الهائل الذي مثله ذلك التطور بالنسبة إلى قناعات اليهوذيين المتزمتين الدينية، ومعرفة التصورات الرؤيوية، وتصورات اندثار العالم، المرتبطة بها.

أين كان يمكن اكتشاف معنى في هذا اللامعنى. وهل كان هناك أي معنى على الإطلاق في الكارثة. وكيف كان يمكن تفسير المكان والزمان.

كان الأنبياء قد كرروا دون كلل وحتى السأم مطالبة أبناء شعبهم بالتوبة، وبالتخلي عن سلوكهم الآثم! وقالوا لهم إن الأمور لا يمكن أن تستمر بالطريقة التي كانت عليها إلى الآن. وتساءلوا إن كان هذا هو شعب إسرءيل، الذي ينبغي أن يكون الشعب الذي اختاره يهوه شعباً له، وإن كان هؤلاء الخطاة، الأشرار، المرتدون، محطمو روابط الزواج المقدسة، المخادعون، يستحقون الوعد بالخلاص الأبدي. وإن كان هؤلاء الذين لا يحسنّون أنفسهم ويرفضون التوبة جديرين بانتهاج درب يفضي إلى حياة مفعمة بالخوف من الإله. كلا. إن هذا لن يكون أبداً، فقد ضيع الشعب اصطفاءه، باستهتاره وعصيانه، فلا معنى لتاريخه كله: من موسى إلى داود إلى الآن. إنه تاريخ باطل، مفوّت، وغير قابل للاستعادة.

لا أمل وسط هذا الظلام الدامس، إن كان هناك من أمل إطلاقاً، غير قيام يهوه ببداية جديدة مع هذا الشعب. إن القطيعة التي رآها الأنبياء بين ما انصرم ومضى وما أبصروه وتأكدوا منه كانت عميقة ونهائية إلى درجة جعلت من المحال فهم الجديد المرتجى كاستمرار لما كان.

نفى الأنبياء نفياً قطعياً إمكانية وجود أي أمان وأية يقينية خلاصية، وأحلوا محلهما الأمل في شريعة جديدة آتية. تلك القطيعة هي قطيعة في التاريخ، تتمثل من الآن فصاعداً في جزأين منفصلين هما الما قبل والمابعد. لم تستطع النبوآت تصور الجديد الآتي، بطبيعة الحال، إلا كتماثل مع سلوك يهوه. إن الإله الذي يحول التاريخ، يعقد قبل ذلك يوم دينونة هو يوم يهوه. إنه يومه، يوم دينونته، يوم الغضب، يوم الإبادة ويوم الهلاك.

هذا التصور كانت له تقاليد في إسرءيل، لذلك يعود الأنبياء إلى هذا «اليوم» الذي يسم نقطة القطيعة ويمهد في آن معا للانعطاف نحو الجديد، نحو الخير

والخلاص، المتوطن توطنا دائما في هذا العالم، هذا هو الفارق بينه وبين النزعة الرؤيوية، وبكيفية يمكن للبشر اختبارها؛ طريقة ستبقى قابلة للاختبار حتى بعد حدوث الانعطاف نحو الجديد. يجري التاريخ في هذا العالم، وتؤكد الرؤيوية، بالمقابل، عالماً آخر ماورائياً.



2) أملٌ وخيبة
الرؤيويات تأويلاً للوجود

خسر بنو إسرءيل اصطفاءهم بسبب إثمهم الخاص، وأرسل يهوه البابليين لمعاقبتهم. هذا كان يوم دينونة يهوه، ولم يكن للأمور أن تختلف عن ذلك بأي حال. ندب القوم مصيرهم، في الوطن كما في المنفى، لكنه لم يكن بمستطاعهم تجاهل الحقيقة، وهي أن إثمهم الخاص هو الذي ساقهم إلى الكارثة.

الآن، يطرح نفسه السؤال التالي: كيف تصور القوم المستقبل؟ وكيف كان يجب أن تسير الأحوال بعد الكارثة، وبعد أن أصدر يهوه حكمه؟ ثمة إجابة عن هذين السؤالين عند نبي يسمى إشعيا الثاني، رأى أن أول شيء يجب فعله هو قهر بابل، على أن يتم بوساطة يهوه شخصياً أو بيد قورش ملك الفرس: أداة يهوه، وربما بيد إسرءيل ذاتها. بعد هزيمة بابل، سيعود المنفيون إلى وطنهم الأصلي، وسيعاد تجميع الذين تبعثروا منهم في العالم. آنذاك، سيعود يهوه نفسه إلى وطنه

في صهيون، وسيقتنع الناس أن لا فائدة البتة من كل الآلهة الأخرى، وسيرجعون رجعة نهائية إلى إلههم، الذي كان قد اختارهم شعباً خاصاً به.

من الطبيعي أن البلد المخرّب، وخاصة منه أورشليم وهيكلها، سيعاد بناؤه. وأن يهوه نفسه سيبارك هذا العمل، الذي سيكون إيذاناً ببداية العصر الجديد، عصر الخلاص.

بدأ العصر الجديد بالفعل، بالطريقة التي كانت قد حددتها. فقد استولى ملك الفرس قورش على إمبراطورية البابليين عام (539 ق. م) حين أسقطت الخيانة مدينة بابل في يده دون قتال تقريباً. ولأن قورش كان ملكاً مستنيراً وليبرالياً بالمقارنة بغيره، فإنه أراد للعدالة أن تسود مملكته. لذلك، لم يعد صحيحاً بعده أن شعب الفرس المسيطر كان يفرض نظام إكراه على الشعوب الأخرى، وعاش سكان المملكة بالأحرى رعايا متساوين، فكان حكم قورش فترة قطيعة مع طرائق السلوك الشرقية القديمة. كان قورش رجلاً عصرياً إلى أبعد حد.

سمح الملك لليهوذيين المنفيين بالعودة إلى وطنهم، فحزموا ضمائمهم، وحمّلوا عرباتهم وامتطوا حميرهم دون أن ينسوا مؤونة الطريق، وغادروا بابل قافلة بعد أخرى. وكانوا قد أمضوا حوالي ستين عاما من البكاء والشكوى عند مياهها.

سمح قورش لهم أيضاً بأخذ أدوات الهيكل، التي كان نبوخذنصر الثاني قد استولى عليها ذات يوم. إلى ذلك، أمدهم الملك بمعونة مالية كبيرة، فقد أمر بإعادة بناء هيكل القدس على نفقة الدولة، وأصدر مرسوماً بذلك نستطيع قراءته في الإصحاح السادس عند عزرا.

لكن جزءاً وحسب من اليهوذيين انطلق على طريق العودة الطويل، المحفوف بالأخطار والصعاب. لقد فضل كثيرون البقاء في بابل لمتابعة أعمالهم، فبابل كانت قد غدت موطنهم الجديد، وكانوا لا يملكون أية رغبة في إعادة بناء يهوذا، التي ستتطلب الكثير من المال والقوى. وزاد من عزوفهم أن جيل الأحفاد قد كان

بلغ طور الشباب. ربما كان الأجداد، الذين طعنوا في السن، بقوا مخلصين للوطن ويهوه. وربما كان الآباء كذلك، لكن جيل الأحفاد تحسس الأمور ورآها بمنظار مختلف، واعتبر بابل وطنه. ووعد يهوه بالخلاص. حسن، ربما كان هذا يعني شيئاً للشيوخ!.

لم يُستقبل العائدون بأذرع مفتوحة. بغض النظر عن أنهم أخذوا يطالبون بممتلكاتهم القديمة التي كانت قد آلت إلى آخرين، فإنهم كانوا أتباعاً أظهروا إخلاصاً خاصاً ليهوه، تمتعوا بإيمان وطيد واتسموا بالصلابة والكبرياء. لقد كان التفاهم مع أمثالهم صعباً على الدوام، وزاده صعوبة أن معياريتهم الجامدة كان يمكن أن تنزلق دون قصد منهم إلى نفاد صبر، ومعصوميتهم إلى تنزيه لذواتهم.

وضع الحاكم الفارسي شيشبصر عام (536 ق. م) حجر أساس هيكل أورشليم الجديد، وتبرع بالمال لإعادة بنائه، فحذا العائدون حذوه. كان الهيكل المدمر، هيكل سليمان، ملكاً للملك، فأريد للهيكل الجديد أن يكون ملكاً للشعب الذي يتكفل بنفقاته. إنه هيكل شعبي إذاً، سينتمي إليه اليهوذيون جميعهم: المتزمتون منهم والمتساهلون. ذلك جعل النزاع بين الطرفين حتمياً، سعّره بصورة خاصة النبي حجي، الذي قال إن الطهارة الدينية لا تقبل النقل إلى الآخرين، بينما يمكن نقل النجاسة إليهم. وخلص إلى أن الأنجاس، الدنسين، أولئك الذين يعبدون آلهة الآخرين إلى جانب يهوه، سيدنسون الهيكل الذي يبنى بأعطياتهم وأضاحيهم، التي تحمل عدوى الطاعون.

لم يقبل المخالفون دينياً هذا التمييز المجحف، واحتجوا لدى الحاكم الفارسي المسؤول، الذي جاء إلى أورشليم عازماً على إيقاف إعادة بناء الهيكل. استعان الحزب المضاد عندئذ بمرسوم الملك قورش، الذي كان قد فارق الحياة في هذه الأثناء، فتم البحث عنه في محفوظات البلاط وعثر عليه بالفعل. سمح الحاكم باستئناف البناء، ودشن الهيكل عام (515 ق. م) وسط مظاهر احتفالية باذخة.

كيف كان الوضع الآن، مع انبثاق العصر الجديد، عصر الخلاص، عصر بركات يهوه. رأى حجي أن الانعطاف سيبدأ مع وضع حجر أساس الهيكل، فأيد زميله زكريا وجهة نظره. وسيعلن زلزال كوني اكتمال الانعطاف، ما أن تنتهي أعمال البناء. منذ هذه اللحظة، سيبدأ عصر الخلاص كاملاً وسيسود الحاكم الفارسي زروبابل، سليل بيت داود المزعوم، العصر الثاني بوصفه ملكاً مسيحانياً. وقد آمن زكريا بهذه النبوءة إلى درجة جعلته يتوج زروبابل رمزياً.

اعتبرت اليهودية المسيح، المنزه من يهوه، إنساناً. لكنها رأت فيه إنساناً خاصاً لا شبيه له، لأن يهوه منحه، هو المتحدر من نسل داود، القوة كي يساعد شعب إسرءيل والبشرية بأسرها على بلوغ الاكتفاء الروحي والسياسي والأخلاقي. لقد أوكل يهوه إليه ضمان السلام والحق والنظام. وإذا كان لن يتم العثور عليه مخلصاً في هذه السنوات، فلأن العثور عليه رهن بإرادة يهوه: الذي هو الملك الحقيقي وسيبقى كذلك.

بالإضافة إلى ما سبق، قال النبي حجي إن الزلزال العالمي سيجعل كل الشعوب تجلب كنوزها إلى أورشليم، يدفعها إلى ذلك احترامها المفعم بالخوف ليهوه، الذي سيظهر على حقيقته سيداً للعالم.

لم تزلزل الأرض زلزالها. ولم يجلب أحد أية جواهر، فضية كانت أم ذهبية أم من معادن ثمينة، فساد الحرج والحيرة في كل مكان، وذهلت الوجوه، وتبلبلت الأفكار، وانتشرت الخيبة والتشاؤم، وتراكم الغضب هنا وهناك. هل كان يهوه نائماً؟ ألم يكن يسمع؟ أكان مهاناً أو مشمئزاً لسبب من الأسباب؟ لماذا لم يظهر، ولم يرسل المسيح على الأقل. كيف يمكن تفسير هذه الورطة؟

عثر النبي الآخر، المسمى إشعيا الثالث، على الحل: «يد يهوه لم تقصر عن الخلاص وأذناه لم تثقل عن السماع. لكن آثامكم فصلتكم عن إلهكم، وخطاياكم حجبت وجهه، فلا يسمع» (إشعيا 59:1-2)؛ هذا ما قاله النبي لقومه.

إنه الأمر القديم ذاته إذاً: الحياة المفعمة بالآثام والخطايا. هذه مناسبة مثقلة باليأس، واجهها بعضهم بالهرب إلى ورع ديني مفرط جعله يتحاشى كل من ظنه دنساً من جيرانه، دون أن يتخلى عن الأمل بقرب بداية العصر الجديد. في حين عاد بعضهم الآخر من جديد إلى طاعة صارمة وحرفية للشرائع الموسوية، آملاً أن يرضي ذلك يهوه ويقنعه. لكن الناس عموماً تخلوا شيئاً فشيئاً عن الأمل ببداية عصر ثان كان قد قيل لهم إنه زمن خلاصهم.

حدث هذا، بعد أن كانت صورة العصر الجديد قد رسمت بأزهى وأروع التفاصيل، حيث سيقوم يهوه، تدفعه إلى ذلك رغبته في تخليص شعبه، بإعادة تشكيل العالم ومنحه بركاته ونعمه، حتى بالمعنى المادي للكلمة. أما أورشليم، فإنها ستصير مركز العالم ومملكة يهوه الأزلية، وسيفيض منها الثراء. بينما ستتألق البلاد بخصوبة فردوسية، وسيكون لبني إسرءيل أخلاف كثيرون، وستختفي الآلام الجسدية ويسود سلام أبدي بين الناس والحيوانات، «لأنهم سيجعلون سيوفهم محاريث ورماحهم مناجل. لأن أي شعب لن يرفع السيف ضد شعب آخر، ولأنهم لن يتعلموا بعد الآن شن الحرب». عندما يبدأ المسيح سيطرته، عندئذ «فيسكن الذئب مع الخروف، ويبيت النمر بجانب الجدي. ويرعى العجل والشبل معاً وصبي صغير يسوقهما. وتصاحب البقرة الدب ويبيت أولادهما معاً. ويأكل الأسد التبن كالثور. يلعب الرضيع على وكر الأفعى، ويضع يده في مكمن الثعبان. لا يسيء أحد ولا يُفسِد» (إشعيا 11:6-9). لقد قيل هذا كله وما هو أكثر منه، دون أن يحدث أي شيء منه.

سلام في الداخل وسلام مع الجيران في الخارج، علاقات مادية ودينية مضمونة، قانون عادل يطبق بعدل؛ يكفل النظام فلا تستطيع أية جماعة أن تكون من دونه؛ يجزي الأخيار ويعاقب الأشرار، ذلك كان توق الشعب الأعظم، الذي تشوق لتحقيقه، مع عودة أزمنة الاضطراب السياسي عقب حقبة الهدوء النسبي في ظل قورش.

استولى الإسكندر الأكبر على فارس بعد أن احتل سورية وفلسطين، اللتين سقطتا دون مقاومة تقريباً، قبل أن يتكرر الأمر نفسه في مصر. حمى الإسكندر الشعوب المحتلة، لأنه أراد أن يتغلغل الإغريق سلمياً في بلدانها، وأن تخترقها الروح الهلنستية. حاول الفاتح الجديد إقامة حد أدنى من الوحدة الثقافية بين الشعوب التي سيطر عليها، تسودها الروح الإغريقية بالطبع، التي كان تملّكها يتطلب معرفة اللغة الإغريقية وتبني طريقة الحياة الإغريقية ونمط التفكير والفلسفة والفن في اليونان. لم يحقق المقدوني خططه إلا بصورة جزئية، لأن أغلبية اليهوذيين كانت متمسكة تمسكاً شديداً بالتقاليد، فلم تنجح أنماط الحياة والتفكير الإغريقية في مد جذورها بقوة لديها.

توفي الإسكندر فجأة عام (323 ق. م) فتفككت إمبراطوريته العملاقة، التي كان قد فرغ لتوه من السيطرة عليها، بفعل صراعات الخلافة التي نشبت بين قادة جيوشه. ونشأت ممالك ثلاث على أنقاضها: مملكة السلوقيين في بابل وسورية وآسيا الصغرى، التي استمرت حتى عام (83 ق. م) ومملكة البطالمة في مصر وفلسطين، التي انهارت عام (30 ق. م). ومملكة الأنتِغونيين في أوروبا.

انتهجت مملكة البطالمة سياسة تسامح ديني، مكنت اليهوذيين من الحفاظ على ولائهم لإلههم، رغم أن عصر الخلاص رفض أن يبدأ، ولم يظهر أي مسيح.

انتزع السلوقيون فلسطين من البطالمة عام (198 ق. م) بمعونة كبيرة من الحزب الموالي لهم فيها. وصار الأنطاكي الثالث ملك يهوذا وأورشليم الجديد: «بما أن اليهوذيين أظهروا لنا حماستهم المجيدة بمجرد دخولنا إلى بلادهم، واستقبلونا استقبالاً رائعاً لدى وصولنا إلى مدينتهم، وخرجوا لملاقاتنا وملاقاة مجلس الشيوخ، وقدموا طعاماً وافراً للجيش وللفيلة، وساعدوا في أسر القوات المصرية في القلعة [المقصود قلعة أكرا في أورشليم] فإن من الحكمة الاعتراف بمساعدتهم لنا ومكافأتهم بإعادة بناء مدينتهم التي دمرتها الأحداث وتمكين مواطنيها المشتتين من العيش فيها»[1]. هذا ما قاله الملك بشهامة، وأردفه بتدابير سخية أخرى، فأمر

أن تسهم المملكة إسهاماً كبيراً في العبادات: في كل ما يتعلق بتقديم حيوانات الأضاحي والنبيذ والزيت والبخور؛ وخصهم بكميات مجانية من القمح والملح، وأوعز بقطع الأخشاب اللبنانية الضرورية لبناء الهيكل، وأعفاهم من الضرائب طوال ثلاثة أعوام قادمة، وترك لهم ثلث التأديات الضريبية التي يجب عليهم تقديمها بعد انقضاء هذه المدة. أما اليهوذيون الذين كانوا رازحين في العبودية، فأعلنهم وأخلافهم أحراراً وسمح لهم باستعادة ثرواتهم المصادرة.

ذلك كان سخاءً عظيماً دون شك. لكن الذين أفادوا منه اقتصروا بالفعل على شريحة رقيقة من أصحاب الامتيازات، كما يحدث عادة في مثل هذه الحالات. أما الفئات الضعيفة اجتماعياً، وخاصة منها سكان الأرياف، فخرجت صفر اليدين بدرجات متفاوتة؛ مع أنها كانت قد عانت دوماً الإجحاف، وأملت أن يأتيها تغير السادة بالانعطاف المأمول نحو عصر الخلاص الذي كانت قد وعدت به منذ زمن طويل. هكذا، نما الحقد على «أولئك الذين هم فوق» دون أن يتحقق العدل والسلام الداخلي. وتبين أن الأمل كان ضرباً من العبث واللامعنى، فتعاظمت الخيبة وأخذت أحجاماً هائلة. مع ذلك، لم يأت عصر الخلاص ولم يظهر أي مسيح.

لكن الآتي كان أعظم. فقد تعرضت العلاقات السياسية والدينية لتبدل عاصف في حكم الأنطاكي الرابع إبيفانِس (175 – 164 ق. م) الذي دفع الهلينة من جديد دفعة قوية إلى أمام، وحقق نجاحاً في مسعاه بمؤازره الشريحة العليا المؤيدة له. أنشأ إبيفانِس ملعباً على الطراز الإغريقي في أورشليم، تعلمت الشبيبة الذهبية وتدرب الفتيان على المنافسات الرياضية فيه «وحاولوا ستر ختانهم فخانوا بذلك العهد المقدس مع الرب إلههم، واندمجوا بتلك الأمم وقاموا بأعمال حرمتها شريعة الرب» (المكابيين الأول 1:15).

هؤلاء الفتية الغنادرة كانوا يتسكعون في المدينة وهم يرطنون بإغريقية طليقة، لسرور أهلهم وحزن المؤمنين. وقد وضع الأنطاكي كذلك سجلا دوّنت فيه أسماء مواطني أورشليم، أسقطت منه أسماء المعادين للهلينة.

نما حنق التقليديين على ما قام به مواطنوهم المنصرفون عن الإيمان، إلى أن أخذ أشكالاً في النهاية، شرع معها اليهوذيون المحافظون والمناصرون للهلينة يقتتلون في الشوارع، ويحدثون الاضطرابات.

عندما عاد الأنطاكي الرابع إبيفانِس من حملة عسكرية على مصر، جعل بين أولوياته إطفاء الفتيل المتوهج قبلَ أن يتحول إلى نار تستحيل السيطرة عليها، قد تشعل المملكة وتذوبها في سعيرها. كان الملك عازماً على تقديم درس، وتحسين مالية دولته المهشمة في آن معاً، فاقترف أفظع حماقة يمكن اقترافها في هذا الوضع المتوتر: أمر بنهب هيكل أورشليم. غرقت المدينة في فوضى شاملة، عندما لجأ التقليديون إلى السلاح وانقضوا على مواطنيهم ذوي الأفكار الهلنستية، فنشأت أوضاع شبيهة بأوضاع الحرب الأهلية. من جانبه، رأى الأنطاكي في الحوادث انتفاضة عامة ضد سلطته، وشرع يضرب دون رحمة، مهتبلاً الفرصة لفرض كل ما هو إغريقي دون أي وازع وإلى غير رجعة.

عسكرياً، حسم الوضع بعد حين لصالح الأنطاكي، الذي لم يلبث أن انتزع الهيكل من أتباع يهوه وحوله إلى معبد لبعل، كبير آلهة الكنعانيين، الذي كان السلوقيون يماهونه مع زيوس. وفرض عقوبة الإعدام على من يحتفل بالسبت والأعياد الدينية، وعلى الصيام والختان، وامتلاك نسخة من لفائف التوراة. كما منع أضاحي النار والطعام والشراب، وفرض أكل لحم الجنزير بقوة الدولة، وكان اليهوذيون يرفضون أكله لاعتقادهم أنه نجس؛ بل حكم بالإعدام على كل من يمتنع عن أكله. بدوره، تعرض الإيمان بيهوه إلى محنة قاسية، ربما كانت أصعب مأزق واجهه في تاريخه.

لم يأت عصر الخلاص، بل جاء عكسه، فبدا الحاضر أشد قسوة من أي زمن سبقه، وصار يهوه، أو مسيحه، بعيداً بعداً لا نهاية له. ما الذي كان يمكن تحقيقه من الوعود في ظروف كهذه. لا شيء تقريباً أو بالأصح: لا شيء على الإطلاق.

في هذه المحنة الرهيبة تداول الناس كتاباً أراد بعث الشجاعة من جديد في نفوسهم ومنحهم العزاء وتحصينهم ضد اليأس. هذا السفر صاغ أفكار ومشاعر نهاية الزمن التي كانت تحرك الشعب منذ زمن طويل، وتم وضعه بين أعوام (167 – 164 ق. م).

في هذا الوقت، عاش في القدس رجل سرد قصصاً من زمن النفي، وألف كتاباً عرف باسم دانيال، وصف مصير أربعة شبان من إقليم يهوذا تربوا نبلاءً في بلاط نبوخذنصر ثم دخلوا في خدمته. «وفي كل كلام حكمة وفطنة، مما سألهم عنه الملك، وجدهم يفوقون بعشرة أضعاف جميع السحرة والمجوس الذين في مملكته كلها» (دانيال 1:20). فلم يكن بوسع أي شيء تعويق صعودهم الوظيفي لدى البلاط. غير أن الأمور أتت مغايرة لذلك هذه المرة أيضاً. يكشف دانيال عن مؤهلاته، أول الأمر، عندما يفسر حلماً حيّر نبوخذنصّر، ويستنتج أن التمثال المكون من أربعة معادن، الذي يراه في حلمه، يرمز إلى الممالك الأربع المتعاقبة للبابليين والماديين والفرس والإغريق، التي ستأتي بعدها مملكة الرب أزلية البقاء، التي ستهشم جميع الممالك. ما أن سمع نبوخذنصّر هذا التفسير حتى قال: «إلهكم هو إله الآلهة حقاً ورب الملوك، لأنك قدرت أن تكشف هذا السر» (دانيال 2:47).

لم يعط المؤلف والمحرر المقدسي نفسه الحق في تقريب عدو الأمس اللدود من يهوه، فملك بابل التاريخي تنكر لمردوك، إلهه الأكبر وإله مدينته. لم تزل وساوس نبوخذنصّر، بل حكاية دانيال تجعله يأمر الآن، وبطريقة مفعمة بالخيانة، بإقامة تمثال ذهبي نصفي له أمر بعبادته. يرفض ثلاثة يهوذيين، كان الملك قد عينهم ولاة على أقاليم ثلاثة، عبادة التمثال، فيلقي بهم إلى موقد. لكن معجزة تحدث فلا تصيبهم النار بسوء. عندما رأى نبوخذنصّر ما جرى، قال: «تبارك إله شدرخ وميشخ وعبدنغو، الولاة الثلاثة، الذي أرسل ملاكه وأنقذ عبيده . . .» واعتنق ديانة يهوذا. من الجلي أن الحكاية كتبت لأغراض دعاوية، إن صح القول، لبث

شيء من الأمل في حاضر يبعث على القنوط واليأس.

يمتدح نبوخذنصر يهوه بخشوع خاص، بعد أن شفي من الجنون الذي كان دانيال قد تنبأ له به. يمد دانيال يد العون لبلصازار أيضاً، بتفسير معنى جملة «منا منا تقيل وفرسين» المفعمة بالغموض. يقول دانيال للملك: «مَنَا، أحصى الرب أيام ملكك وأنهاها. تَقِيل، أي وُزنت في الميزان فوُجدت ناقصاً. فَرِس، أي قُسِمَت مملكتك ووهبت لمادي وفارِس» (دانيال 5:26 • 28). ربما يَظن المرء أنَ الملك أمر بقتل مفسّر الحلم بسبب هذا التأويل المشؤوم. إن بلشصر لم يفعل هذا، بل «أمر أن يلبسوا دانيال الأرجوان ويقلدوه طوق ذهب في عنقه، وينادوا به الثالث في المملكة» (دانيال 5:29) أما الجملة الأخيرة من الإصحاح الخامس في سفر دانيال، ونصها «أما بلشصر فقتل في الليلة ذاتها بيد عبيده» (دانيال 5:30) فهي مألوفة لنا على أفضل وجه بفضل هاينريش هاينه.

أراد منافقو البلاط قتل دانيال ورميه طعاماً للأسود. لكن الإله أنقذه، كما نعلم، وألقى بمتهميه فرائس للحيوانات الكاسرة، ومعهم، للأسف، نساؤهم وأطفالهم.

بذلك بيّن الكاتب الأورشليمي لمعاصريه كم واسعة رحمة الإله، وإلى أي مدى يمكن أن يصل عونه!. فقد قبض على الظلاميين الجالسين على العرش، ودفعهم إلى توبة لعب سفر دانيال دوراً فاعلاً فيها. فليستخلص المرء إذاً العبر من ذلك وليصمد في وجه حاضره المخيف، وليبق مخلصاً لإيمانه قبل كل شيء. تلك هي الرسالة.

لكن مؤلف السفر كان يريد قول أشياء أخرى؛ أكثر أهمية. يتغير مضمون ونغم السفر بين الإصحاح السابع ونهايته. وقد دفع إحساس حياتي رؤيوي دانيال إلى تدوين الإصحاح الثاني من السفر، حيث هو الآن الشخص الذي يحلم:

«رأيت في منامي ليلاً . . . فطلع من البحر أربعة حيوانات عظيمة . . . الأول

مثل أسد وله جناحا نسر . . . وإذا بحيوان آخر شبيه بالدب . . . وبعد ذلك رأيت فإذا بآخر مثل النمر وله أربعة أجنحة . . . وكان للحيوان أربعة رؤوس . . . فإذا بحيوان رابع هائل شديد قوي جداً . . . فكان يأكل ويسحق ويرفس الباقي برجليه. وبينما كنت أرى، نصبت عروش، فجلس شيخ طاعن في السن، وكان لباسه أبيض كالثلج، وشعر رأسه كالصوف النقي، وعرشه لهيب نار، وتخدمه ألوف وألوف، وتقف بين يديه رِبوات ربوات. فجلس أهل القضاء وفتحت الأسفار. وكنت أرى وأسمع صوتَ الأقوَال العظيمة؟ . . . إلى أن قتل الحيوان الرابع وباد جسمه وجعل وقودا للنار. أما باقي الحيوانات فأزيل سلطانها، لكنها وهبت حياة تطول إلى زمان معين . . . فإذا بمثل ابن إنسان آتياً على سحاب السماء، فأسرع إلى الشيخ الطاعن في السن. فقرب إلى أمامه وأعطي سلطاناً ومجداً وملكاً حتى تعبده الشعوب من كل أمة ولسان ويكون سلطانه سلطاناً أبدياً لا يزول، وملكه لا يتعداه الزمن» (دانيال 7:2-14). تفسر الحيوانات هنا كملوك تنتهي سلطتهم إلى كارثة، يستبدل بهم قدّيسون أرسلهم الكائن الأسمى.

تظهر هنا كلمة مركزية، وردت في الفصل السابق من هذا الكتاب، هي كلمة الرؤيا. فما هي الرؤيا [الرديف العربي للمصطلح الإغريقي هو: الوحي]. وماذا تكون الرؤيوية.

«تصف الرؤيا اليهودية جنساً أدبياً يهتم، من جهة، بكشف الأسرار المرتبطة بمسار العالم، وخاصة منه الزمن الأخير ونهاية العالم، وينصب، من جهة أخرى، على مجال تصوري متماثل المضمون بوجه عام، يبرز أيضاً في كتابات يهودية غير رؤيوية». هذا ما يقوله معجم الدين في الماضي والحاضر.

الرؤيوية هي إذاً قطعة أدبية، قطعة مكتوبة، كتاب، تحتوي أساساً على مقولات رؤيوية؛ مقولات حول «الأشياء الأخيرة» التي تمس المصير الأخير والنهائي للإنسان الفرد وللعالم بأسره، في الإغريقية، الرؤيوية هي علم الأشياء الأخيرة. ليس مؤلفو الرؤيويات، الذين لم يكن دانيال ذاك غير واحد منهم

وحسب، معروفين. إنهم ينبئوننا بكشوف يزعمون أنها بُلِّغت منذ وقت طويل إلى حكماء وأنبياء عصور سالفة كدانيال وحنوك وباروخ وغيرهم على سبيل المثال لا الحصر. أما مؤلفوها فيختارون البقاء مجهولين، لأن سريتهم تبقيهم، إلى حد ما، بمأمن من اعتداءات الدول في أزمنة الاضطهادات الدينية الكبرى، ومنها تلك التي شهدها حكم الأنطاكي الرابع إبيفانِس. تضمن السرية الحماية لهؤلاء، خاصة أن كشوفهم ذاتها تبقى سرية إلى أنَ تقع محن كبرى فيصير من الضروري إعلانها للناس.

إنها أحلام ورؤى. هذه الصور الحلمية، العاتمة والمليئة بالأسرار في آن معا، تفسر غالباً على يد أحفاد يرون في الشعوب والملوك والجبال حيوانات وجبالاً وغيوماً . . . الخ. إنها تفاسير تلعب المضاربات بالأعداد دوراً فيها، ويتم إضفاء قيمة رمزية على بعضها كالعدد ثلاثة ونصف، وأربعة وسبعة، واثني عشر وسبعين، تعج الرؤيويات بتلميحات وإشارات ورموز تجعل قراءتها صعبة جداً حتى في أيامنا.

قسم الأنبياء مسار العالم إلى حقبتين: حقبة ما قبل النفي وحقبة ما بعده، حيث «يوم يهوه» يوم الدينونة، نقطة الفصل التي ينتهي عندها القديم المشحون بالآثام، وتبدأ الحياة الجديدة، القدسية، تحت سيطرة يهوه ذاته أو تحت سيطرة مسيحه. هذه الحياة الجديدة كانت متوطنة في العالم الأرضي، لذلك اعتبرت استمرارا بهياً للحياة السابقة، ولكن في ظل علامات جديدة.

تختلف الرؤيوية عن ذلك فهي تدفع بالتصورات التناحرية حول عصرين عالميين، وأبديتين، إلى ذروتها، وتضفي طابعاً جذرياً عليها، فلا تكون الأبدية القادمة استمراراً للقديم، ويصير زمن العالم الآتي من طبيعة محض متعالية. بذلك تنتهي الأبدية القديمة ومعها العالم كله، «كي تفسح في المكان لملكوت الرب ما فوق الطبيعي، الذي سينزل من المجال الماورائي للسماء بفضل الرب وحده، دون أن يكون للبشر أي إسهام فيه»[2]. لنعد مرة أخرى إلى دانيال الذي يقول: « . . .

يقيم إله السماوات مملكة لا تخرب أبداً، ولا يغلب سلطانها شعب آخر، فتسحق وتفنى جميع تلك الممالك وهي تثبت للأبد . . .» (دانيال 2:44). هذا هو اندثار العالم.

هذه النظرة الجذرية، والانقلابية إلى أبعد حد مقارنة بنظرة الأنبياء، هي التي جعلت البشرية تتحدث عن اندثار العالم. إن الإفناء التام لما هو قائم وتدمير القديم هما اللذان يعلمان البشرية الخوف.

أراد الأنبياء فعل شيء يدرؤون به الأخطار. ثم أعلموا الشعب بما توصلوا إليه، ودعوه إلى الندم والرجوع عن طريق الآثام، على حد ما فعله إرميا في تهديداته وتوعداته. أما الرؤيوي، فلا يرى فائدة ترتجى من هذا، لأن الكارثة آتية لا ريب فيها، وجهود البشر لدرئها عبث لا طائل تحته. ولأنه لم يعد هناك ما يمكنه الحيلولة دون الاندثار، الذي يرجع سببه الأعمق إلى الشر المتوطن داخل الإنسان. «لا ينصرف اهتمام الرؤيوي إلى تعويق الكارثة بل إلى حسابها فقط».(3) وفي حين تريد النبوءة جعل الإنسان يتوب، يجهل الرؤيوي أي شيء عن تحوله الداخلي.

تحول يهوه إلى إله متعال، فصار البعد بينه وبين شعبه كبيراً إلى أعظم حد يمكن تصوره، أو كما قال الحاخام هونا عام (275 م) بإيجاز مبدع: «حين تحدث يهوه أول ما تحدث من صندوق الشرائع اليهودية، كان يسكن الهيكل. لكنه ما لبث أن ملأ السماء والأرض في نهاية الأمر».

بذلك انتهت الشراكة القديمة بينه وبين الإنسان، وانقطعت علاقة الحوار بين الأنا والأنت وحلت محلها جبرية التاريخ. غير أن فهم التاريخ كمسار جبري يتبع قوانين معطاة مسبقاً يلغي الحوار مع يهوه. بينما الإنسان الذي كان يستطيع استخدام إرادته الحرة للاختيار بين هذه الإمكانية وتلك، يختار الآن في فراغ. ومهما كانت الطريقة التي يختار بها، فإن نتيجة اختياره تكون معطاة بصورة مسبقة. إنه

لم يعد يستطيع الحديث مع يهوه كما يتحدث شريك إلى شريك، لأن يهوه لم يعد شريكه في الحوار، ولأن الإنسان لا يستطيع تملقه من أجل انتزاع سلوك معين منه، ولا يستطيع معرفة معنى سير الزمن من خلال حوار لا تكلف فيه معه.

لم يكن ممكنا إذاً اختبار المحنة العميقة التي ابتلي اليهود بها تحت الحكم البابلي إلا كمحنة منشئة لمعنى، ما دام يهوه قد دعا هذا الشعب إلى التوبة على ألسنة الأنبياء. عندما لم يتب الشعب ولم تتضاءل المحنة، أسقط في يد يهوه وعجز عن فعل أي شيء غير إفناء هذا العالم غير القابل للتحسين وإقامة عالم جديد على أنقاضه (عالم متعال) هو ملكوت الرب الذي سيدوم إلى الأبد.

من الضروري أن يحدث هذا بأقصى سرعة، لكونه الأمل اليائس لجميع أنواع الشعور بالحياة الرؤيوية. وإذا كان الأنبياء قد تمنوا محو التاريخ القديم كله وإحلال تاريخ جديد محله، فإن الرؤيويين يتشوقون بأعظم قدر ممكن من الإصرار إلى زوال العالم، لأن هذا العالم الفاسد يجب أن يخلي مكانه لواحد جديد، أفضل وماورائي. «إن حجم الخوف الفعلي واليأس كبير في تجربة العالم الرؤيوية إلى درجة تجعل الأمل في مستقبل أفضل يحتاج إلى تلك اليقينية المطلقة، التي يمكنها أن تعيننا على الاستمرار في تحمل الحاضر»[4].

كيف يتأكد اليهوذي المؤمن من عودته إلى ملكوت الرب، التي ستحدث بعد موته. وهل له أمل في القيامة. لليهوذي الحق في الأمل إن هو أطاع شريعة التوراة المكتوبة في أسفار الشريعة (أسفار موسى الخمسة) القائمة على أربعة كتب مرجعية راسخة الجذور في التقاليد اليهودية، بينها كتاب وضعه كاهن وفقيه مجهول من زمن النفي البابلي، عاش في النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد، كانت بابل قد غدت في هذا الوقت تابعة لمملكة فارس، اسمه عزرا، الذي «كان عالماً ماهراً في شريعة موسى التي أعطاها الرب إله بني إسرءيل» (عزرا 7:6). عزرا هذا، الذي كان رجلاً محترماً جداً وذكياً، كلفه الملك أرتَكْسركْسِس الأول مرافقة الراغبين في العودة إلى وطنهم من اليهوذيين، وإعادة النظام إلى القدس المضطربة.

كانت الحماسة التي انطلقت عقب إلغاء النفي الذي أقرّه قورش، قد خمدت منذ وقت طويل. وكانت الغربة قد صارت وطن بعضهم، كما ذكرت، لكن بعضهم الآخر فكر من جديد قبل أواسط القرن الخامس قبل الميلاد بالعودة إلى بلد الآباء، فوجد عزرا نفسه على رأس قافلة العائدين، تضم جعبته كتاب ذلك الكاهن المجهول حول الرابطة الوشيجة بين رواية التاريخ والشريعة، الذي يرى أن يهوه يصدر توجيهات ترتبط بأوضاع تختلف من حالة لأخرى، لكنه يجب اعتبارها شرائع خالدة تتخطى الباعث الملموس الذي صدرت بسببه.

وطد عزرا النظام. كان أول إجراء رسمي قام به هو قراءة ‹الكتاب› للأورشليميين، الذين منحوه تأييداً عاماً، وقرروا جعله قاعدة لحياتهم. بذلك صارت الشريعة الأساس الديني الروحي للجماعة المتعبدة، وانضبط الوجود، وتذكر الإنسان يهوه، الذي كشف عن إرادته بهذه الصورة. هذا الطريق يستطيع وحده إقامة علاقة بين الإنسان ويهوه، وتنظيمها، يخاطبه يهوه فيها من خلال الشريعة، ويجيبه هو، الإنسان، عبر وجوده كله. إن قطع الحوار كان خطيئة الإنسان الذي غرق في الإثم، لذلك كان لا بد من اندثار العالم، الذي سيأخذ شكل كارثة ستفني اليهودية والبشرية بأسرها.

في الأزمنة القديمة، كان سؤال البعث وما بعد الموت قليل الأهمية. فالإنسان خلقه يهوه من تراب أو من طين، وصار كائناً حياً بقوة الحياة الربانية التي وهبها له كنفس أو كروح. وعندما يموت، يرجع إلى أصله ويؤول من جديد إلى ما كان صنع منه: إلى غبار وتراب وطين.

يبقى الإنسان لصيقاً دوماً بالحياة الدنيا، ما دام دين يهوه من هذا العالم. بذلك، لا تكون الحياة فترة استعداد لما وراء ما، بل هي تستمد كرامتها وقيمتها أولاً وأخيراً من «اللحظة الراهنة، غير القابلة للاستعادة، التي يتفرد الإنسان فيها بمعايشة ومعرفة ما هو قابل للمعايشة والمعرفة»[5]. لأن الأمر هكذا، تمنى الإسراءيلي أن يطعن في السن قدر الإمكان، كي «يشبع من الحياة» قبل أن يموت.

أما موت الإنسان قبل أوانه، فكان يعدّ مصاباً عظيماً، لأن الموت المفاجئ عقاب ينزله يهوه به، ولأن علاقة الإنسان بربه تقتصر على الحياة الدنيا، ما دام الإله رب الأحياء لا رب الأموات.

عندما يموت المرء وتنتهي طقوس الدفن والحداد، يذهب إلى عالم سفلي هو مجال مغلق ضمن بحر العوالم، يقع تحت قشرة الأرض أو تحت الماء، على حد ما نقرأ لدى أيوب: «أرواح الأموات ترتعد تحت الأرض، والمياه وسكانها يرتجفون رُعباً» (أيوب 26:5) بذلك يصير الإنسان طيفاً، أو بقول آخر: لا ينطفئ الإنسان تمام الانطفاء بعد موته ولا يصير عدماً، بل يواصل وجوده في شكل خاص: كصورة طيفية لشخصه، كانت له قبل أن يتبلور خلال حياته، وانفك عنها عند موته.

يواصل الإنسان العيش في العالم السفلي كصورة طيفية لذاته، ويكون طيف إنسان كامل! إنه لا يكون روحاً أو شيئاً من هذا القبيل. طبيعي أنه يذهب إلى منطقة تنعدم فيها القوة انعداماً تاماً، هي منطقة سكينة وصمت يدخل الميت فيها فتقفل عليه.

عند موتها ودفنها، تحافظ صورة الطيف على الوضع الذي كانت عليه في حياتها الدنيوية. ويحافظ الإنسان على مرتبته وموقعه الاجتماعي، فيجلس الملوك في مملكة الموت على عروش، ويحمل المحاربون أسلحتهم، ويلبس الأنبياء أرديتهم. إنهم كائنات ذابلة تقضقض وجودها الميت في صمت وسكينة. هذه الكائنات لا تؤسس أية جماعات فيما بينها، لأن تأسيسها يحتاج إلى قوة الحياة التي فارقتها عند الموت، مع نفس الرب الذي فارقها. ولأنها لا تستطيع إقامة جماعة في العالم السفلي، فمن غير الممكن أن تتاح لها أيضاً رؤية أسرها أو أصدقائها من جديد. إلى هذا، لا يتعرف أفرادها بعضهم إلى بعضاً، بل يمر بعضهم ببعض دون أن ينبسوا بكلمة. في هذا التصور، العالم السفلي مملكة أطياف، يشبه مسرحية يقدمها أشباح. ليس هناك، كذلك، من رجوع بعد الموت، فلا بعث ولا نشور، سواء في العالم الأرضي أم الماورائي.

ثمة كآبة معينة تسم وجهات النظر القديمة هذه. إنه لأمر يثير بعض العجب أنها لم تعد الموتى بالبعث حتى في الزمن التالي «ليوم يهوه» حين سيبزغ فجر الخلاص مع سيطرة يهوه أو المسيح.

عندما عبّر الرؤيون عن روح عصرهم الدينية، كانت النظرات القديمة تشهد بعض التبدل، وكان أفراد متفرقون هنا وهناك، قد بدؤوا يؤمنون بالنشور؛ وكان إيمانهم يتعزز بقوة مع الانتقال من القرن الثالث إلى القرن الثاني قبل الميلاد. بل إن القوم شرعوا في تأملاتهم الهادفة حول هذه الموضوعات بفعل العصر الرؤيوي ذاته، حيث لعبت مؤثرات فارسية دوراً مهماً، لكنه لم يرق مع ذلك إلى أهمية الدور الذي مارسته حروب المكابيين، التي كانت صراعات طويلة وضارية طرح خلالها سؤال متكرر حول ما إذا كان القتلى المؤمنون سيستطيعون المشاركة في الخلاص الموعود لنهاية الزمن. في النظرة القديمة، كان هؤلاء سيختفون في العالم السفلي دون أن يتاح لأحد رؤيتهم من جديد، رغم أنهم ضحوا بحياتهم من أجل الرب. لقد بدا هذا ظالماً ويستحق الرفض.

لم يبق هذا السؤال دون أجوبة. فقيل إن بعض المتقين والمؤمنين والذين يخشون الرب من بشر التاريخ اليهودي سيبعثون من جديد، ومثلهم الشهداء، أولئك الذين قتلوا في سبيل إيمانهم. هؤلاء سيشاركون جميعهم في الخلاص الأبدي.

يصعد بعض الناس إلى الأعلى وينحدر بعضهم الآخر إلى الأسفل. هذا صحيح وعادل. ولكن من الذي يحكم على ذلك. إن الرب، قاضي العوالم، هو الوحيد الذي يستطيع ذلك؛ الرب، الذي يقول اليقين الرؤيوي أنه يفني العالم ليقيم بدلاً منه مملكته الأبدية، هو الذي يقرر من الذي يأخذه ومن الذي لا يأخذه، إليه. إنه يوقظ، لهذا الغرض، كل الأموات دون أي استثناء، خطاة كانوا أم أطهاراً. بذلك بلغ التصور الرؤيوي نهايته القصوى وقدم، في الوقت نفسه، إجابته النهائية: سيدافع كل البشر عن أنفسهم أمام الديان.

ثمة وصف لهذا نجده بالدرجة الأولى في الرؤيوية غير المقوننة، تلك التي لم تدرج في الكتاب، لكنها عكست روح العصر بطريقة لا نظير لها، ونجدها مثلا في كتاب عزرا الرابع: «تلفظ الأرض من يستريحون فيها، ويطلق الغبار من ينامون فيه . . . ويظهر الكائن الأسمى على عرش الديان . . . وتستيقظ أعمال الخير وتقلع أعمال الشر عن النوم . . . انظروا الآن إلى ذاك الجانب وهذا الجانب في الأعلى: هنا البركة والانتعاش، وهناك النار والألم». وهناك كتابات مرجعية أخرى حول هذا الموضوع منها رؤية باروخ السورية وكتاب حنوك الأثيوبي. هذه الرؤى تفترض جميعها قيامة الأموات، وهذا يعني، بين أشياء أخرى، أن مصير الفرد الذي سيصطفيه الديان أو سيدينه صار المسألة المركزية، وكان مصير الشعب هو الأمر الرئيس من قبل. سيقف الأفراد بكامل جسديتهم أمام العرش، لأن وقوفهم أمامه يضمن تماهيهم مع الهوية التي كانت لهم خلال حياتهم الأرضية، ويمكن كل إنسان من تقديم كشف حساب عن أفعاله.

هذه النظرات حول قيامة الموتى فرضت نفسها لدى العوام أساساً بفضل الفريسيين. لم يكن الفريسيون كهنة، بل لاهوتيين دهريين تحدر معظمهم من أسر حرفية. لكنهم كانوا على دراية تامة بالشرائع، وتمتعوا، لذلك، بسمعة حسنة لدى مواطنيهم البسطاء وغير المتعلمين، زادها رفعة أنهم كانوا يتحدثون كما يتحدث الشعب البسيط. وقد عرف هؤلاء كيف يعززون سلطانهم، حتى أنهم اعتبروا في بعض المناسبات كقادة للبروليتاريا. تجسد المثل الأعلى للفريسيين في التفسير الحرفي الأمين للشرائع، وفي الشرح المقنع للتركة الشفهية، مع أن هذا جعلهم يبدون أحياناً كمضللين، خاصة أنهم تواطؤوا على يسوع ولعبوا دورا كبيراً في إعدامه. رفض الفريسيون والفقهاء بشدة «كان هؤلاء بمعنى ما لاهوتيين وقانونيين مؤهلين أكاديمياً، شاركوهم نظراتهم في المسائل الجوهرية» ذلك القادم من الناصرة، الذي أعلن أنه فوق الشريعة، جاء يبلغ رسالة جديدة تلقاها من الرب. لهذا، لا يبدي الإنجيليون أي نوع من التفهم حيال الفريسيين، ويتخذون

موقف دينونة قطعياً منهم.

عندما تراجع نفوذ الصدوقيين بسرعة عقب تدمير القدس عام (70 م) أخذ العلماء من ذوي الميول الفريسية يجددون مضامين الدين، إلى أن صار الأمل بالبعث بعد الموت عقيدة عامة.

انتمى الصدوقيون إلى الشريحة اليهوذية العليا. وتحدر معظم الكهنة من هذه الفئة المحافظة إلى أبعد حد، التي لم تعترف بغير الشريعة المكتوبة، بالتوراة، ورفضت رفضاً قاطعاً التفاسير الفريسية للتركة الشفهية، التي اعتبرت مكملة للشريعة، وأنكرت كذلك القيامة الجسدية واستمرار الحياة بعد الموت، التي ليس لها في العهد القديم قرائن تؤكدها. أخيراً، عدّ هؤلاء وجود الملائكة لغواً فارغاً، على العكس من الفريسيين.

3) تحوّل العصر في الطريق إلى يهوه

لم يصرخ الأنبياء: «إلى السلاح! ولنضرب نسل الأفاعي حيث نجده». مهما كان ما سيحدث، فقد رتب يهوه الأمور بالطريقة التي رتبها بها، وقرر اندثار العالم الفاسد، لأن القديم لابد أن يزول بأكثر الطرق جذرية، ليكون هناك متسع للجديد. إلى أن يبعث من جديد، يجب على الإنسان تحمل المحن وقبولها بخضوع مفعم بالتقوى. وهذا يتطلب توافر صلابة روحية هائلة لديه، خاصة في أزمنة البلاء الأعظم التي جسدها مؤخراً حكم الأنطاكي الرابع إبيفانِس. إن قوة الروح وحدها تستطيع تمثل ما لا يمكن تغييره، ومصارعته، والتأقلم معه مصيراً. سيقلب الرب الشر إلى خير: هذه الثقة هي مصدر القوة التي تجعل الإنسان يواجه برباطة جأش الأحداث الكونية القادمة، ويحتمل الظروف الأرضية الرهيبة.

وذلك هو الموقف الحياتي للإنسان رؤيوي الهوى. إنه يعرف بوضوح شديد

عجزه حيال مسار تاريخ جبري غير قابل للتغيير، لكنه لا يقع فريسة القنوط، ولا يستسلم أو يركن إلى سلبية خرساء.

عند هذه النقطة، يطرح السؤال حول ما إذا كان المرء يستطيع فعل أي شيء، مع معرفته بكل هذا الذي لا يقبل التغيير، وإدراكه أن الحوار مع الرب قد انتهى بصورة قطعية. أليس من واجب الإنسان الإسراع إلى لقاء الرب ومساعدته في إنجاز فعل الخلاص. إن قيامه بهذا لن يكون شيئاً خبيثاً أو مشيناً، لأن هدفه ليس تعويق قرار الرب بل قبوله بثقة أكبر. تقول رواية جرت أحداثها في غيتو يهودي خلال الحرب العالمية الثانية: «أعرف أن الشعب المضطهد لا يقدر أن يتحرر، إن أحجم عن مد يد العون إلى محرريه وقطع ولو جزءاً من الطريق إلى المسيح»[1].

ثمة لحظة نفسية مهمة هنا. فالإنسان الذي يتقوى داخلياً بالإيمان يستطيع عكس هذه القوة نحو الخارج أيضاً ومد الآخرين بالقوة. إنه سيدافع عندئذ عن نفسه، وسينمي احترامه إياها من جديد، وسيختبر وجوده كإنسان بطريقة جديدة. في رواية أخرى عن الغيتو، تقول الضحية في النهاية: «إنني أموت هادئا وبسلام لكنني لا أموت مطمئناً أو راضياً. أموت مهزوماً ومحطماً لكنني لا أموت مستعبداً، وأشعر بالمرارة دون أن أكون محبطاً. أموت دائناً ومؤمناً ولا أموت مديناً ومسترحماً أو راجياً ومصلياً. أموت عاشقاً للرب ولا أموت ميتة مؤمن خانع»[2].

هذا السلوك، ،يعكس أيضاً، وبأعظم قدر من المطابقة، إحساس اليهوذيين بالحياة. لقد أراد هؤلاء دفع الأذى عنهم، ولكي يحققوا بعض النجاح في مسعاهم، احتاجوا إلى قادة يكثفون هذه الإرادة في أشخاصهم ويجسدون آمال وتطلعات شعبهم. مثل هؤلاء القادة جسدهم لدى اليهوذيين الكاهن متثيا وأبناؤه من عائلة الحَسْمُونِيّين، التي عاشت قرب القدس.

تقول أسفار الأبوكريفا أن أحد موظفي الملك كان يصر على تقديم الأضاحي

طبقا للعرف الإغريقي. وكان متثيا رجلاً قوي الإيمان، متصلباً ورافضاً للتسويات والحلول الوسط، ومتعصباً. كما كان جامحاً تنتابه نوبات غضب عاصفة، وقانعاً قناعة لا تقبل الاهتزاز بقضيته، يعتقد أنه يملك الحقيقة الكلية. إن أناساً كهؤلاء يصعب احتمالهم في الأحوال العادية، قد تكون لهم قيمة كبرى في ظروف معينة، يخضع فيها الآخرون لهم بمحض إرادتهم، ولأنهم يعرفون كيف يعبّئون طاقاتهم بفضل مواهبهم القيادية الملهمة. هذا الكاهن، يجبر الآن على تقديم أضحية لإله وثني. وذلك أمر وخيم العاقبة جعل الغضب يجتاح كيانه، ويدفعه إلى رفض الاشتراك في هذا المسعى الآثم.

هكذا ينفك رجل عن الكتلة القلقة، المذعورة، لكونه يريد إدخال شيء من الانفراج إلى الوضع، أو لأنه يريد جعل نفسه مهماً أو ربما لأنه مبتلى بالإيمان بيهوه، ينفك الرجل إذاً، فيتقدم إلى المذبح ليقدم أضحيته طبقا للأوامر. لكن متثيا ينقض على مرتكب الإثم ويقتله، ثم يفقده الغضب صوابه فيقتل موظف الملك ويحطم المذبح صارخاً وسط الهيجان: «على كل من يتمسك بالشريعة ويحافظ على عهد يهوه أن يتبعني إلى خارج المدينة» (المكابيون الأول 2:27). تلك كانت دعوة علنية إلى المقاومة. فر متثيا وأبناؤه إلى الجبال، وانضم إليهم متمردون كثر جاؤوا مع نسائهم وأطفالهم ومواشيهم، فهم يعرفون أن الفتنة ستدوم طويلاً، ويريدون حماية أسرهم من انتقام محتمل. مع الإقبال الكبير، نمت العصبة التي كانت صغيرة أول الأمر إلى قوة مقاتلة ضخمة.

صب كاهن يهوه جام حقده على الذين تخلوا عن الإيمان القويم، بغض النظر عن الأسباب التي دعتهم يفعلون ذلك. وأخذ يقاتلهم مطلقاً حرباً أهلية من عقالها، رغم علمه أن جنود الملك هم الذين سيواجهونه بعد حين، لأن الأنطاكي الرابع إبيفانِس لن يقبل نشوب حرب أهلية في مملكته، أو التخلي عن رعاياه المخلصينَ من اليهوذيين ذوي الميول الهلنستية.

إنها حرب إرهابية من نمط حرب العصابات، ينقض فيها المتمردون دون أن

يلحظهم أحد على المرتدين دينياً من أبناء جلدتهم. ثم ينسحبون من جديد إلى الجبال، بعد أن يكونوا قد أحرقوا ونهبوا وقتلوا، أو اقتحموا في مكان آخر السهل وروّعوا الكفار وحشروهم وذبحوهم، ودمروا المذابح الوثنية وختنوا الفتيان بالقوة. تلك كانت حرباً عادلة بالنسبة إلى متثيا وجماعته، حتى لو كان القائمون بها أشد البشر سوءاً.

لم يكن تردد الملك ممكناً، فأرسل جنده ضد الثوار، الذين كانوا أضعف منهم. فإن كان متثيا مقاتلاً بارزاً، فإن يهوذا، ابنه، كان قائداً عسكرياً مباركاً وموهوباً. وقد تولى للتو مسؤوليات أبيه بعد وفاته، وأنزل الهزيمة تلو الأخرى بالعدو، فعاد ذلك عليه بلقب شرفي هو المكابي / المطرقة. خاف لِيسْيَاس، والي الأنطاكي الرابع على فلسطين، فعبأ جيشاً عملاقاً زج به في القتال، لكن الحظ بقي إلى جانب المتمردين، الذين تمكنوا من تجميد القوة العسكرية المتفوقة عند حدود يهوذا، وأبادوها بفضل تكتيكات حربية بارعة، وأيضا بسبب صراعات السلوقيين الداخلية التي أنهكتهم. عندئذ، مال لِيسْيَاس نحو التساهل ووافق على منح أعدائه حرية ممارسة دينهم فضلاً عن أشياء أخرى. لم يكترث المكابي للتنازلات، بل وضع نصب عينيه هدفاً أكبر هو احتلال القدس، استناداً إلى تفوقه العسكري.

حقق المكابي هدفه بالفعل، فاحتل المدينة في كانون الأول من عام (164 ق. م) بعد فترة قصيرة من وفاة الأنطاكي الرابع إبِيفانِس في القسم الشرقي من مملكته، وإن واصلت حاميتها المقاومة، بعد محاصرتها في القلعة. أحرز المتمردون نصراً حاسماً، فأمر يهوذا المكابي «بتطهير» الهيكل الذي أعيد تدشينه على اسم يهوه، وإقامة احتفال سنوي تخليداً لهذه الذكرى هو عيد الحنوكة. بذلك، انفصلت يهوذا فعلياً عن بقية المملكة. بث الانتصار الشجاعة في قلوب كل يهوذيي فلسطين تقريباً، فانضم عدد كبير منهم إلى الثائرين الظافرين.

لم يسد السلام في فلسطين بعد احتلال القدس، بل تفاقمت التوترات بين سكانها الوثنيين واليهوذيين. خاصة بعد أن تدخل المكابيون لمساعدة أخوتهم في

الإيمان، الذين كانوا في وضع حرج. كما تدخل السلوقيون من جانبهم إلى جانب حلفائهم المخلصين من غير اليهوذيين.

بقيت قوات المكابيين متفوقة. عندما احتلت القلاع المعادية وأنزلت هزائم ماحقة بقادتها، بدا وكأن مملكة يهوذا ستغطي فلسطين بأسرها، وستفك روابطها بالمملكة. لكن لِيسْيَاس، الذي كان قد أصبح ولياً للعهد، أعد جيشاً عملاقاً وسار به من جديد إلى يهوذا، حيث أحرز انتصارات أولى، قبل أن يصطدم بمقاومة ضارية عجز عن كسرها، وتتأزم الأوضاع بسبب نزاعات نشبت داخل مملكة السلوقيين. في هذا الوضع المقلقل والمائع، انخرط الطرفان في مفاوضات جديدة انتهت إلى نتيجة مهمة بالنسبة إلى اليهوذيين هي تخلي الحكومة الملكية عن مواصلة سياسة الأنطاكي الدينية، وحصولهم على حرية دينية تامة، وضمانات بأن لا يجبرهم أحد بعد ذلك على تغيير دينهم بالإكراه.

كان هذا السلام هشاً، لأن دِمترِيُوس الأول، الملك الجديد والنشيط، كان مصمماً على كسر شوكة المكابيين في يهوذا. وقد عبأ جيشاً جديداً عظيم القوة أرسله إلى الميدان، حقق بالفعل النجاح المرتجى. تولى بكخيدس، أفضل جنرالات الملك، إمرة هذا الجيش المتلهف للثأر، الذي أبدى ضروباً من العنف والقسوة جعلت نجاحاته عابرة، ودفعت باليهوذيين إلى الثورة عليه. وقد بلغت الحرب ذروتها عام (161 ق. م) في معركة حداشا الحاسمة، التي كانت نصر يهوذا المكابي الأخير.

نال اليهوذيون حريتهم الدينية، وهذا انتصار تحقق لهم على مراحل. لكن يهوذا لم يكتف به وتطلع إلى إحراز الاستقلال السياسي، الذي سيتحقق به الانتصار النهائي. تلك كانت فكرة عظيمة وفي متناول اليد. لكنها كانت صعبة التحقيق، في الوقت نفسه، دون مساعدة دولية. ولأن قوة مملكة السلوقيين كانت هائلة مقارنة بقوة يهوذا، رغم الانتصارات العسكرية الكبيرة التي أحرزتها، فقد احتاج المكابي إلى حلفاء بحث عنهم في روما، التي كانت قد تحولت إلى قوة عظمى في الفترة

المنصرمة، محاربة ومنتصرة، سيطرت على القسم الغربي من البحر الأبيض المتوسط، بعد احتلالها إسبانيا وطرد القرطاجيين منها، وإنزالها عام (202 ق. م) هزيمة حاسمة بهنيبعل في معركة زاما في شمالي إفريقية. هكذا نشأت نظرة إلى روما مفعمة بالخوف والكراهية، لكنها مليئة بالإعجاب كذلك.

أعجب يهوذا المكابي «بصيت الرومان وقوتهم العسكرية، وبالعون الذي يقدمونه لكل من يتحالف معهم، وبقدرتهم على إقامة علاقات طيبة مع من يطلبون ذلك». وقد قيل له إن الرومان «رجال أشداء خاضوا حروباً وقاتلوا الغَالِيّين، ببسالة وغلبوهم وفرضوا عليهم الجزية». وحكوا له أيضاً ما فعله الرومان في إسبانيا، وكيف استولوا على فضتها وذهبها، واتبعوا سياسة رشيدة اتسمت بطول النفس مكنتهم من أخذ أي مكان مهما كان بعيداً، ومن قهر الملوك. « . . . لكنهم حافظوا على صداقة الذين حالفوهم . . . ومن أرادوا تمليكه ملكوه ومن أرادوا خلعه خلعوه»[3].

سافر وفد إلى نهر التيبر عارضاً التحالف على روما، التي أبدت سعادتها ورحبت، لأن العرض كان فرصتها لإضعاف المملكة السلوقية. اتفق الطرفان وعقدا معاهدة كتبت على «ألواح معدنية» كما قيل، أرسلت نسخة منها إلى أورشليم، ألزم الحليفان نفسيهما فيها بتقديم عون متبادل بعضهما إلى بعض، وتعهدا بمساعدة من يتعرض منهما للعدوان. بيد أن روما تنازلت عن حقها في الحصول على دعم قوات يهوذا، واستعاضت عنه بتقدمات تشمل الغذاء، والسلاح، والمال والسفن.

> تلك النشاطات الديبلوماسية كان يعرفها الملك دِمِتْرِيُوس الأول، الذي عمل لإقامة أمر واقع نهائي، أو حاول ذلك على الأقل، وجهز عام (160 ق. م) جيشاً جديداً جعل إمرته لبكخيدس، زج به ضد مملكة يهوذا. سقط يهوذا خلال القتال، فحرم موته أتباعه أكثر قادتها كفاءة، وأفقد الأسرة الحسمونية الشخصية الأكثر أهمية التي كانت قد أنجبتها[4].

ازدادت العلاقات السياسية المعقدة، التي سادت خلال حياة يهوذا، تعقيداً واضطراباً، عقب تولي أخيه يهوناثان القيادة. إن تتبع الطرق كثيرة التداخل والتعرج ليس ضرورياً في السياق الذي نتطرق إليه. يكفي أن نذكّر بالنتيجة، وهي أن سليل الأسرة الحسمونية هذا كان عسكرياً موهوباً وديبلوماسياً بارعاً بدوره، عرف كيف يستغل الانقسام الداخلي الذي كانت مملكة السلوقيين تنزلق إليه أكثر فأكثر. إلى جانب منصبه العسكري/ السياسي، سمي يهوناثان رئيساً للكهنة واحتل قمة الكهانة، فصار الوحيد الذي يحق له دخول المكان الأقدس من الهيكل، ووسيطاً بين يهوه والشعب.

حافظ الحَسْمُونِيّون على السلطة طوال المائة والخمس عشرة سنة القادمة. وصاروا بفضل يهوناثان الأسرة الحاكمة المعترف بها رسمياً في مملكة يهوذا، التي جعلتها قيادته أعظم قوى جنوب سورية أهمية.

أمر يهوناثان بتجديد معاهدة تبادل الدعم مع روما، وأقام علاقات ودية مع إسبرطة. كما مارس سياسة الترجّح بين القوى، وغير تحالفاته مرات متعددة، إلى أن وقع في أسر حليفه السلوقي الأخير، الذي كان يخشى الحسموني، ويرى فيها رجلاً يتمتع بقدر عظيم من القوة العسكرية والسياسية. تولى سمعان القيادة، وهو أخ آخر ليهوذا ويهوناثان، أنزل هزيمة بالحليف السابق، الذي أمر عندئذ بقتل يهوناثان الأسير.

واصل سمعان سياسة أخيه بنجاح، دون أن ينسى مصالح أسرته، التي أراد جعلها سلالة تتوارث حكم يهوذا. في البداية، ثبتت جمعية شعبية يهوناثان في منصبه نائباً لشقيقه الأسير، ثم عينته جمعية استشارية كبرى عقدت عام (140 ق. م) في أورشليم رئيس مقاطعة، حاكما للشعب، وكبيراً للكهنة وقائداً أعلى للجيش، وجعلت هذه المناصب وراثية «إلى أن يقوم نبي أمين» (المكابيون الأول 14:41). ذلك معناه أن سمعان ليس المسيح المنتظر، وأن الآمال مازالت معقودة على ظهوره ذات يوم، خاصة أن سمعان لم يكن من سبط داود.

كان لسمعان أعداء نافذون منهم صهر مطالب بالسلطة، كان قد عينه والياً على أريحا، أمر عام (134 ق. م) بقتل سمعان واثنين من أبنائه خلال إحدى المآدب. تلك لم تكن طريقة مناسبة، لكنها كانت مألوفة، لتحقيق المطالب. حين أخفق الصهر، تولى الحكم يوحنا هِركانُوس الأول، ابن سمعان الذي بقي حياً، لتبدأ معه سيطرة الحَسْمُونِيّين الوراثية في إقليم يهوذا.

بعد ترسيخ سيطرتهم على يهوذا، واجه الحَسْمُونِيّون المصير الذي سبقتهم إليه سلالات حاكمة كثيرة: فقد أضعفوا أنفسهم بالدسائس، والقتل، والسياسات الخاطئة والانحلال الخلقي.

في الفترة المنصرمة، شرع الحكام يسمون أنفسهم ملوكاً، بعد أن بدا أن لقب والٍ غير مناسب لهم. إن كون المرء ملكاً يعني أنه ند لحكام البلدان المجاورة، من الناحية البروتوكولية على الأقل. طبيعي أن هؤلاء لم يتصرفوا كملوك مطلقين، وأنهم استمروا في احترام حق الشعب في المشاركة، وأكدوا دوماً ضرورة إسهامه في الحكم، ولم ينسبوا أهمية سياسية داخلية كبيرة للقب الملك، لأن رعاياهم كانوا يرون فيهم كهنة سامين بالدرجة الأولى، ولأنهم راعوا ذلك وأخذوه دوماً بعين الاعتبار.

تولى الحَسْمُونِيّون الأوائل عملية إزالة الهلينة. لكنهم ما لبثوا أن غيروا موقفهم منذ أن صاروا ملوكاً، فشرعوا عندئذ ينشرون عادات وأعرافاً في بلاطهم مماثلة لتلك التي كانت مألوفة في الشرق الهلنستي؛ بينها عرف يرى أن للحاكم وظيفة تمثيلية من واجبه القيام بها. وآخر يقول بإحاطته بحرس شخصي يحميه – لأن حياته معرضة من حيث المبدأ لتهديد دائم، ويمكّنه، في الوقت نفسه، من تعزيز سلطانه ومهابته، وثالث يجعله يطلق ألقاباً إغريقية على نفسه، على أن يحذو متزلفو البلاط من عسكريين وموظفين كبار حذوه.

انتهت صراعات الأسرة الحاكمة إلى وضع تنازع خلاله الأخوان هركانوس الثاني وأرستبول الثاني من أجل العرش. كانت المملكة قد أفلست في نظر

المواطنين إلى درجة جعلتهم يتمنون نهاية قريبة لها. وكان الفريسيون قد غدوا المجموعة الديناميكية التي تحرك المعارضة، وترفض هلينة البلاط بخاصة. وفي حين رفض جزء منها تحويل الدولة إلى دولة ملكية، اتهم جزء آخر الحَسْمُونيّين باغتصاب السلطة، وقال إنهم استولوا على عرش الملك بطريقة غير شرعية، وإنه لا يجوز أن يرتقي سدته غير أخلاف سلالة بيت داود دون غيرهم. دان الفريسيون بشدة أيضاً سلوك الملوك الطغياني، الذي بدّل تركيبة الجيش وجعله يتكون أكثر فأكثر من مرتزقة وثنيين، فلابد لليهوذيين من رفضه لاعتبارات دينية، وخشية أن يستعين الملك بهم للحكم ضد إرادة الشعب. شهد حكم ألكسندر يناوس هبة شعبية لم يتمكن من إخمادها إلا بعد ستة أعوام من القتال، تلتها أعمال انتقامية رهيبة. تقول الروايات إن الملك أمر بصلب بضع مئات من الثائرين، وإنه كان يمتع ناظريه باللعبة القاتلة وهو يتناول أطايب المأكولات ويتبادل القبل والمداعبات الغرامية مع عشيقاته.

دفعت روما حدودها خلال هذه الفترة عميقاً نحو الشرق. كانت مملكتا بونتوس وأرمينيا خضعتا للسيادة الرومانية العليا بفضل القائدين الميدانيين لوكولوس وبُومْبِيُوس، الذي استولى عام (64 ق. م) على سورية وقضى على مملكة السلوقيين، وجعل البلد مقاطعة رومانية.

هكذا كان ضم يهوذا قد أصبح مسألة وقت فقط. وقد عجل في سقوطها قيام هِركانُوس الثاني وأرستبول الثاني بزيارة بُومْبِيُوس في دمشق عام (63 ق. م) طالبين إليه البت في نزاعهما على العرش. تردد بُومْبِيُوس أول الأمر، وزاد من تردده قدوم وفد من يهوذا يطالب الرومان بإعادة الزعامة الكهنوتية القديمة، بعد أن سئم الناس سيطرة الحَسْمُونِيّين، وصاروا راغبين في تنازل هؤلاء عن السلطة السياسية لروما، إن كفلت سيادة اليهوذيين في المجالين الديني والتعبدي.

ربما فرك بُومْبِيُوس عينيه لشدة المفاجأة: فها هي المملكة المريضة تقدم له على طبق من فضة. وقد مد يده وأخذها، بعد أن وافق على منح اليهوذيين حرية ممارسة

دينهم بالطريقة التي يريدونها، فروما لا تعنيها شؤون كهذه، ما لم تشكل خطراً على الدولة.

عين هِركانُوس الثاني كبيراً للكهنة، .وفتح أنصاره أبواب القدس أمام القائد الروماني، بينما تحصن شقيقه أرستبول في منطقة الهيكل، متمسكاً بمطالبته بعرش يهوذا الملكي. لكن القوات الرومانية بددت آماله عندما نجحت في احتلال المنطقة بعد حصار دام ثلاثة أشهر، انتهى بسقوطه وأبنائه في الأسر ونقلهم إلى روما. بعد فرار أتباعهم، حاول هؤلاء مرات عديدة استرداد السلطة بقوة السلاح، لكن جهودهم باءت جميعها بالإخفاق.

كان هِركانُوس الثاني كاهناً أعظمَ ضعيفاً. وقد أدت تعقيدات وملابسات سياسية كثيرة إلى تمكين أَنْتِيغُنُس، وهو ابن أرستبول الثاني وآخر حسموني يجلس على العرش، من انتزاع السلطة بعد معارك دامت ثلاثة أعوام (40 – 37 ق. م). لكنه هزم وشنق في النهاية. أما المنتصر فكان اسمه هِرُودُس، الذي عينته روما والياً على إقليم يهوذا.

تلك كانت نهاية أولئك الذين تمرد آباؤهم قبل مئة عام في سبيل القضاء على الأوضاع غير المحتملة لحكم الأنطاكي الرابع إبيفانِس، وقطعوا، في الوقت نفسه، جزءاً من الطريق التي اعتقدوا أنها تقودهم إلى الرب. في هذه الأثناء، كان التسويغ الألفي لحروب المكابيين قد بهت. واستمر انتظار المسيح، نظراً لأن ملكية الحَسْمُونِيّين لم تتبن أية تصورات مسيحانية.

لم يسد الآن ذلك الانتظار المتلهف، الذي كان قد انتشر خلال السيطرة الفارسية وربط الملك قورش بالمسيح، ونسب زربابل إلى داود وتوّجه رمزياً. لا يرجع فشل مملكة الحَسْمُونيّين إلى ظروف خارجية، بل إلى تآكل وتفكك داخلي دفعت بنفسها خلاله إلى حافة الهاوية، فلم يحتج بُومْبِيُوس وهِرُودُس إلاّ إلى دفعة صغيرة من أجل إسقاطها فيها.

تراجعت حدة التوترات الرؤيوية نتيجة لهذه التطورات. وصار على الراغب في اندثار العالم انتظاره في زمن آت، ما دامت الظروف التي لا تحتمل قد بلغت ذروتها. يستمر النزوع لاندثار العالم بصعوبة في فترات الأمان النسبي، فترات الحرية الدينية والسياسية، وتنطفئ شعلة الرؤيا التي كانت قد تأججت وبلغت ذروة توهجها زمن الحروب المكابية (سفر دانيال) لكن هذه الشعلة بقيت، مع ذلك، وميضاً ما لبث أن استعر من جديد في ظل السيطرة الرومانية، التي بدأت مع هِرُودُس.

توجت روما هِرُودُس ملكاً على إقليم يهوذا، فكان والياً بلا أرض، عليه احتلال مملكته كي يحكم بالفعل. كان هِرُودُس خبيراً في شؤون السلطة، قد حصل على خبرته أثناء إدارته الجليل، حين أمر بإبادة المتمردين اليهوذيين/ القوميين، منذ أن تولى منصبه، وطرد آخر الحَسْمُونِيّين واحتل كرسي العرش ما أن سمي ملكاً، مع أن تحوله إلى حاكم فعلي، جعله يقاتل خصومه طوال أعوام ثلاثة.

كان هِرُودُس يخشى على حياته، ما بقي أعضاء من الأسرة الحسمونية أحياء. في العرف السائد، كان على الحاكم الجديد أن يرى في نفسه مرشحاً دائماً للقتل. ولأنه لم يكن يشعر بأي ميل إلى الموت مسموماً، أو مقتولاً، أو مطعوناً بالخناجر، فقد بادر إلى اتخاذ إجراء عاجل عقب توليه الحكم مباشرة، تمثل في شنق خمسة وأربعين من أبرز أنصار الملك الكاهن الأخير، ثم في إرسال الحَسْمُونِيّين جميعهم إلى الموت، بغض النظر عن درجة قرابتهم لخط الأسرة الرئيس المسيطر، مع أن زوج ابنته كان بين القتلى.

بقي هِرُودُس ريّاباً لا يتخلى عن حذره، فأمر بإعدام زوجته الثانية، مريم، وأمها. كما سقط بعض أبنائه ضحايا لرغبته في القتل. أما مسوّغات هذه الفظائع وأسبابها، فتكمن في المؤامرات، والدسائس، والشكوك، والمنازعات، والتواطؤات والاتهامات التي عرفها حكمه. عندما علم هِرُودُس قرب نهاية حياته، وكان يعلم الكثير لأنه قد كان نَشَر شبكة هائلة من المخبرين في البلاد بأسرها، ولأن جماعة

من الفريسيين تنبأت أنه سيفقد وأبناؤه الحكم، أمر بقتل أفرادها. كما يخبرنا متى الإنجيلي (متى 2:16) عن قتل أطفال بيت لحم، الذي يعزوه إليه. هذا الخبر قد يكون غير صحيح، وربما كان خرافة معادية لهِرُودُس، لكنه يبين إلى أي درك كانت سمعته قد انحدرت زمن متى (بعد عام 70 م).

اكتسب هِرُودُس سمعة واسعة كحاكم إرهابي مرعب، فأساء ذلك إلى مكانته في الخارج وحتى في روما، حيث قد كانت أفعاله عادت عليه بالمجد والسؤدد هناك، فقد وطد النظام والأمن بواسطة جيش ضم مرتزقة من غير اليهود، وسلاسل تحصينات منعت رعاياه المتمردين من الخروج على النظام والمساس بالأمر القائم. في حين تكفل جهاز موظفين كفيّ بإدارة البلاد، وكان القضاء صارماً وعديم الاكتراث لشرائع سكان الأقاليم التي حكمها.

يريد أي حاكم يعلق بعض الأهمية على ذاته أن يرى نفسه مخلداً في الحجر. إنه يبني، لأنه يريد أن يتظاهر، ويمثل، ويخيف ويؤثر. ويبني لأن من الضروري للسلطة والنفوذ والعظمة والثراء والأريحية أن تعبر عن نفسها في التحصينات والأسوار والأبراج والمعابد والقلاع والقصور. وهو يؤسس مدناً، لأنها تغري قوماً جداً بالقدوم إليها، وتقوي القدرات الاقتصادية، وتزيد محتويات خزينة الدولة ومجدها. ينتمي هِرُودُس إلى البناة العظماء في تاريخ العالم. فقد بنى قلعة أنطونيا في القدس، وهي حصن أراد به تخويف رعاياه وتقديم خدمات كبيرة للرومان: «في الموقع الذي كانت أنطونيا تطل منه على قاعات الأعمدة في ساحة الهيكل، كان ثمة درجات ينزل الحراس عليها إلى القاعتين، حيث رابطت دوماً فصيلة رومانية داخل القلعة توزع جنودها على قاعات الأعمدة في التحصينات وهم بكامل أسلحتهم، ليراقبوا الشعب ويحولوا دون نشوب أية انتفاضة»[5]. هذا ما يدونه المؤرخ اليهوذي يوسِفوس فلافيوس (37–38 حوالي 100 م) الذي انضم إلى الرومان إبان انتفاضة الحُمس (حروب الأعوام 60 – 70 م) وكان ذا حظوة رفيعة لدى القيصر. عندما سحقت الانتفاضة، تمت إزالة أنطونيا.

أمر هِرُودُس ببناء قصر حصين شبيه بالبرج في المدينة، ليست القلعة الحالية غير جزء من بقاياه. وجدد الهيكل، وبنى قصر باذخاً في أريحا، وأمر بإزالة قمة جبل هِرُوُدْيُون كي يبني قلعة على المنبسط تضم رفاته بعد موته. وقد سجي جثمانه هناك بالفعل (عام 4 ق. م) وإن كان لم يتم العثور بعد على قبره الذي يرجح أنه دمر. ثمة قلعة أخرى أمر هِرُودُس ببنائها في مَسْعَدة. كما أسس مدينة قيسارية، التي تطورت وغدت أكبر مرفأ بحري على ساحل فلسطين. فضلاً عن أنه خص أماكن كثيرة أخرى بمعونات كبيرة، ووضع أحجار أساس لمعابد ومسارح وحمامات وملاعب رياضية، وأقام في القدس وأريحا مسرحين دائريين ومدرستين للمصارعة؛ تلك كانت الحضارة الهلنستية التي عبرت عن نفسها بالحجر، فاصطدم اليهوذيون بها واغتربوا أكثر فأكثر عن هِرُودُس بسببها.

تحدر هِرُودُس من أسرة عربية منعمة من إقليم أدوم، جار يهوذا الجنوبي الذي غير معتقده وانتقل إلى اليَهْوِيّة. وقد بقي الملك مخلصاً ليهوه، ولكن هل يبقى لهذا من معنى إن نحن أخذنا بعين الاعتبار طغيانه، ومخالفاته الكثيرة لوصاياه، وتشكيك رعاياه بإيمانهم الموروث.

انقسمت مملكة هِرُودُس إلى أجزاء ثلاثة تولى ثلاثة من أبنائه حكمها، إلى أن وضعتها روما تحت حكمها المباشر.

قبل أعوام ثلاثة من عزله المهين عام (36–37 م) تكفل بِلاطِس بإعادة ضبط ساعة التاريخ العالمي من جديد، وإن كان أحد لم يشعر بهذا يومذاك، حين حدث أمر كان عادياً، ثم تبين أن نتائجه كانت جذرية إلى أبعد حد يمكن تصوره.

كان معتقلو الدولة يذوون في غياهب سجن القلعة. وكان بينهم رجل يدعى باراباس يصحبه اثنان من رفاقه، انتموا جميعهم إلى حركة دينية النزعة معادية بشدة للرومان، اشتهرت بأساليبها الإرهابية ضدهم كمحتلين. كان هؤلاء الثلاثة حُمْساً من أشد المقاتلين في سبيل الحرية تعصباً وتصميماً، تمكنوا من زج الشعب في صراع

بلا أفق ضد روما. وكان بين السجناء شخص يدعى يسوع، وهو يهودي وكاهن متجول من الجليل، سلّمه الكهنة الكبار إلى الحاكم كي يعدمه.

لقد جلب على نفسه، غضب كهنة الهيكل. أما ما جرى بعد ذلك من تفاصيل، فهو محل خلاف تتباين أخبار الإنجيليين عنه. ليس مهماً إن كان المحفل، أي المجلس الأعلى، والذي كان في الوقت نفسه أعلى محكمة يهودية تتمتع بصلاحيات تقريرية في شؤون الدين، والمفوض بصلاحيات الشرطة المدنية في آن معا، قد انعقد لتوه أم بعد يوم من ذلك. ليس مهماً كذلك إن كان أعضاؤه قد استدعوه للانعقاد بمبادرة منهم، أو إن كان له صلاحية إنزال عقوبة الإعدام بالمتهمين الذين يمثلون أمامه. المهم أن يسوع اتهم بالتنبؤ بدمار الهيكل، وأن إشاعات سرت هنا وهناك تقول إن بعض الناس يعتقدون أنه المسيح المنتظر. والمهم أن أجوبته الغامضة السردابية، التي تستعيدها الأناجيل، كانت كافية في نظر المحكمة لتحويله إلى السلطات الرومانية. هكذا، وصل يسوع إلى بِلاطِس. كان الكنهة يرون في نبوءة تدمير الهيكل محض تهديد يطلقه كاهن شريد. لكن هذه النبوءة أثارت اهتمام الرومان، الذين كانوا يحرسون مكان العبادة المحلية بصرامة، لأنه أكثر مقدسات اليهود أهمية.

بصفته جليلياً، كان يسوع من رعايا هِرُودُس أنتيباس. لذلك، سلمه بِلاطِس إلى الملك الذي كان في القدس وقتذاك. عندما حققوا معه صمت بعناد «فأهانه هِرُودُس وجنوده وهزؤوا منه، وألبسوه ثوباً براقاً وأعادوه إلى بلاطِس» (إنجيلي مرقس 23:18 – 25 ولوقا 26:6 • 12) الذي وجد نفسه في ورطة حقيقية. لم يكن هناك أي شك في وجوب صلب الإرهابيين. إذا كان يسوع هذا جعلهم يسمونه ملك اليهوذيين، فان هذا كان في الحق إهانة لروما عقوبتها الموت. لكن القضية لم تكن مع ذلك متفجرة إلى هذا الحد. صحيح أنه كانت هناك مسوغات وجيهة لإعدام المتهمين الخُمس الثلاثة. أما هذا الشخص الرابع، فليس هناك ما يستدعي تسميره على الصليب.

كان هناك عرف حميد يقضي بالعفو عن أحد المحكومين بالإعدام، إكراما لعيد الفصح، الذي تقرر إعدام يسوع والعصاة الثلاثة فيه، على أن يختار الشعب نفسه صاحب الحظ السعيد. كان على بِلاطِس تبرئة أحد المحكومين إذاً. وكان يعرف حق المعرفة اسم الشخص الذي يريد الشعب رد حريته إليه: إنه باراباس، البطل وزعيم المعتقلين وعدو روما اللدود.

كان بِلاطِس يميل في قرارة نفسه إلى رفض الاستجابة للرغبة الشعبية، ويفضل العَفو عن يسوع هذا، إن كان لا بد من عفو؛ (فملك اليهوذيين) هذا بدا له أقل خطراً بكثير من الثائرين الثلاثة. كما بدت خطب هذا الكاهن العجائبي أقل تحريضاً بكثير من أفعال الحُمس. ليس هناك سبب لقتل الرجل القادم من الجليل، أو ليس هناك سبب من وجهة نظر روما على الأقل. إذا كان هناك من يستحق الصلب فهو باراباس.

حدث ما أريد له أن يحدث. فقد تجمهرت الجموع أمام مقر الحاكم الذي سألهم: أتريدون أن أطلق سراح ملك اليهود. تدخل رؤساء الكهنة عندئذ وحرضوا الجمع على المطالبة بالحرية لباراباس. بذلك تقرر موت يسوع ونجح كبار الكهنة في تملق الشعب والتقرب منه، عسى أن يحظوا بشيء من ولائه. سأل بِلاطِس الحشد: «ماذا أفعل بالذي تدعونه ملك اليهود. أجابوه: اصلبه!». سألهم من جديد: «أي شر فعل. إنني لم أجد ما يستوجب موته». ارتفع صياحهم ثانية: «اصلبه!». قال إنه سيأمر بجلده ثم سيرد إليه حريته. لكن الجمع واصل صراخه: «اصلبه!» (مرقس 15:5–15 ولوقا 23:18 • 25).

حسب التقويم الجديد، حدث هذا يوم الجمعة الحزينة من عام (33) الذي صار ميلادياً من الآن فصاعداً. كان المعدوم في الثالثة والثلاثين من العمر، وقد كتب على صليبه: يسوع الناصري، ملك اليهوذيين.

4) مسيحيون بالجملة فجر نهاية الزمن

استمر التوتر الرؤيوي في فلسطين وازداد تفاقماً. كانت النظرة العامة إلى الرومان ترى فيهم مضطهدين. ولم تسهم تحزبات اليهوذيين ونزاعاتهم في تهدئة الخواطر، لأنه كان يمكن اعتبارها، كذلك، علامات نهاية الزمن. وكانت الظروف محيرة ومخيفة بوجه عام، فقد طاف مسحاء بالجملة في كل مكان من البلاد يعلنون رسالاتهم. عندما بدأت تتكون حركة كبيرة منهم، تدخل الرومان للحيلولة دون نشوء خطر على الإقليم. بذلك، ازدادت الخواطر هياجاً، وازدادت روما غضباً، وهي التي أوشكت أن تفقد مرات عديدة سيطرتها على فلسطين بسبب الاضطرابات والفوضى. الآن، كان هناك أسباب تسوغ خوفها من نشوب اضطرابات جديدة، زاد من احتمال استعارها أن دعاوات المهيجين الخُمس كانت تجد آذانا صاغية لدى الشعب وقبولاً منه.

لمواجهة المخاطر، كان على الحكام معالجة الأمور بترو وتدبير؛ فليس كل مسيح عدوا للدولة، وليس سهلاً الفصل بين المحتالين وبين من يمكن أن يشكلوا خطراً فعلياً على الأمن. كما أن روما لا تتطلع إلى قطع عنق كل متسكع يجمع حوله بضعة أشخاص. بالمقابل، جنح الصدوقيون، الشريحة العليا وأنصارها، المكروهون جداً من الشعب، إلى التشدد في هذه المسائل؛ لاقتناعهم أنهم سيكونون الخاسر الأكبر، إذا ما انفجرت انتفاضة في مكان ما، ولأن قربهم من المحتل كان يسيء إليهم في نظر الشعب.

في هذه الأجواء، اعتقل الحاكم ألبينوس عام (62 م) قبل أربعة أعوام من نشوب الانتفاضة الكبرى، رجلا اسمه يسوع بن حنانيا، ثم أعلنه مجنوناً وأطلق سراحه. كان هذا الفلاح الأمي يخترق شوارع القدس أثناء عيد العريشة، في الليل كما في النهار، محذراً سكانها من قرب نهاية العالم، حسب ما يخبرنا به يوسِفوس فلافيوس نقلا عن شاهد عيان. «اعتقل مواطنون محترمون، أثار الصراخ الكارثي غضبهم على ابن حنانيا وعذبوه وضربوه. لكنه لم يقل كلمة واحدة، دفاعاً عن نفسه أو ضد أولئك الذين كانوا يضربونه، بل واصل إطلاق الصيحات نفسها التي كان يطلقها قبل اعتقاله». لم يقدم الرجل أية إيضاحات عندما مثل بين يدي الحاكم، رغم أن »ضربات السياط قد كانت سلخت لحمه عن عظمه«[1] فعدّه ألبينوس مجنوناً.

لا بد أن يهوذا كانت تشبه خلال القرون الأولى ما بعد المسيحية سرب نحل قبل تحشده. فالمسيحون يملؤون الأمكنة، وأشباه المسيحين، وأولئك الذين فوضوا أنفسهم بإنقاذ العالم، والمضللون والمخادعون، يسكبون ثرثراتهم في آذان الشعب، ويجدون في صفوفه أنصاراً وأتباعا لهم. عندما تضطرب الأزمنة، يترقب الناس نهاية العالم بهذه الطريقة أو تلك، وينتشر الإيمان بالخوارق. هذا ما كان عليه الوضع آنذاك وما هو عليه اليوم أيضاً. وقد قيل أن مُذَنَّبا ظهر فوق القدس ظلت رؤيته ممكنة طوال عام كامل. وزعم القوم أنهم رأوا قبل الانتفاضة الكبرى نوراً

يضيء في الليل المذبح والهيكل. ووَلدت بقرة وسط الهيكل، كانوا قد اقتادوها إليه للتضحية بها. كما انفتح الباب الشرقي لمنطقة الهيكل الداخلية من تلقاء نفسه في إحدى الليالي، مع أنه كان ثقيلاً ويحتاج إلى عشرين رجل لإغلاقه[2]. إنها خوارق يعايشها متجمعة وبهذه الكثافة التائهون والحائرون في أزمنة التحول والانعطاف.

كان يسوع الجليلي كاهناً يقوم بمعجزات جسدتها، حسب شهادات العهد الجديد، خوارق كثيرة، بينها رحلة صيد في بحيرة طبريا ملأت شباك سمعان بطرس، وشفاء أبرص ومشلول، وإخراج الشياطين من أجساد المرضى، وإحياء الموتى. وقد تم في حينه تصديق هذه الأعمال وتناقلها وتدوينها، لأنها كانت علامات على زمنها، تكمن خصوصيتها في أن إنساناً على قدر هائل من الجراءة استطاع اجتراحها.

كان يوحنا، المسمى المعمدان، واحداً من أنبياء الكارثة الذين حظوا فيما بعد بشهرة واسعة، بفضل صلته بيسوع الذي تعمد على يديه. جال يوحنا إقليم يهوذا طولاً وعرضاً معلناً قرب قدوم المسيح، مع أنه اعتبر نفسه بين فينة وأخرى مسيحاً، ودعا إلى التوبة، ولبس رداءً نتناً من جلود الجمال، وتغذى على الجراد والعسل البري. هذا الرجل الغارق في القمل والوسخ كان يهاجم المرة تلو الأخرى هِرُودُس أنتيباس وزوجه هيروديا، متهماً إياهما بالسفاح، ذلك أن زوجة حاكم الجليل كانت حفيدته. عندما عيل صبر الحاكم، ألقى القبض على يوحنا وألقى به في سجن قلعة مخيروس. حدث هذا في عشرينيات القرن الأول الميلادي.

في قصة (هيروديا) تخيل الروائي الفرنسي غوستاف فلوبير لعنة مؤثرة على قدر كبير من الظلامية الرؤيوية، أطلقها يوحنا من غياهب سجنه: «الويل لكم أيها الفريسيون والصديقيون، يا سبط الأفاعي، أيها القراب المنفوخة والسلاسل الرنانة. الويل لك أيها الشعب، والويل لخونة يهوذا، لشعوب أفرايم ولأولئك

الذين يسكنون الوادي الخصيب ويترنحون تحت تأثير أبخرة نبيذهم، ليختفوا كالماء الذي تبتلعه الأرض، وكالقوقعة التي تذوب وهي تزحف، وكالوليد المبكر لامرأة لا ترى الشمس!. ستفرين يا موآب كما تفر عصافير الدوري إلى أشجار السرو، وتفر الفئران إلى حجور الأرض. ستتكسر بوابات القلاع بأسرع مما تتكسر قشرة الجوز، وستنهار الأسوار وتتفحم المدن، ولن يوقف سياط الخالق شيء، وستتقلب أعضاؤكم في دمكم كما القماش في آنية الصباغ. وستمزقكم كجرافة جديدة وتبعثر مزق لحمكم على الجبال».

كانت سالومي، ابنة هيروديا، هي التي طلبت رأس يوحنا من زوج أمها، حسب منقولات العهد الجديد. وإن كانت أمها هي التي حرضتها، لأنها أرادت موت المعمدان، الذي حدث خلال إحدى الولائم في زيارة رومان من ذوي المناصب السامية وغيرهم إلى القلعة بعد أن رقصت سالومي أمام الجمع.

«كانت تثنياتها تطلق الآهات، وكان ينبعث من كيانها بأسره توق يحير المرء، فلا يعرف إن كانت تبكي الرب أم ذابت في الدلال. بأجفان نصف مغلقة، ثنت جذعها وأطلقت بطنها كما يطلق بحر هائج، وجعلت نهديها تنفران بينما بقي وجهها جامداً وقدماها ساكنتين.

كانت تتلوى بإثارة جعلت «البدو المعروفين بعفتهم، وجنود روما الخبراء في جميع أنواع الفسق، ورجال المكوس البخلاء، والكهنة الطاعنين في السن والغارقين في مشاكساتهم، يهتزون من شهوة كتمت أنفاسهم». أوشك الحاكم أن يختنق من الشهوة، عندما وقفت أمامه وقالت: «أريد أن تجلب لي رأسه على صينية». دخل الرأس، يحمله ماناي، الجلاد، بذراع ممدودة تمسك به من شعره، تملؤه فخراً هتافات الاستحسان. ثم وضعه على صينية وقدمه إلى سالومي» [3].

اختفى القسم الأكبر من المسيحين، والأنبياء، والمنجمين الذين قالوا باندثار العالم كما ظهروا، فلم يتجاوز أي واحد منهم زمنه باستثناء يسوع الجليل ويوحنا المعمدان.

تبلورت توقعات نهاية الزمن في الأربعينيات على يد شخص اسمه ثيوداس. هذا المسيح لف حوله جمع كبير من الناس وطالبهم بمرافقته إلى نهر الأردن، الذي سيشق مياهه ويمكّنهم من عبوره دون أن تبتل أقدامهم. أرسل الحاكم خيالة في إثر الجمع أبادوه وقطعوا رأس ثيوداس.

حاول حاكم لاحق تدمير الآمال المسيحانية، المنبع الذي لا ينضب للهيجانات والصراعات، فانتهت ولايته إلى نزاع مفتوح مع رعاياه، كدّر المتطرفون خلاله عيشه وعيش مواطنيهم، ونجحوا في ترسيخ وجودهم داخل إقليم يهوذا.

تعرضت حركة أخرى أسسها يهوذي مصري للتقتيل والتذبيح. هذا العراف، كان قد وعد بجعل أسوار القدس تنهار ما إن يصدر إليها أمرا بالسقوط. بعد المجزرة، لم يسمع أحد قط أي شيء عنه.

فقدت روما تدريجياً رقابتها على المناطق الريفية، التي صارت قراها ومدنها قواعد انطلاق وعمل للمتمردين. بل إن القدس نفسها أقلعت عن أن تكون آمنة. حين شكل الصدوقيون وغيرهم من المواطنين النافذين عصابات مسلحة تحرسهم، انقلبت الظروف القلقة إلى فوضى حقيقية. مذ ذاك، امتزجت التطلعات المتنوعة، ما كان منها مسلحاً ومتطرفاً أو أقل ميلاً إلى العنف، امتزاجاً بلغ درجة التماهي مع الحركات المسيحانية، إلى أن عزف الحكام، في النهاية، عن فعل أي شيء عدا السعي لإدارة الفوضى، بعد أن كانوا قد أخفقوا في الحيلولة دونها وافتقروا إلى القوة الكافية لإزالتها.

نجح الحُمس في تنظيم أول هبة شعبية كبيرة (بين عامي 66 و70 م) تحولت إلى حرب أهلية اضطر الرومان للمشاركة فيها. لكن الهزيمة حلت بالثائرين بعد نجاحات أولية أحرزوها، فتم احتلال القدس عام (70 م) وأحرق الهيكل وحرثت بقعة الأرض التي كان قائماً عليها، وفرضت ضريبة هيكل لصالح كابيتول جوبتر في روما، ومنعت الطقوس اليَهْويّة، وأعلنت المنطقة كلها إقليماً قيصرياً.

في تلك السنوات، ظهرت فكرة تقول بضرورة وجود مسيحين: بن يوسف، البطل المحارب الذي جمع المشتتين وأعاد الخدمة من جديد إلى هيكل القدس. والمسيح الثاني، بن داود، أمير السلام الذي سيأتي بالخلاص النهائي.

كان مناحيم واحداً من قادة الحُمْس إبان الحرب. وكان جده قد قاتل ضد الملك هِرُودُس. هاجم مناحيم قلعة مَسْعَدة ونهب مستودع سلاحها، ثم دخل إلى قلعة أنطونيا واستولى عليها، فارتبطت الآمال المسيحانية بهذا المحارب الظافر، الذي أعلن نفسه ملكاً، وفر أنصاره إلى مسعدة، عندما قتله منافس من الحُمس. وعن الأخيرة اختلق يوسفوس فلافيوس رواية عن الانتحار الجماعي فيها.

هل يجوز أن تصير القدس، مركز الإيمان، مكانا للوثنية؟! كانت الروح الشعبية تغلي، بينما بدأت الاستعدادات لحرب جديدة، وشرع القوم يكدسون مخزونات سرية للسلاح ويبنون مواقع حصينة. عندما حدثت تعديات، وشنت غارات، وصار الوضع حرجاً، أرسلت روما قوات إضافية إلى فلسطين. كان هَدْريان قد أمضى الفترة ما بين (128 و 132 م) في الشرق دون أن تشهد هذه الفترة أيَ تمرد، لكن الأمور تغيرت تماماً بعد رجوعه إلى روما. وانفجرت عام (132 م) انتفاضة جعلت سمعان بار كوزبا قائداً وزعيماً أوحد للشعب. كان الحاخام عقيبة، المؤمن أشد الإيمان أن نهاية الزمن قد بدأت، «وأنه لا يفصلنا عنها غير وقت قصير جداً» يراقب النجاحات السريعة لبار كوزبا، الذي تحول اسمه عند البعض إلى بار كوخبا [بار كوكبا] (ابن الكوكب) تعبيراً عن الآمال المسيحانية التي علقت عليه؛ وعرف عند آخرين باسم (بار كوزبا) أي (ابن الكذبة). اعترف الرابي (أن بار كوخبا هو الملك والمسيح!) وزعم أن المسيح ابن داود سيأتي إلى العالم بعد الحرب، ضارباً عرض الحائط بواقعة أن بار كوخبا لم يكن من نسل داود.

تجمع أتباع كثيرون حول ابن الكوكب، وحمل الكثير من سكان فلسطين السلاح.

لمواجهة هذه المحنة، أمر القيصر أفضل قواد جيشه، القائد يوليوس سِفِيرُوس بالتوجه مع قواته إلى فلسطين، بعد تعزيزها بوحدات من إقليم الدانوب. غصت منطقة القتال الآن (بدزينة) من الكتائب العسكرية، وأقلم القائد العسكري الجديد نفسه مع استراتيجية وتكتيك بار كوخبا في إدارة العمليات الحربية، فأقلع عن مواجهته وجها لوجه . . . وأخذ بتكتيك يقوم على أسر رجاله متفرقين بواسطة جنوده وضباطه الكثيرين، أو تطويقهم ومحاصرتهم داخل مدنهم وقطع الإمدادات الغذائية عنهم، لأن هذه الطريقة تتيح له استنزافهم وشل حركتهم وإبادتهم تدريجياً دون تعريض قواته لمخاطر جدية.

قرر سِفِيروس شن حرب استنزاف سرعان ما أحدثت الآثار المرجوة منها. في النهاية، كان على بار كوخبا الانسحاب بما بقي من قواته إلى قلعة بيتار، التي حوصرت إلى أن سقطت عام (135 م) وقتل فيها. بذلك مات رجل قاس كان من المحال تحقيق نجاحات الحرب الأولى دون نظامه الحديدي، يقال إنه أجبر معتنقي المسيحية على الختان والتنكر ليسوع. لم يشارك المسيحيون في الانتفاضة، لأن المسيح كان قد ظهر بالنسبة إليهم، ولأن اعتبار بار كوخبا مسيحاً كان ضرباً من المحال في نظرهم.

كانت المسيحية قد رسخت نفسها منذ وقت طويل ديناً جديداً. لم تمس الانتفاضات اليهوذية على روما (اليهود) المسيحيين إلا كأحداث سياسية، بينما بقوا بعيدين عن التوقعات المسيحانية التي صحبتها، بعد أن كانوا قد رأوا قبل مئة عام المسيح المنتظر في يسوع. صحيح أنهم خافوا كثيراً عندما مات على الصليب وتبعثر تلامذته، أشد أنصاره المخلصين إخلاصاً. لكنهم درسوا العهد القديم ووجدوا أن يسوع يبقى المخلّص وإن مات، ما دام الرب سيجعله السيد والمسيح، تعني كريستوس الإغريقية المسيح، بفضل قيامته. وقد قرر التلامذة انتظار عودة سيدهم في القدس. هذه القبضة تحولت إلى الجماعة المسيحية، التي واصلت نشر الدعوة، واجتذبت أعدادا متزايدة من الناس إلى نهجها.

لقد كان هؤلاء (يهوذاً) وبقوا كذلك يأملون أن تتوب إسرءيل ويؤمنون أنهم نواة شعب الرب، بينما كانوا بالنسبة إلى مواطنيهم طائفة من طوائف كثيرة موجودة في البلاد. كان اليهود قد ألفوا قيام المسيحيين بالإعلان عن أفكارهم. رغم ذلك، أثارت هذه القبضة من التلامذة وأتباعهم الاهتمام من حينٍ لآخر. ومع أن بعض الصدامات كانت تحدث عندئذ، فإن الهدوء سيطر إجمالاً إلى ستينيات القرن.

انطبعت حياة الجماعة بطابع التوقعات الألفية؛ توقعات آخر الأشياء التي ستحدث قبل عودة المسيح ونهاية العالم. لكنها انطبعت أيضاً بثقتها القصوى في قدوم ملكوت الرب. كان العماد سبيل العضوية في الجماعة، التي أقام أفرادها أوطد الصلات فيما بينهم، والتقوا لتناول وجبات مشتركة، وذهبوا معاً إلى الاجتماعات، وصلّوا جماعة، وأثبتوا جدارتهم في رعاية الفقراء والأرامل. وعاشوا، باختصار، في «شيوعية حب»[4].

أي بشر كان هؤلاء. هذا ما نجد وصفاً له لدى الطبيب كورنيليوس سيلزوس: «كما رأينا، كانت غالبية سكان البيوت عمال صوف وحذّائين وصنّاع لباد. إنهم قوم يفتقرون افتقاراً تاماً إلى العلم والصقل، يصمتون تماماً في حضرة سادتهم الذين يبزونهم عمراً وحكمة. لكنهم ما إن ينفردوا بأناس من مستواهم، حتى يتحولوا إلى متحدثين بارعين جديرين بأن يتبعهم المرء كما يتبع آباءهم ومعلميهم»[5]. ويرى سيلزوس فيهم (مجانين ومهرجين) يزعمون أنهم يعرفون وحدهم كيف يجب على الإنسان أن يعيش. إنه رأي غير ودي، يخالطه احتقار مواطن روماني للرعاع.

توجه يسوع منذ البداية إلى أفقر الفقراء، وإلى المحرومين من الامتيازات والمستغَلين والهامشيين. واحتذى تلامذته به، فسحروا الناس بوجهات نظرهم العجائبية، التي تعلن قيام ملكوت الرب وإلغاء العذاب الدنيوي، وترى أن جميع البشر سيكونون متساوين أمام القدوس: الصدوقي كالفريسي، والفريسي كالمستضعف.

لم يكن الفريسيون أصدقاء للشعب رغم تظاهرهم بذلك. لقد أقاموا حداً

واضحاً يفصلهم عن بسطاء الناس. ولم ينفرد الرومان باحتقار البروليتاريا الرثة في المدن والأرياف وكرهها، بل شاركهم الفريسيون مشاعرهم هذه، فكانت كراهية الناس لهم شكلاً من أشكال المقاومة الشعبية ضدهم. إذا صدقت أخبار الكهنة، فان أجواء حرب أهلية باردة كانت تسود بين عامة الناس وبينهم. وإذا كان المستضعفون عاجزين عن تدوين مشاعر الكراهية التي يكنونها لهم، فإن الكهنة فعلوا هذا وسجلوا إحساسهم بالازدراء تجاههم: «لو لم يكونوا بحاجة إلى أعمالنا لكانوا قتلونا بالتأكيد». «إن كراهية عامة الشعب لأي واحد من الفقهاء أكبر من كره الشعوب الدنيوية لإسرءيل». وهناك ما هو أشد سوءاً من ذلك: «إنهم يسمحون لأنفسهم بتقطيع الإنسان من عامة الشعب كما تقطع السمكة». أخيراً «حذار أن تتزوج من ابنة إنسان من عامة الشعب، فهؤلاء رجس ونساؤهم دنس» إلى أن يقول عن بناتهم: «ملعون كل من يعاشر حيواناً».

يصير الارتقاء الاجتماعي من صفوف البروليتاريا ضرباً من المحال في ظروف كهذه. وإذا كان هناك من نجح في ذلك، فهو الحاخام عقيبة، الذي كان قد رأى المسيح في شخص سمعان بار كوزبا. قال الحاخام: «عندما كنت إنساناً من عامة الشعب، تحدثت فقلت: قدموا لي أحد الفقهاء وأنا سأعضه كما يعض الحمار»[6].

كان واضحا أن ملكوت الرب لن يتحقق ما دام يسوع حياً، وإن كان وشيكاً وقريب القيام، كما يقول الأمل الرؤيوي الشامل. بموت يسوع وقيامته وصعوده إلى السماء، تغيرت هذه النظرة جذرياً. «لقد تم الزمان واقترب ملكوت الرب» (مرقس 1:15). هذا ما قاله يسوع. لقد بدأ العالم الجديد بالفعل، وإن كانت بدايته بقيت طي الخفاء أول الأمر، وكان لابد من مرور بعض الوقت قبل أن يصبح مرئياً من الجميع. من هو في المسيح يمتلك جزءاً من الملكوت. وعندما سيعود المخلص إلى الأرض، سيلتحق المسيحيون الأحياء به وسينهض الموتى من القبور. لكن أحداً لا يستطيع إخبارنا بوقت حدوث هذا، لأن «يوم الرب سيأتي كلص في الليل» (تسالونيكي الأولى 1:5-2). بهذه المقارنة البارعة لبى بولس

الرسول الحاجة المبررة إلى حساب لحظة نهاية العالم أو انبثاق ملكوت الرب. ذلك ما فعله الرؤيَويّون دوماً برغبة زادت الأمور غموضاً بدل زيادتها وضوحاً.

تحول بولس إلى مؤسس حقيقي للاهوت مسيحي[7]، فقد طور مذهب يسوع تطويراً خلاقاً، أبعد انتظار الملكوت عن مركز النظرة المسيحية وجعل شخص المصلوب، مفهوماً كمخلص، نقطة ثقلها الرئيسة. وقد تواصلت هذه الصياغة الجديدة في إنجيل يوحنا، حيث يتراجع انتظار ملكوت الرب إلى الخلف، لأنه سبق له أن صار مهيّئاً. «إن جالب الملكوت صار أكثر أهمية من الملكوت ذاته. وما كان في السابق وسيلة غدا الآن هدف ذاته، لأن شخص المسيح تماهى مع الملكوت . . . وصار الطريق هو القصد والهدف . . . منذ اللحظة، صار الخلاص ممكنا دون الملكوت. هذه النظرة كانت ببساطة غير ممكنة إطلاقاً بالنسبة إلى يسوع نفسه»[8]. لكنها هدّأت الخواطر المهتاجة.

هذا ما قال به المسيحيون . . . وحدهم، فنشأ منه دين جديد. بالمقابل، تمسك اليهوذيون بتصوراتهم التي لم تعتبر المسيح مخلّصاً، وقالوا إن النهاية والبداية الجديدة لم تقعا بعد، وأنه لابد من انتظار المسيح، والأمل بأن زمنهم المسيحاني مازال متواصلاً.

كانت روما، المملكة المعادية للرب، في ذروة قوتها. فلم يكن في وسع أحد إسقاطها باستثناء الفرس، عدوها الكبير في الشرق، الذي أحدثت اختراقاته العسكرية القلق بين اليهوذيين، لكنها عززت قبل كل شيء توقعاتهم الرؤيوية المسيحانية، وأدت إلى تكاثر أعداد المسيحين حتى في المنافي، وهم مسحاء بلغوا شهرة محزنة في البلدان الرئيسة وأماكن أخرى، ولابد أن نذكرهم هنا ونترسم ظهورهم حتى في العصر الوسيط.

أظهر عصر هجرات الشعوب، بفوضاه وانعدام الأمان فيه، عرّافين وأنبياء وأنواعاً مختلفة من المخلّصين. وقد تنبأت إحدى المنقولات القديمة بظهور مسيح

جديد بعد أربعمئة عام من تدمير الهيكل الثاني (70 م). وبالفعل، عرفت كريت في هذا الموعد متسكعاً وعد أخوته وأخواته في الإيمان بقيادتهم بأقدام حافية إلى الأرض المقدسة، على غرار ما قد كان موسى فعله، لأنه سيشق ماء البحر. ولأن كل شيء بدا آنذاك ممكناً، باع الناس ما يملكونه وتبعوا موسى الجديد إلى جبل قرب الشاطئ مباشرة، حيث ألقوا بأنفسهم إلى الأمواج بإشارة منه، بينما كان صيادون في الأسفل ينظرون غير مصدقين ما يحدث، قبل أن يهرعوا إلى سحب بعضهم من الماء، ويغرق كثيرون.

في القرن السابع أو الثامن، تناقل القوم في فارس قصة أبي عيسى الأصفهاني، الذي زعم أنه أحد خمسة مبعوثين للمسيح. وأسس جماعة دينية، وقال إن الرب كلفه تحرير إسرءيل من سلطة الشعوب الوثنية. نظم الأصفهاني تمرداً ضد الخليفة أسهم فيه يهود كثيرون، رأى بعضهم في أبي عيسى المسيح شخصياً. قمعت الفتنة وقتل قائدها، لكن الإيمان برسالته المسيحانية بقي حياً، فقال بعضهم إنه احتجب في مغارة، وزعم آخرون أنه استخدم غصن ريحان لصنع دائرة سحرية من حوله يعجز الأعداء عن اختراقها. توارت الطائفة عن الأنظار بعد أن صار أحد تلامذة أبي عيسى زعيماً لها، فادّعى أن معلمه، الحذّاء الفقير، حظي بنعمة الرب، لذلك وفق إلى تأليف كتب مختلفة، مع أنه لم يكن يعرف القراءة والكتابة.

ظهر في سورية بين عامي (720 و723 م) شخص اسمه سيرينوس، ادعى أنه المسيح، وعد بطرد المسلمين وتمكين اليهود من الذهاب إلى وطنهم. وقد تغلغلت دعوته في إسبانيا التي أسلمت، وغادرها كثير من يهودها الملاحقين وهاجروا إلى سورية. أصلح سيرينوس، أو بالأصح ثوّر حياة أخوته في الإيمان، فألغى من ضمن أشياء أخرى نواهي يهودية تتعلق بالطعام، وسمح لليهود باحتساء نبيذ الوثنيين وتجاهل أوامر الحاخامات بخصوص عقود الزواج والطلاق. عندما وجد نفسه مضطراً للدفاع عن نفسه أمام الخليفة، قال ببساطة إنه فعل ما فعله من قبيل التسلية والمزاح، فسلمه الخليفة إلى اليهود كي يعاقبوه، فقتلوه.

ظهر عام (1160 م) في كردستان المسلمة مسيح محارب اسمه داود الرّوي، وعد، كسابقيه جميعهم، أبناء ملته اليهود بتحريرهم من السيطرة الإسلامية وقيادتهم إلى فلسطين. وقد تناقلت الأيدي في بغداد رسالة زعم أن مؤلفها هو داود الروي، كتبها في الحقيقة محتالان يأمران اليهود ببيع ممتلكاتهم والصعود في ليلة محددة إلى سطوح منازلهم، ليطيروا منها إلى القدس على أجنحة ملائكة يتولون عملية النقل الجوي. تحرق اليهود شوقاً إلى الرحلة غير المألوفة والمثيرة، وبكت الأمهات المرضعات القلقات على أطفالهن، الذين سيكون عليهم الطيران بمفردهم. لكن دموعهن ضاعت هدراً، لأن أي ملاك لم يدعهن وأطفالهن إلى الطيران. أمرت السلطات باعتقال داود الروي وألقت به في غياهب السجن. لكنه ظهر، كما تقول الخرافة، أمام الملك دون أن يخرجه من السجن أحد. عندما أرادوا إلقاء القبض عليه للمرة الثانية، جعل نفسه غير مرئي، فلم يره أحد بعد ذلك إلا حين اجتاز أحد الأنهار على منشفة. ضغط الحاكم على اليهود، الذين عانوا كثيرا بسبب داوود الروي، فحاولوا إقناعه بالتخلي عن مخططاته المسيحانية . . . دون جدوى. عندئذ، ألجأتهم المحنة إلى أكثر التدابير تطرفاً، فقدموا رشوة إلى والد زوجته الذي قام بقتله[9].

نستطيع إيراد أمثلة أخرى كثيرة تبعث على الضحك. لكن يهود تلك الأزمنة حملوا مسيحيهم على محمل الجد إلى أبعد حد يمكن تصوره. نورد الآن حكاية كئيبة من وقت متأخر كثيراً، لتكون خاتمة سوداوية لهذا الفصل. عندما كان الحاخام مناحيم يسكن البلاد، صعد رجل أخرق، دون أن يلاحظه أحد، إلى جبل الزيتون ونفخ من فوق قمته في صور الشوفار، فسرى بين الشعب المذعور نبأ يقول: هذا هو نفخ الشوفار الذي يعلن الخلاص. حين وصلت الإشاعة إلى مسامع الحاخام مناحيم، فتح النافذة ونظر إلى العالم الفسيح وقال: «ليس هذا بتجديد»[10].

5) ألف عام: المسيحيون الملاحقون ينتظرون ملكوت الرب

الألفية تعني (ميلينياريسموس) باللاتينية و(خيلياسموس) بالإغريقية، غير أن لها أيضاً معنى آخر هو عودة المسيح الذي سيقيم ملكوت السلام والعدل على الأرض، وسيحكمها مع القديسين طوال ألف عام. إنه مضمون إيماني جديد كان ثاوياً في المسيحية الفتية.

عشش هذا التصور بسرعة كبيرة في الخواطر، وأحدث تأثيراً غير عادي في العصر الوسيط. ومع أن الكنيسة رفضته وعدّته محض هراء، فإنه تمّكن من احتلال مكانة وطيدة في كثير من الأفئدة والمهج، إلى يومنا هذا.

يعكس تصور الملكوت الألفي حلماً إنسانياً أزلياً بقيام عصر ذهبي أصلي على الأرض، أرض الأحلام التي أنعم عليها بجميع خيرات العالم، والتي يسود فيها السلام والوئام وينتهي البؤس والعوز وسائر البلايا الأخرى طوال ألف عام،

وهو وقت يستحيل قياسه بالمعايير الأرضية. لكن التهديد الرؤيوي يبقى لاطياً وراء الستار، لأنه بعد انقضاء هذا الوقت ستنفجر مرة أخرى سائر المحن والبلايا في ظل طغيان المسيح الدجال، وإن انفجرت لمرة واحدة وأخيرة وغير قابلة للتجديد. بعد ذلك، ينفخ في الصور معلنا يوم الدينونة ويبدأ زوال العالم. قبل هلاك العالم الذي صار قبيحاً وقديماً هلاكاً نهائياً في العالم الآخر، لا بد من انتظار قيام ضرب من فردوس أرضي.

خلال القرن الثاني، عندما كانت المسيحية فتية، نبت على جذعها فرع خاص تجسد في انتظار ملكوت إلهي ألفي هو مرحلة انتقال بين الزمن والأبدية، سينشأ بعد عودة المسيح، ليزول بعد ألف عام تاركاً مكانه لملكوت الرب الأبدي. هذا التصور دوّنه، عام (94-95 م) على الأرجح، شخص يدعى يوحنا عاش في جزيرة باتموس، أدخل إلى الإنجيل باسم رؤيا يوحنا. وهي رؤيا قيامية دخلت كتاب الكتب بسبب مماهاة الرائي مع تلميذ ليسوع حمل الاسم نفسه، حظي نصها بسلطة هائلة اعتقد كتبة الإنجيل بخطأ تجاهلها.

يذكر يوحنا الحقبة الألفية في الفصل العشرين من رؤيته، حيث يقول بين أشياء أخرى: «ثم رأيت ملاكاً نازلاً من السماء يحمل بيده مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة. فأمسك التنين، تلك الحية القديمة، أي إبليس أو الشيطان وقيده لألف سنة ورماه في الهاوية وأقفلها عليه وختمها، فلا يضلل الأمم بعد، حتى تتم الألف سنة» (رؤيا يوحنا 20:1ـ3). ثم يصف النص قيامة أولئك «الذين سقطوا قتلى في سبيل الشهادة ليسوع وسبيل كلمة الرب»؛ قيامة الشهداء الذين سيحكمون العالم طوال ألف عام مع المسيح.

بعد انقضاء هذه الحقبة، ينقض الشر من جديد على العالم، ولكن للمرة الأخيرة، حيث سيلي التغلب عليه قيام ملكوت الرب، الذي سيتم بعد يوم دينونة البشر والعالم، حين يتقرر أيضاً المبارك من الملعون إلى الأبد. ثمة سوابق لانتظار الملكوت الألفي في رؤيا يوحنا، (ماغنا كارتا النزعة الألفية النقية) كما يسميها

فالترنغ، نجدها في كتاب حنوك، ورؤيا باروخ السوري، وسفر عزرا الرابع. هذه الرؤى غير المقدسة لا تحدد حقبة زمنية معينة، مع أنها ترسم بألوان مزركشة زمن الامتلاء والرضى الذي يسبق النهاية الأخيرة.

ملكوت الرب في الحياة الدنيا؛ للخيال أن يتصور إذاً أجمل وأغرب وأزهى الأزاهير وأكثرها إثارة للعجب. لو كان هذا الملكوت سيستمر ألف عام أرضي فقط؛ لكن ألف عام هي زمن لا تستطيع دودة الأرض، الإنسان، قياسه، حتى لو كان هذا الزمن الذهبي، الطويل إلى درجة تجعله غير قابل للقياس، سيبدأ قريباً، لاستطاع المرء التمتع تمتعاً تاماً به خلال حياته الخاصة.

التصقت نزعة مادية ترفية التصاقاً لا سبيل إلى إنكاره بالنزعة الألفية. ذلك كان شيئاً مفهوماً إلى أبعد حد ويستحيل تحاشيه. لم يكن أبو الكنيسة أويزِبيوس من قيسارية الوحيد الذي أعلن موقفاً ضد هذا السلوك، حين انتقد شخص يدعى كيرينثوس، الواقع تماماً في غرام جسده، وصاحب النزعة الشهوانية الصرف، «الذي يقوم ملكوت المسيح بالنسبة إليه في تلبية رغبات المعدة والأعضاء التي تحتها». ويمكننا الاعتقاد «أن مسيحيي القرون الأولى لم يتصوروا الملكوت كساعة متعة مملة، بل كعرس بهيج مفعم بالحيوية»[1].

على إنسان الأرض الإفادة من الوقت وإعداد نفسه للأبدية، للزمن الذي سيلي الأعوام الألف، عندما سيدخل بصورة نهائية في ملكوت الرب، أو سيعجز عن دخوله إذا قدر له أن يذهب مرة واحدة وأبدية إلى الشيطان.

إذا كان السلام والعدل والرفاء على الأرض تحرر الإنسان من همومه، فإن هذه تمكنه أيضاً من تكريس اهتمامه لخلاصه الروحي، ليكون بوسعه المثول باطمئنان أمام العرش الإلهي، وانتظار حكم الرب، عندما سينفخ الصور معلنا يوم الدينونة.

يرتسم عصر ذهبي في أفق الأرواح. هذه أسطورة قديمة جداً يتواصل

تأثيرها إلى اليوم، ولكن في إطار دنيوي طبعاً. هذا الفرع الخاص، الذي أنبته فجر المسيحية، نما وصار غصناً يانعاً قوياً؛ فرأت الكنيسة نفسها مجبرة على قطعه في النهاية. لا عجب إذاً أن تكون النزعة الألفية قد حظيت بحب كبير لدى الشعب وممثلي الكنيسة المشهورين؛ حب لم ينشأ بالتأكيد بفعل «توجه شهواني».

إن ما كتبـه بابْيّاس، أسقف مدينة آبائه هيرابوليس الفريغية بين (130 و 140 م) حول الملكوت الألفي، لهو من طبيعة روحية بالأحرى. يقال إن هذا الأسقف عرف يوحنا الرسول واشتهر بتعليقاته على كلمات يسوع وأفعاله، التي عزاها إلى تفكير ألفي. قال أبو الكنيسة المتشدد أويزبيوس عن الأسقف: «إنه محدود جداً من الناحية الفكرية، ينسب تشبيهات ومذَاهب غير معروفة إلى الرب»[2] مع أن رسالته حول هذه القضية موجودة في كتاب حنوك ورؤيا باروخ السريانية.

رسم بابْياس مستقبلاً واعداً حافلاً بالتشبيهات: «ستأتي أيام ستنمو فيها عرائش عنب لكل منها عشرة آلاف غصن لكل منها عشرة آلاف فرع، لكل منها عشرة آلاف فريع، على كل منها عشرة آلاف عنقود في كل منه عشرة آلاف حبة تعطي كل واحدة منها ملء خمسة وعشرين إناء نبيذاً . . . سيأكل كل حيوان مما تعطيه الأرض، وسيكون مسالماً ودوداً حيال أبناء جنسه والإنسان». يرى المؤمن في هذه الأقوال شيئاً جديراً بالتصديق، لكن الخائن الكافر يهوذا تساءل «كيف يمكن للرب تحقيق نمو كهذا» وتلقى رد الرب: «أولئك الذين سيكونون في تلك الأزمنة سيرون»[3]. «تلك الأزمنة هي السنوات الألف، التي سيقوم ملكوت المسيح فيها على الأرض ويكون مرئياً». إن بابياس يؤمن إيماناً لا يتزعزع بالسنوات الذهبية.

هذا ما فعله أيضاً يوستين، الفيلسوف المسيحي الذي ولد عام (105 م) في نابلس بفلسطين، وقطع رأسه ومات شهيداً عام (165 م) في روما. اخترع يوستين حواراً مع اليهودي تريفون، جعله يسأل خلاله: «هل أنتم المسيحيون جادون عندما تزعمون أن القدس، مدينتنا، سيعاد بناؤها من جديد؟ وهل تعتقدون فعلاً أن مؤمنيكم سيجتمعون هنا فرحين بصحبة البطاركة والأنبياء في

كنف المسيح؟». حين يجيب الفيلسوف عن سؤاله، يخبره أن المسيحيين لا يحملون جميعهم وجهة النظر هذه، وإن كان هو نفسه من المؤمنين بها. كما لا يدع لديه مجالاً للشك في أن «ألف عام ستأتي إلى القدس المبنية والمزخرفة والموسعة، التي كان النبيان حزقيال وعزرا قد تحدثا عنها»[4].

أقام المحامي واللاهوتي الروماني الهاوي كْوينتُوس سِبتِيموس تِرْتُوليان، المولود في قرطاجنة (بين 150 و 160 والمتوفى بعد 220 م) منارات متلألئة أخرى لانتظار الملكوت. تدين الكنيسة الكاثوليكية لهذا العقل المتألق، المُفْتَنّ في ابتكار صياغات صائبة، بمفاهيم لاهوتية كثيرة حافظت على صلاحيتها إلى اليوم. وقد طبع تفسيره للدين كعلاقة حقوقية بين الرب والإنسان مسيحية الغرب بطابعه. عندما أراد مارسيون الإغريقي، مالك السفن الغني والمثقف، تأسيس كنيسة بديلة، لاعتقاده أن الكنيسة الأصلية تهودت، وأن عليها العودة إلى الوحي الأصلي، هاجمه تِرْتُوليان وأعلن: «أننا موعودون بملكوت على الأرض، سيقوم قبل بزوغ الملكوت السماوي في قدس ذات أصل إلهي، ستنزل من السماء بعد ألف عام من يوم القيامة»[5].

اقتات الإيمان بالملكوت الألفي من تصور قال إن يسوع المسيح سيرجع إلى الأرض، وإن عودته لم تحدث بعد. هذا الانتظار المحموم بدأ يصيبه البرود، وبلغت الأرواح المتوترة حدود مرونتها القصوى، بينما انتشر إحباط معين وتسطحت حياة الجماعة الدينية.

في هذا الوقت، ولدت حركة أرادت إعطاء زخم جديد لمسيحية الأيام الأولى القديمة، الصارمة والحماسية، حمل أعضاؤها اسم المونتانيين، فجددوا انتظار عودة المسيح توهّماً، ودفعوا النزعة النبوية المسيحية الأولى إلى حدها الرؤيوي «الوجدي الأقصى، وزعموا أنهم يملكون وحياً جديداً، وضخموا تضخيماً لا حد له صرامة الأعراف المسيحية الأولى».

ادعى شخص اسمه مونتانوس من فريغيا في آسيا الصغرى أنه الباراقليط

أو الروح القدس [الباراقليط: المعزّي، المدافع، المناصر][6] المعلن عنه في إنجيل يوحنا. وقال إن ظهوره يعني بلوغ الوحي أعلى مراتبه، وبالتالي وجوب التخلي من الآن فصاعداً عن كل الذين سبقوه. أعلن مونتانوس كذلك عن وجود نبيتين تشدان أزره وتقفان إلى جانبه هما برسكِلا وماكسيميلا. ثم نشر الثلاثة خطاباً مفعما بالوجد ومؤثراً، يعلن قرب نهاية العالَم في وقت جد وشيك، ويطلب من المؤمنين التوجه إلى موقعي بيبوزا وتيميون، حيث ستهبط القدس السماوية إلى الأرض ليبدأ ملكوت الألف عام. إلى أن يتم هذا، لا بد أن تتواصل الحياة بنشوة أعظم بكثير من تلك التي عرفتها من قبل. لهذا، زاد مونتانوس أوامر الصوم تشدداً، فسمح بتناول الخضراوات المجففة وحدها مع أشياء أخرى وأبطل الزواج. فيما بعد، خفف من هذا التوجيه وقصر المنع على الزواج الثاني. من كانت بلا دنس، عذراء، وجب عليها البقاء كذلك. وعلى من يلاحقه الرومان بسبب إيمانه أن لا يفر منهم وأن يكون سعيداً لأنه سيموت شهيداً. كانت مطاردة المسيحيين قد بدأت منذ وقت طويل في الإمبراطورية الرومانية. حسب مونتانوس، لم يكن الاستشهاد صعباً بأي حال، لأنه ليس سوى تمهيد ضروري لامتلاك القدرة على مشاركة المسيح في حكم الملكوت الألفي.

افتتن الناس بالحركة التي غدت شعبية إلى درجة يصعب تصديقها. وانضموا إليها زرافات ووحداناً. بعد موت مونتانوس وبرسكِلا آلت القيادة إلى ماكسيميللا، التي تنبأت بظهور يسوع المسيح عقب موتها مباشرة. حين ماتت عام (179 م) دون أن يظهر المخلص، انفجرت الأزمة.

شعر رجال كنيسة بصيرون وبعيدو النظر بخطر المونتانيين، المنتشرين بكثافة في سورية وثراقيا وغاليا وشمال إفريقية، على بنية الكنيسة، التي كانت ماتزال هشة بعد. هذا التخوف، الذي انطبع بطابع التنافس مع المونتانيين، جعل الكنيسة تنخرط في صراع مع ذلك المذهب، وتقرر في مجالس عديدة طرد أتباعه من صفوفها، وتصدر عدداً لا حصر له من الكتابات الدعاوية المكرسة لتفنيده.

ألحقت الأزمة مع المونتانيين ضرراً كبيراً بهم، وتم في النهاية طرد الحركة من الكنيسة باعتبارها حركة انشقاقية خطرة.

أقام إيرينوس، عاش من حوالي عام (130 – 202 م) أسقف مدينة ليون منذ عام (177 – 178 م) وأكثر من يسمّون «الكاثوليك القدماء» أهمية، كمبعوث لجماعته في روما، التي كلفته السعي إلى عدم حدوث القطيعة بين الكنيسة والمونتانيين، دون أن يحقق أي نجاح في مهمته. تبنى هذا الرجل التقي النزعة الألفية، وكان لهذا السبب شاهداً بارزاً على عصره، نجد في مؤلفه الرائد الموسوم: ضد تعاليم الضلال انتماءً صريحاً إلى الملكوت الألفي، الذي يعدّه ملكوتاً أرضياً، كما يؤكد حرفياً. يقول إيرينوس: «سيتمكن من يستحقون الدخول إلى الملكوت، والذين امتحن صبرهم بأية صورة من الصور، من جني ثمار صبرهم في العالم الذي تعبوا وعانوا فيه. وسيبعث هؤلاء إلى الحياة أيضاً، في العالم الذي قتلوا فيه بسبب حبهم للرب. وسيسودون هناك، حيث تحملوا العبودية»[7].

سيكون سِيسليُوس فِيرمْيَانُوس لَكْتَانتيُوس آخر ألفي نتحدث عنه من الألفيين الشهيرين الكثيرين، كهيبوليت، وميتوديوس الأولمبي، وأبولينار اللاذقاني وكومودیانوس. عاش لَكْتَانتيُوس بين عامي (250 و 330 م). وقد استدعاه القيصر ديوقليطيان ليكون أستاذاً لفن الخطابة، فأمضى حياته في نيقوميديا وغاليا. كان لَكْتَانتيُوس خطيباً مفوهاً لم يساوره أي شك في وجود ملكوت إلهي تصوره كحدث رؤيوي يبعث حدوثه القشعريرة في النفس: «لكن ذلك المهيج، المسيح الدجال، الذي يحركه حنق لا يقبل المساومة، يقترب بجيشه ويحاصر الجبل الذي فر العادلون إليه. حين يرى هؤلاء أنفسهم محاصرين، يضرعون إلى الرب أن ينجدهم، فيستجيب ويرسل لهم مخلصاً. عندئذ تنفتح السماء في صمت الليل العميق، وينزل المسيح منها على رأس قوة كبيرة، يسبقه بهاء ناري، ثم عدد لا حصر له من الملائكة. تباد كتلة الزنادقة عن بكرة أبيها، ويسيل الدم كالأنهار . . . بعد إقامة السلام وقمع الشر، يعقد الملك العادل الظافر يوم دينونة على الأرض

للأحياء والأموات»[8].

نمت سطوة الكنيسة في قضايا الإيمان أيضاً، مع توطد وضعها التنظيمي، فرسمت خطوطه الرئيسة، وحددت ما يتفق مع الحقيقي منه وما ينحرف عنه، لأن أي انحراف يضمر مخاطر يستحيل في ظروف معينة تقدير نتائجها بالنسبة إلى استمرارها كمؤسسة. ونظراً لأن الكنيسة كانت قد حسمت صراعاتها مع الغنوصيين، الذين لم نأت على ذكرهم، ثم مع المونتانيين، فإنها أخذت تشحذ الآن أسلحتها للمعركة ضد الأفكار الألفية، التي بدت لها فقيرة روحياً وشديدة الارتباط بالأرض، وعدّتها مضاربات منافية لخلاص الروح من الحتمي خوض الحرب ضدها. هل كان بوسع الكنيسة قبول ملكوت إلهي على الأرض سيهز بالضرورة بنيانها، وقد يؤدي إلى تهديمه في النهاية. وإذا عاد المسيح إلى الأرض، ما عساه يكون مصيرها. إنها ستخسر وستختفي حتماً، وهذا ما لا يجوز السماح به.

هذا التهديد الوجودي للكنيسة وصفه الشاعر الروسي العظيم فيودور دوستويفسكي وصفاً مؤثراً للغاية في الأخوة كرامازوف، ودفعه إلى ذروته القصوى.

حدثت الواقعة أول ما حدثت في إسبانيا القرن السادس عشر:، إسبانيا محاكم التفتيش والمحارق. ظهر يسوع المسيح في إشبيلية، فما كان من الكنيسة إلا أن هيّأت الحطب الضروري لحرقه، لأن الكاردينال كبير المفتشين، «كان بلغ التسعين من العمر، وهو طويل القامة حسن التصرف، ذو وجه أجعد، وعينان غائرتان لا تلتمعان حتى لكأنهما فحمتان متأججتان»؛ رأى يسوع وهو يعيد للتو طفلة صغيرة إلى الحياة، «فاكفهر وجهه وقطب حاجبيه الرماديين الكثين واستعرت في عينيه تلك النار التي تعلن وقوع البلاء. أمر الكاردينال بإلقاء القبض عليه، ثم زاره في السجن: 'لماذا أتيت تزعجنا؟ إنك لم تأت إلا لتزعجنا، كما تعلم أنت نفسك!. يواجه رجل الرب المعتقل بحوار طافح بالحقد، يدور حول الحرية التي منحها الرب لإنسان لا يعرف ما يفعل بها: 'لكنك لحسن الحظ أوكلت الأمر إلينا

قبل أن تغادرنا. أنت من وعدتنا به، وأكده من خلال كلمته. ومن أعطانا حق الحل والربط. وليس من حقك أن تفكر لمرة واحدة بأخذ هذا الحق منا. فلماذا إذاً أتيت تزعجنا؟'».

قاتلت الكنيسة طويلاً كي يكل الإنسان حريته إليها، ونجحت في تحقيق ذلك. يقول المفتش الكبير في الختام: «أكرر أنك سترى غداً هذا القطيع المطواع، الذي سيندفع إلى هنا لدى أول إشارة مني كي يشعل النار التي سأحرقك بها، لأنك أتيت تزعجنا، ولأنه إذا كان هناك من يستحق محارقنا فهو أنت. غدا سأحرقك، أيها الديكسي»[9].

يمكن للصراع الذي بدأته الكنيسة ضد سنوات السعادة الألف أن يعدّ أيضاً صراعاً ضد جالب هذه السعادة: يسوع المسيح.

وقف أُرِغِنِس السكندري، أعظم لاهوتيي المسيحية المبكرة، في مقدمة المجادلات. فقد رأى في اتباعِ البهاء الألفي أناساً يتعبهم التأمل الفكري العميق، فجعلوا من أنفسهم عبيداً لنزواتهم، وأعادوا تفسير بشارة الكتاب، ورأوا فيها ملكوتاً أرضياً سمته الوفرة المادية والمتع الحسية. بينما تصورهم للقدس «كمدينة أرضية سيعاد بناؤها على أرض مليئة بالأحجار الكريمة، لا يعدو أن يكون نظرة متهافتة تمام التهافت». «هذه هي طريقة تفكير أولئك الذين يسمون أنفسهم مسيحيين، لكنهم يشرحون الكتاب بمعنى يهودي يخلو تماماً من أي شيء يمكن أن يكون جديراً بالبشارة الإلهية». هذا ما يقوله أوريغنيس مسدداً ضرباته إلى اليهود وآمالهم في زمنِ خلاصي يأتي به المسيح الملك»[10]. بالمقابل، يؤمن المسيحيون المستقيمون إيماناً راسخاً بملكوت إلهي لن يبلغوه على الأرض، لكنهم سيعيشون فيه بسعادة، هو ملكوت الرب الحقيقي الذي سيقوم في السماء.

أخيراً، أكد الراهب أغُسطين أن الأعوام الألف، التي سيكبل الشيطان خلالها، وسيسود القديسون في المسيح، «تنصب على زمننا الراهن، زمن قدومه

الأول». على أن لا يفهم الرقم (ألف) كعدد رياضي، لكونه يرتبط بـ «امتلاء الزمان». ليس للأعوام الألف سوى قيمة رمزية، بينما بدأ ملكوت الرب منذ وقت طويل، وتحقق كنيسةً على الأرض. أما رؤيا يوحنا والقيامة الأولى الموعودة في ملكوت الرب، «فلأن بعضنا لا يفهمهما، بل يحورهما، فضلاً عن ذلك، إلى خرافة آثمة» ما دامت القيامة الأولى لا تعني شيئاً آخر غير العماد. من المنطقي والمعقول أن لا يجد رجل الكنيسة في نفسه غير الاحتقار حيال «ذوي الأفكار الشهوانية من البشر» الذين يقتلون أوقات فراغهم بمسرات جسدية لا حدود لها، ويستمتعون بذلك الامتلاء من الطعام والشراب، فيكون من الصعب عندئذ الحديث عن الاعتدال والقناعة، علماً بأن الرغبة الشهوانية المدانة لا تعود تكتفي بالطيب من الطعام كما يعتقد[11]. هل هناك حاجة فعلاً إلى ضرب من فردوس أرضي جديد يحسن ظهوره؟ هذا شيء يستحيل التفكير فيه بالنسبة إلى أغُسطين. وقد دان مجمع إفسوس (431 م) الفكرة الألفية باعتبارها خرافة. لكن أغُسطين لم يعش هذا الانتصار، فقد مات قبل عام من ذلك. كسبت الكنيسة الصراع، لكن انتصارها لم يقض على الفكرة الألفية، التي استمر وميضها تحت الرماد، رغم جميع «العقائد المصفحة» (نغ) التي حاولت إطفاءها.

استخلص المسيحيون ضرورة انتظار ملكوت السلام الألفي على الأرض من قراءتهم رؤيا يوحنا. لذلك قبلوا برضى وصفهم بالضالين. شرح يوحنا، شأنه في ذلك شأن مؤلفي الرؤى اليهود، الحاضر بلغة غنية بالصور؛ فكيف كان يبدو زمن كتابتها؟

كان المسيحيون يواجهون محنة رهيبة طوال القرن الأول، لأن إعلان الانتماء إلى المسيحية كان يشكل بحد ذاته خطراً على جسد الإنسان وحياته، ولأن هؤلاء رفضوا الانصياع لقانون يفرض عليهم إبداء تبجيل إلهي للقيصر، فقد جعلوا من أنفسهم أعداء للدولة وتعرضوا لأفظع الملاحقات. في هذا الوضع العصيب، شجع يوحنا المسيحيين وأمدهم بالأمل. لقد تحدث عن «الداعرة الكبيرة بابل»

فعرفوا جميعهم أنه يعني روما، المقضي عليها بالزوال شأن بابل. وواساهم وأشعرهم بالعزاء، حين حكى لهم عن عودة المسيح إلى الأرض، ليقيم ملكوته الذي سيدوم ألف عام! ألم يجعل هذا الأمل المحن والمضايقات أخف وطأة. لقد كان الأمل الألفي يهب القوة والثبات حتى للمسيحيين الذين لم يؤمنوا بملكوت إلهي أرضي، وانتظروا يوم الدينونة بعد عودة يسوع، طبقاً لرواية الكنيسة.

قام نيرون عام (64 م) بأول حملة ملاحقة كبرى للمسيحيين. مد القيصر المجنون يده، وكان يرى في نفسه مغنياً وشاعراً وعازف قيثارة موهوباً، إلى الأوتار وأنشد، بعد أن لبس بزة مسرح رائجة: «أغنية عن احتلال إيليون»[12] يدفعه إلى ذلك «جمال ألسنة اللهيب» التي حولت روما إلى أنقاض ورماد. وقد كان نيرون أضرم النار في روما ثم اتهم المسيحيين بإحراقها كي يبدأ ملاحقتهم. ونلمس لدى المؤرخ الروماني بوبليوس كورنيليوس تاسيتوس شعوراً مازال طافحاً بالغضب سببه عمليات القتل الجماعي، رغم ما يتسم به عرضه من رصانة: «بالإضافة إلى إعدامهم، مورست لعبة مقززة معهم، فقد مزقت الكلاب أجسادهم التي غلفت بجلود حيوانات خيطت وأحكم إغلاقها، ثم أحرقوا واستخدموا مشاعل ليلية بعد حلول الظلام. وضع نيرون حدائقه الخاصة في خدمة هذه التمثيلية، وقدم عرضاً للسيرك تنكر خلاله في ثياب سائق عربة، واختلط بالجمهور أو امتطى عربة سباق. هكذا حدث تعاطف كبير مع من عُدّوا مذنبين يستحقون عقوبات صارمة، لأنه لم يضح بهم من أجل الصالح العام، بل بسبب ضراوة وقسوة فرد بعينه»[13].

أرسى القيصر تْرَايان (98 – 117 م) أرضية قانونية للملاحقات كانت قد افتقرت إليها قبله، فكتب في رسالة بعث بها إلى بلينيوس الأصغر: «من غير الجائز أن نتجسس عليهم. ولكن إذا ما تم الإبلاغ عنهم واعتقلوا، كان علينا معاقبتهم . . . على أن لا تؤخذ البلاغات المغفلة بعين الاعتبار في أي شكوى، لأن ذلك إن حدث كان مثالاً فاسداً وغير جدير بزمننا»[14]. وكان بلينيوس الأصغر، السياسي

والحقوقي والكاتب الروماني، منشغلاً بقضايا المسيحيين. وقد قدم في رسالة بعث بها إلى تْرَايان ملاحظات حول سلوكهم، فضلاً عن شروح عامة عنهم: « . . . يزعمون أن ذنبهم يكمن في كونهم يجتمعون عادة في يوم محدد قبل شروق الشمس، وينشدون بالتتابع أغاني في مدح المسيح إلههم، ويلزمون أنفسهم بقسم يلزمهم ألاّ يرتكبوا جريمة، أو يسرقوا، أو ينهبوا، أو يمارسوا الخيانة الزوجية، أو يسيئوا الأمانة، وأن يردوا ما ائتمنوا عليه متى طلبه أصحابه. بعد إتمام هذه الأفعال، كان من الطبيعي في نظرهم أن يتفرقوا ثم يعودوا إلى اللقاء في وليمة عادية وبريئة تماماً. ولأنهم أقلعوا حتى عن هذا بعد مرسومي . . . فقد ازددت حماسة لمعرفة حقيقة ما يحدث من خلال التحقيق مع أمتين، وإن اقتضى الأمر انتزاع اعترافاتهما بواسطة التعذيب. لكنني لم أعثر على أي شيء غير فسادهم وضلالهم غير المحدودين»[15].

حظر القيصر هَدْريان (117 – 138 م) عادة تحريض الرعاع على المسيحيين كي يكون لدى السلطات حافز كاف لاتخاذ إجراءات ضدهم. ولم ير مارك أوريل (161 – 180 م) الفيلسوف الذي ارتقى كرسي العرش، في شهداء المسيحيين غير رؤوس يابسة وطباع حرنة، وأمر باستمرار ملاحقتهم. إن الاستسلام الطوعي للموت، وتقديم أنفسهم كقوم بواسل يستحيل تجاهلهم، كانا أمرين لا يقبلان بالنسبة إلى الرومان، فوجدوا أنفسهم مجبرين مع ذلك على النظر إليه بإعجاب مشوب بالنفور. هكذا كتب غالن، الطبيب الشخصي للقيصر والرجل غير المسيحي، معبراً عن إعجابه بهم: «لأن احتقارهم الموت يتجسد كل يوم بوضوح أمام أعيننا. ولأننا نعرف تربيتهم الصارمة في مسائل الحياة الجنسية . . . ولأنه ينتمي إليهم أشخاص بلغوا مرتبة لا تقل عن مرتبة الفيلسوف الحقيقي في قضايا التربية والرقابة الذاتيتين وكل ما يتعلق بالطعام والشراب والتقيد الصارم بالعدالة»[16].

لم تكن السلطات التي تلاحق المسيحيين عدوهم الأكبر في ذلك الوقت، بل كان الشعب البسيط هو هذا العدو. فقد انتشرت فيه أفظع الإشاعات حول

القوم المخيفين، الذين يمارسون السحر والشعوذة، ويعبدون الأعضاء التناسلية لكهنتهم إلى جانب كائن له رأس حمار، لم يعرف الخيال المريض حدوداً، وضج بالطريقة التي تروقه، لأن الناس كانوا يصدقون كل شيء تقريباً.

حوادث مأساوية وكوارث. إنها وحق جوبتر انتقام الآلهة من الصبر على المسيحيين؛ فليتم القضاء عليهم إذاً وليلق بهم طعاماً للأسود. في تلك الحقبة، تم ابتكار مصطلح استخدم في الإجراءات العقابية الرسمية هو «الإعدام بواسطة الضواري». إنه عملية إعدام لها طابع عيد شعبي، صارع المحكومون خلالها حيوانات كاسرة في السيرك، بينما مات آخرون بالنار، وغيرهم على صليب يشبه الشوكة، أو حكم عليهم بالأشغال الشاقة في مناجم جبلية، العمل الذي اختير لذوي الأصل المتواضع من الناس فيها يضارع القتل.

قتل المنتمون إلى فئات أعلى بقطع رؤوسهم، بهذه الطريقة قتل يوستين الشهيد، أو تم نفيهم إلى جزر نائية في الحالات الأقل خطورة. وأرسلت الفتيات المسيحيات إلى المواخير(17).

لكن المسيحيين لم يكونوا قد تخطوا بعد أفظع الملاحقات وأشدها وحشية واتساعاً، التي عرفها منتصف القرن الواقع بين حكومة القيصر ديسيوس (249 – 251 م) وديوقليطيان (284 – 305 م) أحد أفظع الجزارين على الإطلاق، وقد عملت المحارق مجدداً في زمنه دون قيود، قبل أن تختفي من على المسرح الذي كان يقطر دماً.

عندما تولى ديوقليطيان السلطة، كانت الإمبراطورية الرومانية غارقة حتى ذقنها في الفوضى والانحلال، ومشرفة على شفا التفكك، بعد أن حكمها منذ عام (235 م) قرابة سبعين قيصراً عديمي الكفاءة. في هذه الفترة، كانت شعوب غريبة تتغلغل فيها من الخارج، كالجرمان من الشمال والفرس من الشرق. وكانت حدودها عاجزة عن الصمود لفترة أطول في وجه الضغط، بينما الإدارة والاقتصاد

منهاران تماماً، والأجهزة لا تؤدي عملها بالشكل المطلوب، والفلاحون مدمرون، والحرفيون يجبرون بالقوة على إنجاز أعمالهم، ويحتجزون رغم أنوفهم في ورش عمل تشبه الثكنات، والقادة العسكريون والموظفون الكبار يغتنون ويشترون مساحات واسعة من الأراضي، يسيطرون عليها بجيوشهم الخاصة حتى لكأنهم ملوك صغار، ليس هناك سلطة مركزية تضع حداً لأفاعيلهم. أما الكتائب الرومانية، التي كانت فخر الإمبراطورية ذات يوم، فتردت بدورها إلى عسكريتاريا نهابة وقاتلة.

نجح القيصر، الذي كان ضابطاً مجداً ومنظماً بارزاً، في إحلال النظام محل الفوضى، وأعاد للدولة وحدتها السياسية؛ مع أنه ضحّى في هذه الأثناء بحرية ورفاء الأفراد وأنشأ دولة قهرية.

اعتبر القيصر المسيحيين خطراً يجدر تخليص الإمبراطورية منه. فهل يتحقق ذلك عبر ملكوت متخيل، يقوم في مكان ما من العالم الآخر أو من عالمنا الأرضي، ليستمر طوال ألف عام بوصفه ملكوتاً إلهياً؟ لم تقبل روما هذا الحل، فإذا كان هناك من ملكوت فلا بد أن يكون ملكوت روما وأن يكون على الأرض، هنا والآن. مع إعادة تنظيمه وتقوية رأسه وأعضائه من جديد، كان على ملكوت روما أن يتم انقضاضاً ناجحاً على المسيحيين، الذين كان عنصرهم الهدام قد بدأ ينتشر في الجيش.

هكذا صدرت الأوامر بتدمير الكنائس والكتب المقدسة، وباعتقال المسيحيين، نبلاء كانوا أم عبيداً ووضعهم خارج القانون، وإجبارهم على تقديم الأضاحي للآلهة التي كانوا يعدّونها وثنية. بذلك تعاظم عدد الشهداء، وعدد من لم يستطيعوا الثبات في وجه الملاحقات فتنكروا لإيمانهم.

برز حاكم بيثينيا بتطرفه في أثناء المطاردات، وكان قد سوّغه بذرائع تنصب على مصالح الدولة العليا، وبأسباب استخلصها من فلسفة الأفلاطونية الجديدة،

التي رأى أتباعها في المسيحية مذهباً (بربرياً)؛ وأمدهم الفيلسوف بروفيريوس، المفكر الطليعي المتميز، بالحجج الضرورية لدكه دكاً. هل قرأ حاكم بيثينيا ذلك الفيلسوف؟ هذا ما لا نعرفه بدقة، وإن كنا نميل إلى الاعتقاد بذلك. أشار برفيريوس إلى تناقضات الأناجيل، ونقض «ترسيمة النبؤة / التحقق». وأثبت أن رؤيا دانيال كتبت في حكم الأنطاكي الرابع إبيفانِس، وليس على يد دانيال تاريخي. ونقد نقداً كاوياً بولس الرسول: «المهيج البغيض، السفسطائي، المتناقض، الكذوب والبربري» وسخر من تجسد الرب في يسوع (الرب الجنين!). وعدّ تصور خلق العالم وهلاكه متهافتاً. باختصار، رأى الرجل أن مذهب يسوع عبثي في مجمله، فلا عجب أن توجه الكنيسة جهودها فيما بعد نحو القضاء على مؤلفات برفيريوس. هكذا، امتلك حاكم ديوقليطيان أسلحة فكرية فعالة[18].

كان تجاوز هذه الأزمنة المليئة بالرعب مستحيلا دون قدر أعظمي من الشجاعة، وأمل يقوي الروح، ويقين يؤكد حتمية زوال مملكة الشر، وظهور ملكوت آخر سيمسح الرب فيه الدموع المتهاطلة من الأعين، لا وجود للموت فيه، وكذلك للحزن والصراخ والألم[19].

صمد المسيحيون للمحنة وتخطوها. ربما ساعدهم اعتقادهم أن المسيح سينتقم لهم ذات يوم، وسيثأر للعذابات الممضة التي كان عليهم تحملها، وللقتلى الكثيرين الذين كان عليهم بكاؤها. إن قدرة المرء على الانتقام من معذبيه، أو معرفته بأنهم سيتعرضون يوماً ما لما سبق أن تعرض له هو من عذابات، أو لما هو أفظع منه، هما أمل يجنّح الروح المعذبة ويهبها القوة.

عندما كان المسيحيون يقلبون صفحات كتب الرؤى أو الكتابات القريبة منها، كانوا يصلون إلى صفحات تشربت وارتوت بالدم، ويرون الإبادة حيثما يمموا وجوههم، إبادة البشر والحيوان والنبات والعالم بأسره. كانوا يعرفون طبعا أن من سيزول في النهاية هم الأشرار وحدهم أو الشر وحده، لأن زوالهم وزواله بالذات هما معنى القضية؛ لكن هذا الزوال كان يشبه في بعض الأحيان حملة انتقامية ينزل

خلالها الرب إلى الأرض تصحبه أرهاطه السماوية، فيكون أقرب إلى إله حرب منه إلى بشير سلام.

من غير الجائز تجاهل واقعة أن الفكر الألفي مشبع بالعنف، وإن بقيت طي الخفاء خلال فترة الانتقال من العصر القديم إلى العصر الوسيط. بهذا المعنى، نرى في وجود نزعة صريحة إلى العنف والانتقام لدى كوموديانوس: الكاتب المسيحي من القرن الخامس، استثناء للقاعدة. يعود المسيح، عند هذا الكاتب، إلى الأرض، لكنه لا يأتي على رأس جيوش سماوية، بل ليقود أخلاف أسباط إسرءيل العشرة البائدة، التي عاشت في أماكن بقيت خفية عن العالم، يؤلفون جماعة باركتها السماء، أفرادها أتقياء ومتعصبون ويخشون سفك الدماء، لا يعرفون الشهوات، أو الكذب والخداع؛ أو الحقد والشبق، فهم أصحاء بدنياً وروحياً، لا يعرف المرض سبيلاً إليهم أو يختطفهم الموت قبل انقضاء آجالهم. إنهم لا يأكلون غير النباتات بسبب خوفهم العظيم من سفك الدماء، الذي يمنعهم من قتل أي حيوان.

هذا «الشعب السماوي» من النباتيين آكلي العسل، الذي ما أن تراه المخلوقات حتى تهلل له، يتحول إلى وحش كاسر عندما يتعلق الأمر «بتحرير الأم الأسيرة» التي هي أورشليم. إنهم ينطلقون عندئذ كمحاربين جبابرة لا يقهرون، فينشرون الخوف والرعب عبر البلدان، ويزأرون كالأسود وهم يدمرون المواقع مخلفين وراءهم أخدوداً عريضاً من الدم والعنف. إنهم يذبحون شعوباً بأسرها ويدمرون مدنها. بل إن الرب سمح لهم بنهب الذهب والفضة؛ وهم يفعلون ذلك بينما تطلق حناجرهم أناشيد تمجده، هو الذي شملهم بهذا القدر من أفضاله. بسبب هذه الأرهاط من الجيوش، يجتاح الرعب حتى المسيح الدجال، فيفر مرعوباً نحو الشمال، ليعود بعد حين على رأس قواته. لكن جهوده تذهب هباء، لأن ملائكة الرب تهزمه وتلقي به إلى الجحيم، بينما يخدم رؤساء قومه الشعب السماوي المقدس كعبيد أذلاء. من هذه اللحظة، يسكن المنتصرون القدس إلى الأبد، حيث لا

يهرمون ولا يموتون، لا يعانون الحر والقر بل يتناسلون ويستأنفون الحياة السلمية القديمة للمنعمين الأوائل (رؤيا يوحنا 21:4).

تبارك هذه النظرة استخدام العنف المسلح في سبيل بزوغ الملكوت الألفي. أما ملاقاته وتسريع قدومه، على غرار ما فعله المكابيون، فهما مساعدة تقدم إلى الرب، وإسهام واع وهادف في زوال العالم القديم.

لن تخمد هذه الأصوات، وستتحد في تناغم جبار سيسمع بقوة في جوقة الألفيين؛ يعبر عن غضب اجتماعي وسياسي سيحدث التبدل الجذري، وسيحول الضحايا إلى فاعلين ناشطين. وإلى أن تبلغ الأمور منتهاها، سينقضي زمن طويل.

6) ملكوتان
الإنسان في الكنيسة والعالم

وقعت المعجزة في شهر تشرين الأول من عام (312 م) حين دخل قسطنطين روما لخوض معركة فاصلة ضد مناوئه مَكْسِنْتْيُوس يحسم بها الحرب الأهلية. كان ذلك القائد يقاتل بقوات أقل عدداً من قوات خصمه، وكادت فرص انتصاره أن تكون معدومة. عشية المعركة، وبينما الشمس تنحدر نحو المغيب لمح صليباً من نور مرتسماً على صفحة السماء، وقرأ كلمات تقول: «هذه علامة الانتصار!». حار قسطنطين وحار معه جنوده، ولم يعرف معنى لما رأى؛ وفي الليل، ظهر له يسوع في المنام حاملاً الصليب في يده، وطلب منه الاحتماء بصليب يرسمه على راياته.

بدأت الاشتباكات فدارت بين مد وجزر، وإن حافظ جيش مَكْسِنْتْيُوس على تفوقه؛ وكان مَكْسِنْتْيُوس نفسه في روما، حيث نظمت ألعاب سيرك على شرفه. أما قسطنطين فأمر برسم صلبان على تروس جنده، وتقدم بقوته المقاتلة نحو روما

ثم توقف عند جسر ميليفيا، والجيش المعادي يتقدم نحوه، والمعركة تشتد من لحظة لأخرى.

في هذه الأثناء، أخذ مواطنو روما يصيحون به: (لن تهزم قسطنطين). وكرروا هتافهم الذي كاد يوصل مَكْسِنْتيُوس إلى شفا الجنون، فاندفع إلى خارج السيرك وأمر بمراجعة، كتب النبوآت لمعرفة حقيقة ما يجري. بعد قليل، عادت إليه طمأنينته، فقد أخبرته النبؤة أن عدواً للرومان سيقتل هذا اليوم، فذهب مرتاح البال إلى ميدان المعركة.

ظهر القائد الأعلى والمعركة على أشدها. في هذه اللحظة تدخل الرب، فأصاب الذعر جيش مَكْسِنْتيُوس وسارع هو نفسه إلى الهرب، وهرع إلى الجسر الذي كان قد دمر جزئياً. انقضت جموع الهاربين في إثره، وألقت به إلى نهر التيبر، فانتهت الحرب الأهلية المرّة، واستقبل مجلس الشيوخ والشعب قسطنطين بفرح عظيم.

هذه النوادر التي نقلها إلينا لَكْتَانتيُوس وإيوزبيوس كتبها قلم مسيحي؛ لكن روما كانت سعيدة فعلاً بتخلصها من مَكْسِنْتيُوس المكروه، فأقامت قوس نصر لقسطنطين، الذي «انتقم للجماعة العامة من الطاغية وأتباعه، بأسلحة العدل وبوحي من الرب، وبعظمة فكره وجيشه. لذلك أقيم قوس النصر هذا إشارة إلى انتصاراته»[1]. بعد حرب عام (324 م) الأهلية، صار قسطنطين حاكماً أوحد للإمبراطورية، فأصدر في العام التالي لانتصاره مرسوماً دخل التاريخ تحت اسم: مرسوم ميلانو للتسامح (313 م) واعترفت الدولة فيه بالمسيحية ديناً.

كان قسطنطين طموحاً، سلطوياً ومتعجرفاً، أراد بدوره تخليد نفسه في الحجر، فأنشأ عام (330 م) القسطنطينية الجديدة من بيزنطة القديمة، لأن روما المتهاوية التي غدت محض خيال لعظمتها السالفة، لم تعد قادرة على الوفاء بمتطلباته، هو الذي كان يبحث عن بداية جديدة. أراد قسطنطين أن تكون روما الثانية مسيحية وعاصمة جديدة، فأمر بإشادة أبنية مهيبة فيها، ونقل التحف الفنية من بلاد الإغريق بأسرها إليها، وأضفى عليها الروعة والبهاء. بينما كان موقعها

على الحدود بين أوروبا وآسيا، في الوسط بين حدود الدانوب المهددة والفرات، يمنحها أهمية عظيمة. أخيراً، في عام (337 م) وبينما هو على فراش الموت، تلقى قسطنطين العماد.

من جانبه، منع تيودوثيوس عام (391 م) سائر العبادات غير المسيحية، وجعل المسيحية دين الدولة والإمبراطورية رومانية مسيحية؛ وبعد موت القيصر، قسمت أراضيها إلى إمبراطورية رومانية شرقية عاصمتها القسطنطينية، وأخرى غربية بقيت روما عاصمة لها. في هذه الأثناء، كان الهُون، شعب الخيالة المحاربين القادم من أعماق آسيا، يندفعون نحو الغرب، وقد ضموا إليهم الألانيون الإيرانيون، وأنزلوا هزيمة بالقوط الشرقيين. ذلك كان بداية ما عرف باسم عصر هجرة الشعوب، الذي تغلغلت خلاله جيوش الفرسان بقيادة آتّيلا في الغرب وبلغت فرنسا الحالية، حيث تم صدها في السهول القطلونية قرب طروادة عام (451 م) وإن لم تتم إبادتها. تمكن أتّيلا من الفرار ثم مات بعد عامين وانهارت مملكته. بدا الهُون بالنسبة إلى المسيحيين، المرة تلو الأخرى، كواحد من شعوب ياجوج وماجوج الرؤيوية، التي ستنشر الموت والفناء على البشرية بأسرها قبل نهاية العالم بقليل؛ وقد آمن هؤلاء أن جيوش الخيالة المرعبة تفوق في وحشيتها كل «ما قد كان المرء استطاع تصوره عن البربرية والوحشية. لقد شقوا وجنات أطفالهم الوليدين بأدوات حديدية أحدثت فيها ندوباً تمنع نمو شعر اللحية فيها، بينما كانت أجسامهم المربوعة ذات الأعضاء المفرطة القوة ورؤوسهم الكبيرة بالقياس إلى قاماتهم، تجعل منظرهم مرعباً . . . ثم إنهم لم يكونوا يستخدمون التوابل والنار لطهي طعامهم، الذي يتكون من جذور نباتات برية ولحم نيء يضعونه بين سروج خيولهم وظهورها ليصير قابلا للمضغ والابتلاع . . . ولأنهم يمتطون خيولهم ليل نهار، فانهم يفعلون كل شيء وهم فوقها: يأكلون ويشربون ويناموا ويحلمون، بينما أجسادهم محنية على أعناقها. . .»[2].

انخرط العالم في حركة دائبة، فبدأ الجرمان تأسيس سيطرتهم على الأرض

الرومانية، التي أخفقت الإمبراطورية في الدفاع عنها. واخترق القوط الغربيون بلاد الإغريق بأسرها تحت قيادة الملك ألاريش، ورسخوا وجودهم في صربيا قبل أن يتوغلوا إلى شمال إيطاليا، ويستولوا عام (410 م) على روما. توجه القوط الشرقيون، الذين تحولوا إلى حلفاء للقسطنطينية بعد طردهم على يد الهُون، نحو إيطاليا وهزموا بقيادة تيودوريش حاكمها أودوأكر، الضابط الجرماني الذي حكمها بالتفاهم مع القسطنطينية، بعد أن طرد رومولوس أغوستولوس من العرش عام (476 م). فر أودوأكر أمام تيودوريش إلى رافينا، لكن المدينة سقطت عام (493 م) فقتل على يد تيودوريش. على كل حال؛ فإن القيصرية الرومانية الغربية كانت قد زالت بالفعل مع (القُيصر) رومولوس.

تذكر غير المسيحيين من الرومان أساطيرهم القديمة، حتى في زمن ما قبل قسطنطين، يوم كانت الأزمنة مضطربة وخطرة. صحيح أن روما ستعيش حياة مديدة كما تقول إحدى الروايات، لكنها ستنطفئ ذات يوم. وقد شاهد رومولوس، وهو أحد مؤسسي روما، اثني عشر عقاباً على سطح الكابيتول، إشارة إلى أن المدينة ستبقى اثني عشر قرناً. في هذه الحسابات، كان يمكن التنبؤ بأن الإمبراطورية ستندثر في منتصف القرن الخامس الميلادي. هذا ما كان يمكن قراءته في كتب النبوآت التي كان ماكسيانثوس قد طلب مشورتها، فأعطته معلومة صحيحة أخطأ في تفسيرها. في ذلك الزمن، كانت روما قد شاخت وأمست نهايتها وشيكة حسب بعض النبؤآت.

ثمة أسطورة ثانية تحمل نظرة معاكسة تماماً، تقول إن روما ستستمر إلى الأبد، وإنها ستكون: «إمبراطورية لا نهاية لوجودها»؛ ستبقى لأنها ستجدد شبابها على عتبة شيخوختها وستزدهر من جديد وتستعيد عافيتها. هذا ما أكده القيصر أغسطس بدوره، «الذي مر فوقه إثنا عشر عقاباً، بينما كان يراقب طيران عصفور»[3] كما حدث لرومولوس ذات يوم، فرأى في مرورها إشارة إلى بدء دورة زمن جديدة. يعتقد بعضهم أن لمجرى التاريخ بداية ونهاية، ويقول آخرون إنه

يكرر نفسه. وقد وجدت كلتا وجهتي النظر هاتين تعبيرا عنها في احتفالات روما الطقسية وأعيادها.

أصيب المسيحيون الرومانيون بالقلق والاضطراب، فقد رأوا في جيوش الشعوب الوثنية التي كانت تتدفق عليهم ،نذيراً بالاندثار، واعتقدوا أن المسيح الدجال، هذا الكائن القميء من نهاية الزمن، هو الذي يعيث فساداً في الأرض لم يلعب أي دور في تحديد موقفهم أن القوط الغربيين قد كانوا اعتنقوا المسيحية في هذه الأثناء، بعد أن ترجم أولفيلاس الإنجيل إلى لغتهم ونشر مضمونه بين رفاقه في قبيلته.

ألمح هيلاريوس، أسقف بواتييه، إلى أن المسيح الدجال تجسد في قسطنطين الثاني (337 - 361 م) ابن قسطنطين العظيم، الذي كان قد أنهى حياته بقبول العماد، واعتقد الناس أنهم وضعوا يدهم على علامات أخرى تشير إلى ظهور الدجال منها اختفاء جثة القيصر فالنس، الذي سقط عام (378 م) في القتال ضد القوط، وظهور الرب في المنام لضابط من القسطنطينية يخبره بقراره تدمير المدينة؛ فلمّا شاع الخبر، احتاط القيصر والأسقف للأمر، وأمرا بإخلائها من سكانها. تلك كانت أوقات مرعبة، وكان من المؤكد أن رعبها سيزداد في المستقبل.

رأى أغُطسين، الذي كان في هيبو البعيدة في شمالي إفريقية، في زوال روما حافزاً على الكتابة. وتساءل عن معنى التاريخ، والأحداث، والوقائع. وهل تمثل رسالة المسيح تقدماً للتاريخ يتجلى في تطور أرقى للتمدن البشري. أم إن كل شيء يسير نحو الزوال في الكارثة الآتية.

وجد أغُطسين، بين أشياء أخرى، أن تاريخ العالم المتفائل لأويزبيوس من قيسارية (المتوفى عام 339 م) يجعل للتاريخ معنى واحداً هو اقتيَاد الإنسان نحو الرب، سيد التاريخ؛ فحين انتسب قسطنطين إلى المسيح، حدث هذا بفضل عناية إلهيه فعلت فعلها، جعلت إمبراطوريته تحققاً للنظام السماوي، حاكمها

هو نائب الرب والمسيح وأسقف الكنيسة الأكبر. بذلك، ربط أوزيبيوس بين الدولة والكنيسة وجعلهما شيئاً واحداً. إن الكنيسة، «التي عانت قبل سنوات قليلة أسوأ الملاحقات في حكم ديوقليطيان، تصير الآن القوة الحاملة للدولة». يقول أويزبيوس: «يستطع أي إنسان مؤمن ومتفهم التعرف إلى عملية التربية التي نظمها الرَب للعالم بواسطة كنيسة الإمبراطورية الرومانية»[4].

طرحت الأمور نفسها بطريقة مختلفة على أغُسطين. ذلك أمر أملته طبيعة الأشياء، إذ عايش أويزبيوس صعود الكنيسة في إمبراطورية وطدت نفسها من جديد بفضل قسطنطينَ، بينما شهد هو تفككها، عندما توفي عام (430 م) في هيبو، كان الونـدال قد بـدؤوا يحاصرون مدينته الأسقفية.

فهم أغُسطين تاريخ العالم صراعاً بين مملكتين: مملكة الرب الحقيقية غير القابلة أبداً للتدمير (مدينة الرب) والمملكة الأرضية الغارقة في الإثم والخطيئة (المدينة الأرضية أو مدينة الشيطان). تداخلت هاتان المملكتان بعضهما ببعض في أثناء الصراع، وصار مستحيلاً الفصل بينهما قبل نهاية الأزمنة أو يوم الدينونة، حين سيتضح بصورة نهائية من انتمى إلى مدينة الرب أو مدينة الشيطان. إلى أن يحدث هذا، سيتعرض الجديرون بمملكة الرب إلى محن شديدة القصد منها دفعهم إلى ارتكاب المعاصي. ويسمح الرب بحدوث هذا النوع من الضغط، كي يعدّ الإنسان للعيش في مملكته. غير إن امتلاء التاريخ بالمحن دون غيرها لا يعني أن الرب لا ينجز أمره، فهو ينجزه وإن بطريقة تختلف عن طريقة سعي الإنسان نحو السعادة؛ .فضلاً عن أن العالم يتكون من الشر، الذي يجب أن يأخذه الإنسان دوما بالحسبان، لأنه مسؤول عنه.

قال أغُسطين: «إن الرب، المالك الأصلي للطبائع وليس للعيوب، خلق الإنسان على خير وجه. لكن هذا أفسد نفسه بخطيئته الخاصة؛ فاستحق اللعنة وأنجب فاسدين وملعونين . . . هكذا نشأت عن سوء استعمال الإرادة الحرة سلسلة كاملة من المحن، سيقيض لها أن تقود الجنس البشري، وسط شقاء لا

ينقطع . . . إلى الاندثار النهائي في الموت الثاني، يستثنى من ذلك أولئك الذين أنعم الرب عليهم بالخلاص»[5].

إن معنى الحدث، الذي يبدو بلا معنى، يكمن بالنسبة إلى أغُسطين في تأثيم الإنسان، الذي يجب أن يحتمل المصائب والبلايا عن طيب خاطر، كي تتاح له المشاركة في ملكوت الرب.

ليس هناك إذاً مدينة واحدة تتحد فيها الدولة والكنيسة، كما قال أويزبيوس. بل هناك مدينتان: إلهية ودنيوية؛ وتجسد الكنيسة على الأرض ملكوتَ الرب الآتي، ويكون لها زمنها الخاص لأن الرب وليس الإنسان هو من يضع المقاييس. نجح أغُسطين في فك الكنيسة عن الإمبراطورية الرومانية، وضمن لها وجوداً مستقلاً وخاصاً بها. ومهما كان المصير الذي ينتظر المدينة الأرضية، كاندثارها المحتمل، فإنها لن تستطيع إغراق الكنيسة معها. هذا هو الوجه السياسي المؤكد للتأملات الأغُسطينية.

يندرج إيمان أغُسطين بكون الكنيسة هي «ملكوت المسيح ومملكة السماء»[6] في الإطار اللاهوتي، ويوقف على رأسه كل ما كانت المسيحية قد آمنت به حتى ذلك الوقت حول الملكوت، لأنه حوّل الملكوت: «من موضوع للأمل إلى موضوع للتملك، وأفقد الشوق إلى الملكوت الألفي سحره المغري»[7].

إذا كان ما ننتظره بلهفة قد حدث وانتهى أمره، فإن الأمل فيه يذوي ويموت. فليس ما نعلق عليه آمالنا، بعدُ، لأنه سبق أن تحقق. يبقى انتظار مستقبل سعيد الروح في حالة توتر، ويعطي للإيمان اتجاهاً وقصداً، فإن تحقق القصد انخفض التوتر. لمّا أحل أغُسطين الكنيسة محل ملكوت الرب المرتجى، وجّه الإيمان نحو مؤسسة، قدم له، بهذا المعنى، خدمة مشكوكا بأمرها إلى أبعد حد.

لا يؤمن الإنسان بمؤسسة، بما في ذلك مؤسسة الكنيسة، إذا لم يستمد ممثلوها شرعيتهم من قوى علوية، ولم يلبسوها هالة قداسات متعالية، مثلما حدث لدى

تكريس البابوية. فقد اشتق البابوات سلطتهم أول الأمر من السلطة التي زعموا أن يسوع المسيح منحها إياهم. ثم اعتبروا أنفسهم في أزمنة لاحقة نواباً له على الأرض، يقولون ما يقولونه باسمه.

ماهى أغُسطين ملكوت الرب مع الكنيسة، فقوّى بطريقة، غير مسبوقة، وعيها لذاتها، وجعلها قوامة على الإيمان بما هي ملكوت الرب، وقال باستحالة وجود أي خلاص خارجها، «لا خلاص خارج الكنيسة» ورأى في أي نقد لعقيدتها هرطقة غير محتملة. جعل أغُسطين الكنيسة أسطورة ومكاناً للملكوت الإلهي، تستمد منه ألقها وقدرتها على الإشعاع، «وكانت ستنطفئ من دونه»[8].

قد يصاب الإيمان بالشك، بل باليأس، أما الأسطورة فلا تشك، وفي حين يقدم اللاهوت تفسيرات وتأويلات للإيمان، تقدم الأسطورة له اليقين، حتى ليمكننا القول: «إن هدف الأسطورة هو إنجاب الإيمان»[9]. وعندما يفسر أغُسطين أحداث العالم بالصراع بين ملكوتين، فان امتلاءها بالمعنى يكون مصدره عندئذ فعل الرب، أي الأسطورة.

منذ أغُسطين، تكونت الإمبراطورية المسيحية الرومانية من ملكوتين: ملكوت الرب، وملكوت العالم، ومركزه القسطنطينية. أقلعت روما عن أن تكون قوة سياسية عقب رحيل رومولوس أوغوستولوس الطوعي عنها. وتنامت بالمقابل إلى مركز للكنيسة حتى صار لأسقفها سلطة مقررة، خاصة أنه لم يكن هناك قوّام روماني على الكنيسة في زمن قسطنطين. وكان من منطق الأشياء أن يعجل ترؤس القيصر لها أيضاً بروز خصوم له من صفوفها.

كان ليون الأول، الكبير، تسلم مهام منصبه بين عامي (440 و 461 م) أول أمير كنيسة روماني يطالب صراحة بإعطاء القيادة لروما. وقد سوّغ بطريقة قاطعة لماذا يجب أن تكون له الأولوية بصفته أسقف المدينة. حسب أقواله: زود المسيح بطرس بكامل سلطته، فرفعه بذلك فوق تلامذته الآخرين. ولأن أسقف روما

يجلس على كرسي بطرس، فإنه يجب أن يكون خليفته الذي يرتفع بدوره فوق جميع الأساقفة، ويعمل لخير الكنيسة بأسرها. وهذا ما صار عليه الأمر إلى اليوم. أما لقب «بابا» الشرفي، فكان بالأصل وقفاً على كبار رجال دين الإمبراطورية الشرقية، ثم استأثر به أساقفة روما في القرن الخامس الميلادي.

انطبع العصر الوسيط بأكمله بالصراع بين البابا والقيصر، الذي استمر إلى أن فقد الجانبان سلطتهما التقريرية. وربطت الإمبراطورية الرومانية نفسها بالمسيحية وتحولت إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة. ثم تداخلت فكرة قيصر روما الغربية مع الملكية الألمانية، لتتحول إلى قيصرية ألمانية اعتبرت نفسها خليفة شرعية للإمبراطورية، التي طمحت، شأنها في ذلك شأن المسيحية، إلى الأبدية، وكانت مثلها من طبيعة كونية. ومن جانبها، أسمت روما نفسها منذ وقت طويل، أي منذ زمن أُغسطين، «روما الخالدة». بذلك، كان على جميع الأحداث أن تتعين، من الآن وإلى نهاية الأزمنة، كأحداث مسيحية رومانية.

في هذه العلاقة، صار من واجب الإمبراطورية حماية المسيحية من الأعداء الداخليين والخارجيين، ونشر الإيمان بين الشعوب، وقيادة الإنسان بسلام وعدل إلى هدفه السماوي. لقد غدا القيصر مسؤولاً عن هذه الشؤون الدنيوية، فكان من الحتمي أن يحاط بهالة رفيعة من القداسة المسيحية/ الكنسية، ويمجد ويقدس كملك وكاهن في آن معاً، ووسيط بين السماء والأرض. ولم تعد القيصرية ضامنة وحسب وحدة الإمبراطورية السياسية، «بل صارت في الوقت نفسه الحامل العظيم لوحدة الكنيسة الدينية، المحيطة بكل شيء والملزمة للجميع، والمتفردة بالقدرة على منح الخلاص»[10]. إن أي هجوم يستهدف القيصر هو تدنيس للمقدسات. لكن ثمة حامل آخر للكنيسة هو البابوية، التي تشارك القيصرية السيطرة على العالم، «فتتدامجان بنعمة سر إلهي، وتعملان سوية في وحدة حب أبدي»[11].

اختلفت الحقيقة أشد الاختلاف عن هذه الصورة الزاهية. وكان وقوع الصدام بين القيصرية والبابوية حتمياً في ظل هذه التوليفة، وزاد من إمكانية

حدوثه تجسده في رجلين هما: القيصر هنري الرابع والبابا غريغور السابع، حاكما الإمبراطورية النزّاعان كلاهما إلى السلطة، والعاملان، كل بمفرده، على توسيع سلطته، واللذان دخل صراعهما التاريخ تحت اسم «نزاع الصلاحيات» في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، وتحول إلى صراع هائل حول النظام الحق في هذا العالم؛ حمل سمات رؤيوية في وعي الناس، بسبب المواجهة بين القيصر والبابا وتصارع القوى المسيحية.

كانت الكنيسة قد استردت وعيها وأخذت تصلح نفسها، عقب حقبة دهرنة مشؤومة، فكان لا بد أول الأمر من جعل القيصر يتنازل عن حقه في تعيين شاغلي المناصب الكنسية وصولا إلى رئيس الأساقفة، ومن منع تداول هذه المناصب بيعاً وشراءً، وحظر الاستماع إلى صلوات يقيمها كهنة متزوجون، وحظر زواج الكهنة بوجه عام، لأن الحياة والمهام الدنيوية يجب أن تكون محرمة مستقبلا على رجال الدين.

وضع غريغور السابع هذه الأسس بطريقة تنم عن العجرفة وقرر: «أن الرب هو الذي أسس الكنيسة الرومانية . . . وأن على جميع الأمراء تقبيل أقدام البابا وحده، دون الخلق جميعاً . . . وأن من حق البابا إقالة القيصر . . . وإعفاء الرعايا من الالتزام بقسم الولاء للحكام الظالمين»[12]. ولم يكن قد سبق للعالم أن سمع من قبل لغة كهذه يعطي البابا نفسه فيها حق السيطرة على العالم، ويضع القيصر تحت تصرفه ويجعله تابعاً له.

رد هنري الرابع الضربة على الفور: « . . . أنكر عليك أي حق يبدو أنك امتلكته حتى الآن بفضل البابوية. وآمرك أن تنزل عن عرشها بحكم رئاستي لمدينة روما، التي أعطانيها الرب وأقسم شعبها على تأييدها»[13].

رد غريغور بحرْم القيصر وإعفاء رعاياه من قسم الولاء له؛ ،فبلغت الأزمة ذروتها. عندئذ، أجبر الأمراء الذين شاركوا غريغور لعبته، هنري الرابع على طلب غفران البابا. وقد صار حجه إلى كانوسا (عام 1077 م) شهيراً، وأدى

إلى فك الحرمان عنه. غير أن علاقات الرجلين السياسية لم تعرف الهدوء، بعد أن وقع بينهما شيء فظيع وصارع ملكوت ضد ملكوت. وأخذ السيفان، اللذان كان لوقا الإنجيلي قد تحدث عنهما وقال إن القيصر يحمل أحدهما والبابا الآخر، يتقاتلان عوض أن يقاتلا مجتمعين من أجل أسمى هدف: إقامة ملكوت الرب. لقد أعطاهما الرب الأسلحة، وها هما الآن يدنسانها.

نستطيع إلقاء نظرة شاملة على التعقيدات السياسية والكنسية للأحداث، كما نستطيع تحديد أسبابها، بفضل البعد الزمني الكبير الذي يفصلنا عن تلك الحقبة. وقف معاصرو ذلك الصراع حائرين حياله، ونظروا عاجزين إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية المقدسة ضحية تنازع القوتين الكونيتين. بعد برهة من ذلك، كتب أوتو فون فرينسينغ، الأسقف والمؤرخ الموالي للقيصر، يصف موقفه: «لا شك في أنها، يقصد الكنيسة، أصابت الإمبراطورية، التي كانت على شفا نهايتها، صلبة بفضل حروبها، وهشّة بسبب أوضاعها، في أضعف أجزائها: الذي هو الملك الروماني . . . باختصار: إن عاصفة هذه الأيام تجلب معها الكثير من البلاء والانقسامات والأخطار على أجسادنا وأرواحنا . . . بهذا الانقلاب فائق الأهمية، انعطف الزمن من الاكتمال إلى الاندثار. . .»[14].

تكون الثنائي الثاني الذي أملى التاريخ من فريدريش الثاني من هوهنشتاوفِن والبابا غريغور الرابع وإنوسِنس الخامس. ولما اصطدم هذان، كانت قد مرت مئتا عام على عصر هنري، وانتمى الصراع، وكان الأخير بين هاتين السلطتين الكبيرتين، إلى عصر آخر، دون أن يكون أقل دوياً وحدّة من سابقه، خاصة أنه دار هذه المرة أيضاً حول السيطرة في الغرب وحمل طابعاً رؤيوياً، وإن اقتصر على إيطاليا، وأوصل طرفيه إلى ميدان الحرب.

كان هنري الرابع، والد فريدريش وزوج كونستانس ابنة الملك النورماني/ الصقلي، قد احتل مملكة النورمان في صقلية، حيث ترعرع الابن متعدد المواهب

وصار له وطن. وكانت ألمانيا قد شهدت صراعات على العرش بعد موت هنري الرابع عام (1197 م) لكن فريدريش نجح في تولي الملك، وأخذ يعمل لإعادة ترسيخ إمبراطورية أبيه العالمية المهددة بالتفكك. وقد سعى لتحقيق هدفه منطلقاً من صقلية، التي كان يحكمها بطريقة مطلقة لا ينازعه فيها أمراء الإمبراطورية الأنانيون. كان نجاح ذلك المخطط يشكل خطراً على دولة الكنيسة، التي كانت ستحصر عندئذ بين صقلية والإمبراطورية الألمانية.

حاول فريدريش الثاني ربط مملكتيه بعضهما ببعض أرضياً على حساب دولة الكنيسة. وحاول البابا منعه من ذلك، فكان نشوب الحرب بينهما محتوماً؛ فلما تعذر اشتراك فريدريش الثاني في الحملة الصليبية عام (1227 م) لأن وباء أباد نصف جيشه، حرمه البابا غريغور الرابع، رغم أنه أرجأ الحملة لعام واحد فقط وقصد الديار المقدسة في العام التالي إلى الأراضي المقدسة (1228 م) ضمن حملة صليبية جديدة هي الخامسة. جعلت الديبلوماسية البارعة التي أدارها بالدرجة الأولى هيرمان فون سالزا، كبير معلمي الأخوية الألمانية، جعلت المسلمين يتنازلون عن مدن القدس وبيت لحم والناصرة المقدسة وطرق اتصالها بالبحر، ويسلمونها إلى فريدريش، الذي أعلن نفسه ملكاً على القدس، فرأت البابوية في خطوته تظاهرة وقحة للقوة، وعدّت الصلوات التي أوعز بتلاوتها في هذه المناسبة الاحتفالية استفزازاً فظيعاً لها، لأن فريدريش كان مايزال تحت حرم كنسي. وقد نجح هيرمان فون سالزا في إقناع سيده بالتخلي عن الصلوات.

ورفع النجاح في فلسطين مقام القيصر في العالم بأسره، وأجبر البابا على رفع الحرْم عنه. فما كان منه إلا أن أخضع مدن شمال إيطاليا اللومباردية، ليقترب بذلك مسافة أخرى من تحقيق أهدافه السياسية، وينقل حدود الإمبراطورية إلى حدود دولة الكنيسة. فرض البابا إنوسِنس الرابع، خليفة غريغور الرابع، الحرْم عليه من جديد، ثم أعفاه عام (1245 م) من منصبه كقيصر. وقد كان اتهمه بالحنث بقسمه، واعتبره هرطوقاً يلاحق الكنيسة، ومزعزعاً للسلام وطاغية. رد

القيصر، الواعي بقوته والحازم، على تدبير البابا قائلاً: «لقد جعل صبري الشديد مني سنداناً. لكنني سأصير منذ اللحظة مطرقة». كان القتال مازال مستمراً هنا وهناك، عندما مات القيصر عام (1250 م) في أبوليا على نهر الرور، في السادسة والخمسين من العمر.

لو أن صراع القوتين الكونيتين افتقر إلى سمات رؤيوية، لما تجاوز الإطار العادي. استخدم البابا غريغور الرابع التصورات الرؤيوية سلاحاً، لأنه كان الجانب الأضعف عسكرياً. فهل كان يعتقد فعلاً بما كان ديوانه يحوكه. فقد جرى تلاعب واسع ومقصود بالرأي العام، وتمكنت رميات الكنيسة من النمو في التربة الألفية للعصر، وخالطت جلبة المعارك أصوات رؤيوية مجلجلة.

عدّ غريغور فريدريش عدواً للكنيسة، وشوه سمعته بأن اتهمه بالهرطقة. هذا كله كان قابلاً للاحتمال. غير أن البابا لم يقف عند هذا الحد، بل زعم أن القيصر (سوط الشعوب) شخص يتجسد فيه مسخ النبوؤة الرؤيوية، وعلامة على قرب قدوم المسيح الدجال إن لم يكن هو المسيح الدجال ذاته، الذي خطّأ المؤمنين بالولادة العذرية لابن الرب. اخترعت الدعاوة البابوية كذلك أساطير حول بلاطه الشرقي، حيث يخدم العرب المسلمون، أو العرب الوثنيون، قيصراً مسيحياً كاثوليكياً. هكذا قدم الإيمان مادة مخصصة لذوي السرائر البسيطة، أرادت لهم أن يروا في القيصر كائناً تلبّسه الشيطان، وكائناً رهيباً وملعوناً ديدنه الفساد، كما تقول نشرة صدرت في عام وفاته سنة (1250 م). لقد أفسد القيصر الكرة الأرضية بأسرها، فهو منشق وهرطوق وأبيقوري . . . و«لو كان مسيحياً جيداً يحب الرب والكنيسة وروحه، لكان أمثاله قلة بين الأحياء في الإمبراطورية»[15].

ودأب القيصر على مقاومة هذه التلفيقات، وأكد مراراً وتكراراً ولاءه للكنيسة. لكن آراء معاصريه تباينت حوله. بعد انهيار الإمبراطورية عقب وفاته بزمن غير طويل: «وبداية زمن ليس فيه قيصر، زمن مخيف» تاق الناس إلى رجل

قوي يستطيع لململة أجزاء الإمبراطورية المتناثرة والغارقة في الفوضى، والعمل لصيانة السلام.

حين أعلنت وفاة فريدريش الثاني، شاع أنه لم يمت بل آثر الاختفاء لبعض الوقت. وقد استغل مخادعون كثيرون هذا الحنين الشعبي إليه، وزعموا أنهم «فريدريش». ضرب الإيمان بعودة القيصر بجذوره في الشعب، ثم انتقل في النهاية، بأية طريقة. هذا ما لا يعرفه أحد، إلى جده فريدريش الأول برباروسا، الراقد منذ تلك الأيام البعيدة في مغارة على ظهر جبل، لكنه يستيقظ مرة كل مئة عام ليسأل قزماً إن كانت الغربان مازالت تحوم فوق الجبل، ثم يعود من جديد إلى النوم، ما أن يقول القزم: إنها مازالت تفعل ذلك. ولأنه مازال نائماً اليوم، فإن الغرب ما فتئ ينتظر بدوره السلام والعدل.

نعود الآن إلى القرن الحادي عشر، الذي غرق العالم خلاله في اضطراب عظيم. لو أردنا، لاعتبرنا صراع الملكوت ضد الملكوت استمراراً في أعلى المستويات لفظاعات العصر ولأحداث سرية رهيبة تعلن زمن النهاية. كان القرن الحادي عشر قرناً مضطرباً أشد الاضطراب من الداخل، أعقب القرن العاشر المليء بالمحن، الذي خشي أناسه أن تبدأ سيطرة الشيطان فيه، وفزعوا من الكارثة التي ستلقي بالإنسان والعالم إلى الهاوية.

وجدت على الدوام أزمنة تسكع البشر فيه كالمجانين، ردوا خلالها على المخاطر باعتداءات وانفجارات مختلفة الأشكال والأنواع، بينها الحروب؛ أو انكفؤوا على أنفسهم بصمت، وأغرقوا أنفسهم في الصلاة والتأمل، لاعتقادهم أنها تساعدهم على الثبات في وجه النوازل التي قد تحل بهم. في أزمنة كهذه، تغيب تفسيرات الفكر العقلاني، ويستعصي التقصي الدؤوب. رأى الإنسان نفسه منضوياً في الحياة الأرضية، فتطلع إلى السماء. وعاش في الواقع، فأراد التيقن من وجود حقائق صلبة لا تقبل الكسر، فكان الرب الحقيقة التي كتبت كلمتها في الكتاب، وجعلتها متاحة لكل إنسان يستطيع القراءة أو الإصغاء إلى الوعظ.

بقيت بعض الكلمات والترابطات غامضة وعصية على الفهم من المحاولة الأولى، واحتاجت إلى تأويل يشرحها ويفسرها. ونذر عدد غير محدود من رجال الكنيسة أنفسهم لمهمة محددة هي متح الحقيقة من الكلمات، فاكتسبوا دربة عظيمة في ذلك، وخاصة منهم السكولاستيكيون: المدرسيون.

مَنْ يُفَسّر يُدلي، في الوقت نفسه، برأي، تتشابك فيه خبرته الحياتية وإرادته وأهدافه ورغباته ونياته. وعندما توافق آراؤه آراء الآخرين، وتطابق خبرته الحياتية خبراتهم وقناعاتهم، فإنها تصير عامة وملزمة. وقد أنجز أغُسطين أمراً كهذا، لما حّول الأمل بملكوت إلهي أرضي ألفي إلى الكنيسة، التي قال إنه يتجسد فيها. كانت تلك حقيقة أغُسطين، حقيقته وحده وحقيقة أولئك الذين يقاسمونه اقتناعه. منذئذ، صار على رجال الدين العمل لطرد النزعة الألفية، المدانة بوصفها هرطقة، من عقول الناس.

لكن حقيقة الناس كانت مختلفة عن ذلك في حالات كثيرة. فقد قرؤوا في الكتب عن ملكوت إلهي، يقوم طوال ألف عام على الأرض، ويقيد فيه الشيطان. ولم يجدوا، بالمقابل، أي شيء عن الكنيسة. لا عجب إذاً أن عامل بعض رجال الفكر رجال الكنيسة باحترام، ورفضوا في الوقت نفسه مشاركتهم آراءهم، أو الإقتداء بهم في هذه النقطة أو تلك. ينطبق هذا بصورة أكبر، كما نعتقد، على اللاهوتيين الهواة. ليس القول بانتماء الكنيسة في وقت واحد إلى هذا العالم والعالم الآخر سوى تركيب فكري يصعب التأكد من صحته: فليفهم هذا من يقدر على فهمه أو من يرغب فيه!

كان الملكوت المنتظر حقيقة يؤكد الواقع قرب حدوثها، وإن رأى أغُسطين في السنوات الألف «امتلاء الزمن» وليس زمن التقويم العادي، بذلك نعود إلى رؤية الأمر انطلاقاً من زاوية تحتية شعبية، تختلط فيها الآمال والتوقعات والتصورات اختلاطاً شديداً وعصياً على التوضيح. فكيف بدت الحقيقة؟ قد بدت مرعبة، موحشة ومخيفة، تجعل الدماء تجمد في العروق.

تعاظمت حملات الفايكنغ من جديد في نهاية القرن العاشر، وخرجت قوارب التنين المرعبة المرة تلو الأخرى من ضباب الشواطئ الإنجليزية، فرأى أسقف يورك فولفستان فيها بداية العمل المهلك الذي يقوم به المسيح الدجال. كانت فرنسا تعيش في الجوع والفوضى بعد أن دمرها النبلاء بمؤامراتهم، وكان السلام ضرورياً لها. وكانت كتل هائلة من البشر تتجمع في العراء لعبادة الرقى وترقب المعجزات: «لما كان العالم يسير نحو نهايته، والناس تعيش فترة أقصر، فقد أخذ طمع رهيب يتآكلهم ويحرق نفوسهم، وشرعوا ينهبون الكنائس والأديرة، ويحنثون بيمينهم، ويقتل بعضهم بعضاً. بالمقابل، أشارت أوضاع الكنيسة المنحطة، ونزعتها إلى عقد صفقات دنيوية، وعاداتها الفاسدة، إلى قرب وقوع الاندثار والكارثة، وجعلت من الضروري قيام البابوات بإصلاحات قاسية».

كتب الراهب البرغوندي رودلف غلابر، أعظم مؤرخي هذه العقود، وإن كان علم التاريخ لا يعدّ كتاباته جديرة بالتصديق، عن الحرائق في غاليا وإيطاليا، حيث «سويت روما نفسها بالأرض، والتجأ الشعب الخائف حتى الموت إلى أمير الرسل» كي يعترف بذنوبه؛ «بينما طاف الزنادقة في سردينيا طولاً وعرضاً». يتفق هذا مع نبوءة القديس يوحنا، التي أكدت أن الشيطان «سيفك قيوده بعد ألف عام» علماً بأنه كان من الممكن مصادفة الزنادقة في أماكن أخرى غير سردينيا، لأنهم كانوا في كل مكان. يقول أحد المراجع «إنهم يلتقون ليلاً في بيت محدد وبيد كل منهم مصباح. ويتغنون بأسماء الشيطان إلى أن يظهر فجأة بينهم في صورة حيوان». ويضيف: «في الأيام الأخيرة، مات حب الأقربين وأينع الشر».

عندما أراد رهبان لوثريون الاحتفال بعيد الفصح عام (1000 م) زلزلت الأرض زلزالها وظهر بعد حين مذنب بقي مرئياً طوال أشهر ثلاثة على صفحة السماء: «بدا مضيئاً إلى درجة أن نوره ظهر وكأنه يملأ القسم الأكبر من السماء، ثم اختفى عند صياح الديك»[16].

زلازل وهزات أرضية، هجمات الفايكنغ، مجاعات، حرائق، فيضانات،

جفاف، تعزيات شيطانية . . . الخ. ليس مهماً إن كانت تفاصيل التقارير تتفق مع الواقع، المهم أن الناس آمنوا بها، وأننا نصادف دائما السيناريو الرؤيوي ذاته، الذي لا نعتبره رؤيوياً إلا لأنه قال بزوال العالم عام (1000 م).

هل صدق الناس؟ هل كانت الأحداث نذر النهاية؟ نعم. فقد كانت كذلك، وكان عليها أن تكون كذلك، ولأن أي تفسير آخر كان مستحيلاً. كان الاندثار وشيكاً لأن الزمن امتلأ ولأن زوال العالم ضروري لظهور ملكوت الرب الأبدي. سيزول العالم كي يستطيع المسيح إقامة ملكوته على الأرض والحكم مع القديسين، طوال ألف عام نكاية بأُغسطين. ألا يمكن لآباء الكنيسة أن يتوهوا بدورهم في دروب الضلال، عند البحث عن الحقيقة؟! أم تراهم لا يتوهون؟ لم يحدث أي شيء في الواقع. وبقي العالم على حاله دون أن يمسه سوء، ولم تنشق السماء. لقد تبين أن نبوءات منعطف القرن كانت غير صحيحة. غير أنه كان لحسن الحظ: «رجال كثيرون تمتعوا بفكر نفاذ، رأوا نذراً أخرى، عظيمة بالقدر نفسه، لآلام السيد آتية مع الملكوت الألفي المقترب، وقالوا إن مثل هذه المعجزات ستفصح عن نفسها قريبا»[17]. إن العودة الألفية لسنة الموت، الموافقة لعام (1033 م) تحل هنا محل عام المولد.

توجهت مواكب حجاج لم يسبق لأحد أن رأى مثيلاً لها على طريق مليء بالأخطار نحو المدينة المقدسة، مكان موت السيد. وأوصل كسوف الشمس في هذا العام (1033 م) «اضطراب وجزع الأفئدة إلى ذروته، لأن كل الذين راقبوا الظاهرة آمنوا في الوقت نفسه أنه لا عمل لها غير الإعداد للنهاية»[18].

لكن الرب لم يكن يعد للنهاية، فأطلق الراهب رودلف غلابر تنهيدة ارتياح: «عندما بدأت الغيوم والسماء المضيئة تضحك بمناسبة الذكرى الألفية ليوم آلام سيدنا، وهبّت نسائم لطيفة». ونظم أساقفة ورؤساء أديرة أكيتان الفرنسية تجمعاً شعبياً تدفق الناس إليه بفرح، يحدوهم الاستعداد: «لإطاعة توجيهات رعاة الكنيسة» لأنهم كانوا جميعهم تحت تأثير المحن السابقة وخشوا الضياع المستقبلي

للوفرة. مثّل عدم وقوع الاندثار خيبة أمل مرّة بالنسبة إلى الألفيين، الذين كانوا يفضلون نهاية مرعبة على رعب بلا نهاية. وإن كنا نميل إلى الظن أن هؤلاء تنفسوا بدورهم الصعداء، مرة أخرى.

برز الطابع الحربي للمسيحية، وخاصة في تلوينها الألفي، بروزاً جلياً في القرن الحادي عشر، وتمحور على الإسلام، الذي أخذ الصراع ضده بعداً رؤيوياً. عندما تقدم محمد في أواخر القرن السادس بالدين الجديد إلى العالم، أصاب المسيحية الارتباك والحيرة. قال محمد إن المسيح نبي، بشير، كما يقال، وإنه هو نفسه خاتم الأنبياء. وقال إن لا إله إلا الله، وإن الله لا يقبل التقسيم إلى ثلاثة: أب وابن وروح قدس، وإن في هذا التقسيم تعدد آلهة.

تصاعد الارتباك إلى رعب صريح بسبب سرعة انتشار الإسلام في العالم، بفضل الحملات السلمية، والفرسان الذين يمتشقون السيف، ويمتطون جياداً سريعة كالريح، تحمل راية النبي. كان المسلمون يخوضون حرباً مقدسة (الجهاد) إطاعة لأوامر نبي وعدهم بجنة «تحت ظلال السيوف».

انطلقت جيوش المسلمين من الجزيرة العربية إلى سورية، فالقسم الغربي من شمالي إفريقية، ثم عبرت مضيق جبل طارق ودخلت إسبانيا، حيث استولت، دون مشقة، على عرش القوط الغربيين وقضت عليه، قبل أن تقف بعد ثمانية أعوام عند جبال البيرنيه، وتتوغل في مملكة الفرنجة، حيث تمكن شارل مارتِل، المطرقة، من وقف زحفهم عند تور وبواتييه، وأنزل بهم هزيمة أجبرتهم على التراجع إلى شبه جزيرة إيبيريا، ليقيموا فيها سيطرة دائمة استبعد منها شمالي إسبانيا.

عرف المسيحيون على كره منهم أن المور، وهو لقب أطلقوه على العرب والمسلمين، شعب متحضر، مثقف ومتمدن رغم مؤهلاته الحربية. بينما تكون الشمال الأسباني المسيحي من ممالك صغيرة بربرية، لم تكن بالمقارنة مع خليفة قرطبة القدير ورفيع الثقافة شيئاً مختلفاً عما كانته بالأمس العشائر المراكشية

بالنسبة إلى رئيس الجمهورية الفرنسية[19].

تحولت إسبانيا الإسلامية أو الأندلس إلى شيء ضروري للغرب، لم تمتلك أوروبا المسيحية مثيلاً لأنبيائه، وعلماء فلكه، ورياضييه، وصوفييه، وشعرائه ومؤرخيه. وقد كان لدى حاكم دولة مورية صغيرة: «وهو صورة عن غوته إسلامي في مدينة فايمار أسبانيّة أربعون ألف كتاب في مكتبته، بينما كانت مكتبة دير ريبول الشهيرة تتبجح بما تمتلكه من كتب، رغم أن عددها لم يتجاوز مئة واثنين وتسعين كتاباً»[20].

نزلت المسيحية إلى المعركة ضد هؤلاء (الوثنيين) كما وصفهم توما الإقويني، في إسبانيا أولاً ثم في فلسطين قرب نهاية القرن الحادي عشر، حين دقت طبول الحملة الصليبية الأولى عام (1096 - 1099 م). بذلك، دخل أبناء الرب مرة أخرى المعركة ضد «مسيح الرؤيا الدجال!».

مارس فن الموريين وعلمهم وثقافتهم قدراً هائلاً من الجاذبية حتى على المسيحيين المؤمنين. بينما تساءل الأقل إيماناً منهم إن كان سيسمح لهم ذات يوم بالزواج من فتاة مورية نضرة، لم يكن العرب يمانعون في التزوج بها. أخيراً، كان ضعاف الإيمان راغبين في امتلاك زوجات عديدات، الأمر الذي كان ممكناً بدوره. يقول خبر من عام (1311 م) إن عدد سكان غرناطة بلغ مئتي ألف نسمة، (جميعهم، عدا 500 شخص) سليل مسيحيين اعتنقوا الإسلام[21]. هذه الأرقام قد لا تكون دقيقة بالضرورة، لكن ذلك لا ينتقص من قيمتها كدليل على الجاذبية التي مارسها الإسلام وقتذاك.

لم تكن نادرة الحالات التي احتفل فيها المسلمون بعيد مسيحي، والمسيحيون بعيد إسلامي، أو استخدموا المبنى نفسه كنيسة تارة ومسجداً تارة أخرى. كما فتحت الخلافة أبوابها على مصراعيها أمام الزائرين والطلبة الأجانب، القادمين من أوروبا المسيحية. وإننا لنتذكر شكوى أرثوذكس اليهود زمن الهلينة، عندما

نقرأ تشكيات راهب مسيحي: «ياويلتاه، إن أكثر المسيحيين الشبان موهبة لا يعرفون لهم أدباً ولغة غير العربية. إنهم يقرؤون ويدرسون بنهم الكتب العربية، وينفقون كثيراً من المال ليحصلوا على مكتبات كاملة من المؤلفات العربية، فتراهم ينشدون حيثما كانوا المدائح في تمجيد المعرفة العربية»[22].

كانت معارف المسلمين تعد كشوفاً عظيمة، مقارنة بمستوى معرفة مسيحيي ذلك العصر. وكان الفتية على حق في امتداحها، وهي التي أفادت أوروبا منها أيما فائدة.

تمتلئ هذه النظرة المضيئة والودية بالعتمة والظلام، ما أن ننظر إلى الكنيسة. نعم للإيمان المسيحي الشخصي، لا للكنيسة كمسيحية مؤسسية. تلك كانت سياسة ملوك إسبانيا، الذين أمموا القسم الأكبر من أملاك الكنيسة، ودمروا مبانيها في أماكن كثيرة، ومنعوا إقامة كنائس جديدة. لم تحطم سيطرة العرب المسلمين مؤسسة الكنيسة تماماً، وإن أخضعتها لنواظمها وضوابطها، واستخدمت حيالها طرائق معروفة كتعيين الأساقفة وطردهم من مناصبهم، والاحتفاظ بحق الدعوة إلى مجالس كنسية، وجعل المناصب الأسقفية تجارية، وتشجيع تمردات العوام من حين لآخر ضد الكهنة، الذين كانوا يستمعون بصمت إلى تعليقات اللاهوتيين المسلمين الساخرة، لأن الرد بمثلها كان يهدد حياتهم.

لم تكن تلك أزمنة وردية للمسيحيين، الذين ثبتوا بشجاعة في وجه التحديات، بل كانت على العكس من ذلك أزمنة سيئة، سيئة جداً، جعلت من الضروري الإجابة مرة أخرى عن السؤال حول ما إذا كان لهذا كله من معنى. لإيجاد هذه الإجابة، لجأ المسيحيون إلى الرؤى المعروفة وخاصة منها رؤيا يوحنا. إذا كانت روما قد عدّت ذات يوم: (بابل العاهرة) وكان (الغول) هو سيطرة القياصرة، فإن (الغول) صار الآن الإمارة والخلافة، وصارت قرطبة: (بابل). علق القوم آمالهم، شأن أسلافهم، على أن العدو سيباد، والمسيحية ستنتصر في النهاية.

حدث هذا بالفعل خلال «حروب الاستعادة» المصبوغة بصبغة رؤيوية. ذلك

شيء يدين المسيحيون به، بين أشياء أخرى، إلى الراهب الإسباني بياتوس من دير ليبانا في جبال كانتبري، غير السالكة والبعيدة عن العرب. كتب بياتوس بعد حوالي سبعين عاماً من الفتح العربي (عام 711 م) تعليقاً على رؤيا يوحنا زعم فيه أن الحواري يعقوب هو الذي جعل إسبانيا مسيحية. تلك كانت أسطورة قديمة تم ضمها الآن إلى التعليق عن عمد وتصميم، كما يبدو، تدور حول جثة يعقوب، الذي يزعم أنه دفن في منطقة كومبوستيلا. هكذا كان يجب أن تكون هناك إذاً رقية في الأرض، تم العثور عليها دون عناء في مطلع القرن التاسع، كما تزعم الحكاية.

صدق الناس هذا الاكتشاف المثير، وسرى خبره سريان النار في الهشيم في أوروبا بأسرها، التي أخذ أبناؤها يهيؤون أنفسهم لزيارة المقام المقدس، ثم تدفقوا بمجموعات كبيرة على قبر الحواري، رغم أن الطريق إليه بعيد ومحفوف بالأخطار، وهو يقود إلى شمال غرب إسبانيا، حيث سانتياغو، القديس يعقوب، وكومبوستيلا، حقل النجوم.

تعتبر أسفار الحج عرفاً دينياً قديماً لدى المسيحيين وغيرهم. وتعبر عن تقوى الشعب وعبادة القديسين، .وترمز إلى طريق الحياة المفضي إلى الخلاص؛ فالإنسان ليس سوى محض حاج على أرض ليس له مقام دائم فيها. أما المكان الذي يقصده الحاج فمبارك، تنتقل نعمة الرب منه إلى الحاج، الذي يقيم في مقامات مقدسة ويرى الرقى ويمسها، ويغرق في صلاة صامتة، ويتعبد، ويشارك في تمرينات من أجل نيل الغفران، ويقدم الأضاحي.

يحتاج الإنسان ككائن له حواس إلى ما هو مادي، ويريد أن يراه ويسمعه ويتذوقه ويحسه ويشمه. وقد عرفت الكنيسة الكاثوليكية دوماً كيف تستخدم بذكاء الصور المرسومة أو المنحوتة لأحداث وكائنات إنجيلية، وكذلك منظر الخزائن النفيسة، ورائحة البخور، وغناء الجوقات الغريغورية، ودوي الأجراس، والقربان المقدس، وهذه جميعها تعبيرات عن حاجات إنسانية، وحركة في اتجاه الإنسان، وخبرة حسية لمعنى التجلي الإلهي، يمثل المقدس نفسه من خلالها

ليستولي على الإنسان. بهذه الطريقة عينها تؤثر الرقى، فهي تقدس المكان الذي تحفظ فيه.

تحتل القدس: مكان قبر يسوع و«نقطة الأرض المركزية» الموقع الأول بين الأماكن المقدسة، يليها قبرا الحواريين بطرس وبولس في روما، ومن الآن فصاعداً قبر يعقوب في سانتياغو دو كومبوستيللا. والقدس في قبضة المسلمين، الذين يهددون سانتياغو وقاموا باحتلالها ذات مرة. صحيح أن ملوك المسلمين يسمحون بالحج إلى القدس وبالانتقال إلى سانتياغو، لكنه لا يجوز مع ذلك إبقاء الأماكن المقدسة تحت ظلال سيوفهم، ولا بد من إبادة «أبناء الظلام» هؤلاء، «المسحاء الدجالين» كي يشع نور ربهم من جديد. صحيح أن هذه مهمة عظيمة وصعبة دون شك، لكنها ضرورية من أجل الخلاص الأبدي. على هذه الخلفية، بدأ في وقت واحد الاستعداد للحروب الصليبية في الأرض المقدسة ضد العرب المسلمين في إسبانيا.

أطلق التعليق الرؤيوي للراهب بياتوس ليبيانا تياراً جارفاً ما فتئ يتعاظم. وجاء اكتشافه قبر يعقوب المزعوم في اللحظة المناسبة، ليؤكد أن إسبانيا بلد مسيحي. ولأن القبر المقدس كان يجب أن يحمى، فإن خير وسيلة لحمايته كانت بدء حروب الاستعادة. بعد حين، اعتبر يعقوب مساعداً في المعارك وتلقى لقب «ماتاموروس» (قاتل المور).

ذلك كان صراعاً بين «أديان وثقافات»[23]، وأقل من ذلك بين شعوب. تقلصت الخلافة في القرون القادمة، وسرّع انهيارها الداخلي تقلّصها . . . إلى أن اقتصرت أخيراً على شريط حول غرناطة سقط بدوره عام (1492 م). لعبت أخويات فرسان مسيحيين ثلاث هي جمعية القنطرة، وكالاتزافا، وسانتياغو، دوراً تقريرياً في حروب الاستعادة. ولعب دوراً مماثلاً رودريغو دياز دو فيفار، «المقاتل الظافر والسّيد» الذي تحول إلى بطل قومي إسباني.

7) المقاتلون
الإنجيل والسيف ضد المسيح الدجال

ليس من قبيل المصادفة أن بناء الأديرة شهد ازدهاراً حقيقياً منذ عام ألف على وجه التقريب. فالدير، المكان المحميّ، يقدم أماناً أخيراً في أزمنة الاضطراب المتعاظم، في المجال الروحي والشؤون الأرضية على حد سواء.

هل اعتبر الدير موقعاً محصناً ضد نهاية العالم ويوم الدينونة. نعم. لقد اعتبروه كذلك. كما رأوا فيه، وهذا أمر كثيراً ما يتم تجاهله، استباقاً لملكوت السعادة والسلام وتمثيلاً للملكوت الألفي، شأنه شأن الكنيسة: الاستباق اللصيق بالأرض للعالم الآخر. في وعيهم الذاتي، كان الرهبان مقاتلين من أجل الرب، وأن حاربوا بالإنجيل وليس بالسيف.

حدد الرب موقع كل إنسان في الحياة، وأوجد ثلاث مراتب من البشر في العالم: رجال الدين، والأمراء، والفلاحين. إنهم: المصلون، وينتمي إليهم

الرهبان والراهبات، والمحاربون النبلاء، وأخيراً العاملون أو الفلاحون. إذا ما حمى المحارب السلام، فهو لا يفعل ذلك من أجل نفسه فقط، بل كذلك من أجل المراتب الأخرى. وإذا ما صلى الراهب، فإنه يصلي من أجل جميع المرتبطين مثله بالدير: أحياء كانوا أم أمواتاً. إنه يصلي من أجلهم، لينتزعهم من سطوة الشيطان ويحررهم. ينطلق غناء الجوقة: «الرجولي، المندفع والعنيف من الحناجر كغناء حربي. واعتقد الرهبان، الذين خالوا أنفسهم فقراء، أنهم محاربون شأن آبائهم وأخوتهم، لكنهم أفضل منهم لأنهم يحاربون في سبيل الرب. لقد شعروا بانتمائهم إلى الجيوش السماوية رغم وجودهم الأرضي، وظنوا أنهم ذلك الجزء منها الذي مازال سجين شهواته، لكنه يقاتل الشر في مملكته التي هي اللحم»[1]. ورأوا أنفسهم على الحد الفاصل بين النور والظلمة، وقد سددوا أنظارهم بشجاعة إلى الظلمة بمعونة النور. حمل الرهبان على محمل الجد مهمة السعي لخلاص الإنسان، وآمنوا أنها تفرض عليهم مراقبة علامات الزمن، وتدوينها، وتفسيرها بمساعدة الكتاب وكشف معناها الخفي.

بدوره، قام الكون، الذي لم يكن في حال هدوء وسكينة، بالحركات التي حددها له الرب. ومثله فعلت الطبيعة، التي لا شك في أن تعبيراتها كانت مفعمة بالأسرار، لكنها استندت جميعهاً إلى نظام إلهي محكم الخطط. إذا كان هذا التناغم والانسجام قد اهتز بشدة، مثلما حدث في العقود السابقة واللاحقة لمنعطف الألف الأول، وظهرت مذنبات، وانتشرت حرائق دمرت المدن كما في إيطاليا، والمسيحيون حادوا عن جادة الإيمان كما في سردينيا، واللنغوبارديون عادوا إلى الأعراف الوثنية، والأمراض قد غطت مناطق كاملة من الأرض، مثلما فعل «طاعون النار» في ليموغ، والفيضانات ضربت السواحل، والأرض قد اهتزت بدرجة سوّغت الخوف من انفلات تنانين الجحيم، وكان الجفاف أو البرد قد دمر المحاصيل، والمجرى المنظم للفصول قد أوشك على الانهيار، والطبيعة توشك أن تعاود فوضاها، فإن هذا كله لا يمكن أن يكون غير علامات إنذارية يطلقها الإله

كي تُعلن نهاية العالم، أو أنها غضب الشيطان الذي أفلت على البشرية.

ما الذي يمكن فعله في هذه الأزمنة الرديئة. تصلي الكنيسة ويصلي الرهبان باجتهاد وخشوع، ويعظون بالندم والتوبة، ويعرضون الرقى الطافحة بالنعم، ويدعون إلى رحلات حج، ويحاولون قدر الإمكان إبقاء قطعانهم بعضها قرب بعض، ويصمدون بتوتر في وجه الأشياء التي يمكن أن تأتي.

حمل الرهبان البندكتيون قسمات حربية منذ البداية، وتبنوا لغة الجيش الروماني وطقوس مرتبتهم. «تتماثل قاعة نومهم مع غرف نوم الجنود، وقاعة الدير مع قاعة استحمامهم. ويمكن اعتبار أخلاقهم معركة بين الفضيلة والخطيئة»[2].

يتطلب القتال الظافر الطاعة والانضباط والشجاعة. وقد قاتل الرهبان في ظل قادتهم، أي رؤساء أديرتهم وكهنتهم: «فالطاعة التي لا تعرف التردد هي الدرجة الأسمى من الخشوع، والخشوع ملك أولئك الذين لا يقدّرون أحداً أو شيئاً تقديرهم للمسيح، وتفرض عليهم الخدمة المقدسة التي نذروا أنفسهم لها، أو روعة الحياة الأبدية، أو خوفهم من الجحيم، أن لا يعرفوا أي تردد أو إحجام في تنفيذ ما يأمرهم به متقدمهم، كأن أمره صدر إليهم من الرب ذاته». بهذه الكلمات يبدأ الفصل الخامس من قواعد طريقة بندكت؛ إن الرب هو القائد الأعلى للحرب ورئيس الدير رئيس أركانه.

يقاتل الرهبان العازبون، أو المستوطنون، بدورهم. إنهم يصارعون الشيطان «عندما يفارقون أخوتهم المحاربين ليعدوا أنفسهم أحسن إعداد لقتال فردي يخوضونه في عزلتهم». إن وجود الراهب: «قتال، ومعركة ضد مفاسد الجسد والأفكار». هذه لغة حربية الإيحاءات، ويراد أن يكون لها هذا المعنى أيضاً[3].

أَلِف الرهبان كل ما هو حربي منذ طفولتهم، لأنهم كانوا في الغالب من أصل نبيل. بهذه الخلفية الأسرية، اعتادوا الحرب والقتال والصراعات بمختلف أنواعها. عندما كان أحدهم يخدم في دير، كان أخوه أو أبوه أو عمه يقاتل كفارس،

يحارب الآخرين أو يحاربونه لأسباب تافهة وسخيفة معظم الأحيان، فكانت سيوفهم لا تكاد تستقر في أغمادها.

إذا كان الرهبان مقاتلين في سبيل الرب، فإن الفرسان كانوا مقاتلين من أجل العالم؛ من أجل عالم مفرط في ماديته حسب قول الكنيسة، عالم من المتع الكثيرة جداً والكسب المادي الكبير جداً. هؤلاء الفرسان كانوا شباناً رياضيين يتفجرون قوة، وكانوا متهورين وجهلة وسكّيرين ومجربين في الحرب ونزّاعين إلى العراك. باختصار: كانوا قوة اضطراب ومصدر قلاقل أبدية لبلادهم. وقد طرد أسقف ليموغ ذات يوم جميع فرسان أسقفيته من الكنيسة، الذين بدوا له جيشاً للشر وليس ما يجب أن يكونوه: ترساً وسيفاً للخير.

نشأ الفرسان في ألمانيا من غير الأحرار، فكانوا يقاتلون من أجل سيدهم النبيل، ثم يتباهون ويتفاخرون بعد ذلك بأفعالهم، ويبالغون فيها إلى درجة أغرت إثارتها النبلاء بالانتساب إليهم. أن يكون المرء فارساً، ذلك كان يعد بموقع اجتماعي رفيع، ما دامت القدرة على القتال دون خوف أو تبكيت ضمير شرفاً يحسن بالمرء امتلاكه. لم تكن الفروسية مرتبة جديدة ضمن تراتب العصر الوسيط المكون من مصلين ومحاربين وعاملين، بل شكلت: (طبقة اجتماعية) تمتعت بقدر كبير من الاحترام[4].

وصف الأسقف بونزيو سوتري من إيطاليا العليا - توفي عام (1099 م) في مؤلف وضعه عام (1090 م) عنوانه: كتاب عن الحياة المسيحية، ما كان منتظراً من المحاربين، أي الفرسان. إنه، بين أمور أخرى: «القتال حتى الموت في سبيل خير الجماعة العامة، ومحاربة المرتدين والهراطقة، والدفاع عن الفقراء والأرامل والأيتام، والالتزام بقسم الولاء، وعدم الشعور بالحسد تجاه سادتهم»[5].

يذكّر هذا النص بفضائل مسيحية يجب أن تدخل البهجة إلى قلب كل إنسان. ولقد أراد أبناء النبلاء العيش من أجل هذه المثل، أو يمكننا افتراض وجود

هذه الرغبة لديهم. على الورق وفي التصورات، كان الفرسان بشراً كاملين، أما في الواقع، فكانوا خلاف ذلك تماماً.

كانت النزاعات هي المحنة التي ابتلي بها ذلك العصر: والخصومات حروباً خاصة صغيرة كانوا يخوضونها في سبيل حقوق مزعومة يمكن أن تتعلق بمختلف شؤون الحياة، نشبت معظم الأحيان بسبب ادعاءات حول ملكية أراض، أو فلاحين، أو قرى. عندما كان السادة لا يتوصلون إلى تفاهم ودي، كانّوا يتشاجرون بعضهم مع بعض. عندئذ كان كل واحد منهم يحاول فرض مطالبه المزعومة بالقوة. نتيجة لذلك، تجولت عُصَب مسلحة عبر البلاد وهي تنهب المواشي، وتحرق القرى، وتسرق، وتكسر خزائن الكنوز في الكنائس والأديرة، وتختطف الناس أو تقتلهم. وكان المنتصر يظفر بالأرض والبشر معاً. أما حق الخصومة أو المشاجرة، الذي كان بالأصل محض ملاحقة لجريمة ما يسمح بها النظام القانوني، وعملية ثأر متعارف عليها، فقد أسيء استعماله بصورة متزايدة، إلى أن حاد عن وظيفته الأصلية، وصارت أية مناسبة مهما كانت تافهة كافية للجوء إلى العنف.

تخبرنا قصيدة من عصر الوسيط عنوانها: ‹مَيَر هِيلْمْبْرِشْت›، النصف الثاني من القرن الثالث عشر، عن فلاح شاب ارتقى وصار صبياً عند أحد الفرسان، دون أن يتضح لنا إن كانت أفعاله تستند ولو من بعيد إلى حق المشاجرة، أم أنها كانت محض أعمال نهب، حيث لم يكن هناك حدود تفصل نمطي الأفعال بعضهما عن بعض.

يزور الفلاح الشاب أهله جالباً لهم الهدايا، فيكون نصيب الأب حجر جلخ ومنجل وبلطة: «أحسن درر فلاحية في العالم». وتتلقى الأم فراء ثعلب: «سرقه من رجل دين». والأخت رباط حرير وكفة مزخرفة: «كان قد انتزعهما من بائع متجول». ويروي الشاب لأهله كم أسف لحال رجل غني رآه ذات مرة واقفاً فوق مذراة معلمه، فجعله يدفع غالياً ثمن فعلته، وأخذ عجوله وخرافه وخنازيره،

عقاباً له على إتلاف الحقل: عينني معلمي مشرفاً على منطقة، فلم أكن بهجة الفلاحين، وجعلت أطفالهم لا يجدون ما يأكلونه غير الحساء. إن ما كان لهم صار لي، وكنت أفقأ عين هذا وأجلد ذاك، أو أربطه فوق وجار نمل، أو أدليه من ساقيه وهو معلق على شجرة صفصاف. لم يعد الحرمان الكنسي واحترام الآخرين في أيامنا غير مسخرة من المساخر(6).

لفرض ما يريد، كان المرء يحتاج إلى أسلحة كتلك التي يحملها الفرسان: أكثر الناس حماسة للمشاجرات، الذين كان يكسب من يدخلهم في خدمته، ويعتبر نفسه أسعد الخلق، إذا كان بينهم «مشرف منطقة» كهذا الذي تعرفناه قبل قليل.

كان لابد من وضع نهاية لهذه الأحوال، التي أصبح بقاؤها محالاً. ذلك كان يتطلّب سلطة مركزية قوية تستطيع إجبار كل واحد من رعاياها على العيش بسلام. وفي ألمانيا، كان الملك والقيصر يمتلكان قوة كهذه، قبل أن ينتزعها منهما الأمراء ويدّعونها لأنفسهم، وتفقد القيصرية قواها وتنهار عقب موت فريدريش الثاني عام (1250 م).

كانت الملكية قد فقدت قوتها التقريرية منذ وقت طويل في فرنسا، الممزقة إلى ممالك إقليمية عديدة والعاجزة والعازفة عن مواجهة وباء الخصومات. لم يكن الملك ضامن السلام هنا، فتنطحت الكنيسة للمهمة، وانتزعت وظائف الملك الرئيسة، وأعلنت السلام الإلهي، ثم أصدرت توجيهاً في منعطف القرن العاشر إلى القرن الحادي عشر أمرت فيه بتسوية الشجارات قانونياً وليس من خلال العداوات الشخصية.

عبأت الكنيسة الجماهير، التي عانت أكثر من غيرها تحت وطأة الظروف الفظيعة، وكرهت الفرسان. فقد دعتها إلى تجمعات عقدت في الهواء الطلق جلبت إليها الرقى، ورفعت راياتها المقدسة فيها، حضرها الفرسان تعبيراً عن أنهم ما عادوا خارج النظام، أجبرهم الأساقفة خلالها على أداء قسم، كهذا الذي أقسموه

عام (1024 م) يقول نصه: «بسبب الحماية التي تتمتع بها الكنائس، لن أقتحم بعد الآن وبأية طريقة من الطرق أية كنيسة، ولن أدخل عنوة إلى المخازن الموجودة داخل حرمها. ولن أهاجم رجال الدين أو الرهبان، إن كانوا لا يحملون أسلحة. ولن أهاجم مرافقيهم ما داموا دون رمح وترس. ولن أسرق عجلاً أو بقرة أو خنزيراً أو خروفاً أو حملاً أو عنزة أو حماراً وكذلك الحمل الذي قد يكون على ظهره. ولن أسرق فرساً أو مهرها الوليد. كما أنني لن أوقع في الأسر الفلاحين أو الفلاحات، وكذلك محضري المحاكم والتجار. ولن أستولي على دنانيرهم، أو آخذ أموال فدية منهم، أو انتزع ممتلكاتهم بحجة أن سيدهم مالك الأرض يقوم بشن الحرب»[7].

الآن، كان الرب نفسه ضامن السلام، وكفيله للفقراء والضعفاء أيضاً، وضامن التقيد به وعدم انتهاكه، خاصة مباني الكنائس والأديرة، التي كان مدنسها يتعرض الآن، وأياً كان شخصه، لحرمان يضعه خارج جماعة الإيمان إلى أن يعلن توبته.

انتشرت هذه الحركة الإلهية السلمية، التي نشأت أول الأمر في جنوبي فرنسا، إلى بورغونيا في القرن الحادي عشر، ثم انتقلت إلى شمالي فرنسا ومنطقة الفلاندر، قبل أن تشمل المملكة الألمانية، وتعزز مساعي القيصر فريدريش الثالث السلمية. بدورها، أضفت مجامع كولونيا ومماينز (1083/ 1085 م) طابعاً مؤسسياً على هذا السلام الإلهي، الذي تبناه من الآن فصاعداً مجمع أساقفة مخلص للقيصر، فأصبح ملزماً لأقسام واسعة من الإمبراطورية.

يمكننا اعتبار هذه الحركة ألفية، أي تعبيراً عن سلوك حياتي يستعد لنهاية العالم ولبدء ملكوت الرب: (سلام إلهي) هي صيغة يخالطها نغم يتجاوز ما هو محض أرضي، ينصح المراتب الثلاث بالوئام والتفاهم ويهددها بالعقاب إن انتهكت السلام. إن المواكب الحاشدة، في أزمنة التضييق وحدها يمكن أن تسيّر الجماهير معاً لتلقّي الرسالات، ويمكن لعبادة الرقى أن تبلغ ذروتها، والحاجة إلى

التقرب من القديسين تتبلور تتبلور أكثر ما تتبلور في مثل هذه الحقب. أما الإنسان، فيقلع عن لامبالاته ويتخذ موقفاً هناك، حيث يجد الأمان - لدى الكنيسة: وسيط الخلاص. ويقدم كشف حساب ما قبل النهاية، محاولاً موازنة ربحه وخسارته، والعمل لتقليص رصيده السلبي قدر الإمكان. بينما الكنيسة والدير يدلانه على الطريق القويم، عبر الصلوات وتمارين التوبة والتأمل، التي تشمل، في ما تشمله، رحلات الحج.

تتوطن قوة الشيء المقدس في أجزائه المتفرقة أيضاً، أو المفصولة عن كليته. تكفي قطعة صغيرة من صليب يسوع، ويكفي عظم إصبع قديس، وخيط من رداء، ونقطة من دم متجمد، فهذه أجزاء مشحونة بالقداسة شأن الكل الذي تنتمي إليه. وإنه لخاطر عبقري ذاك الذي أدى إلى ازدهار هائل في تجارة الرقى وغيرها من الخزعبلات، وأفضى إلى توسيع رحلات الحج، فلم تعد تقتصر على الأهداف الكبرى كالقدس وروما وسانتياغو، بل جعلت كل كنيسة ودير هدفاً لها، إن ضمّ أي شيء مقدس مهما كان صغيراً.

ذلك جعل الأساقفة قادرين على استدراج الجماهير إلى حيث يريدون، ما أن يجلبوا الرقى من دير أو كاتدرائية قريبين، وينظموا مسيرات مفعمة بالأبهة إليها. بينما بعث التزام الفرسان المقاتلين بالسلام الإلهي وخضوعهم له الأمل في القلوب، في اللحظة الراهنة على الأقل.

طاف البابا أُوربان الثاني منذ أشهر في فرنسا داعياً لمشروعه الكبير: حملة الصليب، مدعياً أن الشرق طلب بإلحاح عوناً مسلحاً ضد السلاجقة المسلمين. قال البابا: إن الفرسان النبلاء يتكاسلون ويتشاجرون، في حين يحتل الوثنيون الأماكن المسيحية المقدسة ويتوطنون فيها. إنه يعتقد بوجود فرصة سانحة لتوجيه فائض قوة الفروسية نحو أهداف جديدة، أهداف أعلى، ليسود السلام في الداخل وتنقل الحرب إلى الخارج.

وقد دعا إلى عقد مجمع لرؤساء الكنائس في كليرمون، تسوى فيه بعض

أمور الكنسية، ويتم من جديد تأكيد السلام الإلهي. كما أبدى رغبته في التحدث علناً إلى الشعب، الذي يعرف لغته لأنه من أصل فرنسي نبيل. تجمع الناس يوم 27 تشرين الثاني من عام (1095 م) في ساحة كبيرة، وشارك في الحشد عدد ضخم من رجال الدين بينهم رهبان، وحضر الفرسان وصغار النبلاء، والتجار والحرفيون، وصناعهم مع أبنائهم، إلى جانب المتسولين. انتظر هؤلاء البابا بتلهف وتوتر، إذ لم يسبق لأحد منهم أن رآه وجها لوجه.

ظهر أُوربان الثاني في أردية احتفالية بابوية، يرافقه أساقفة في ملابسهم الكهنوتية، اصطفوا أمام الجمهور متدثرين ببهاء الملكوت السماوي، الذي كان يرسل الآن بإشعاعه إلى الشعب الذي في الأسفل. حين تقدم البابا إلى الأمام، وصمت الحشد. قال: «يا شعب الفرنجة، يا شعب شمال الألب، أنتم بدلالة أعمالكم الكثيرة شعب الرب المحبوب والمختار . . . إن شعب إمبراطورية فارس، الغريب، الكافر، مهزوز الطباع الذي لا يركن بال له، احتل أراضي المسيحيين وأفرغها من أهلها بالموت والنهب والحرق، وساق قسماً من الأسرى إلى بلاده وقتل القسم الآخر أشنع قتلة، ودمر كنائس الرب تدميراً منظماً أو وضع يده عليها وجعل منها أماكن لعبادته. إنهم يدنسون الهياكل بفظاعاتهم ويهدمونها، ويختنون المسيحيين ويسكبون دم الختان على المذابح أو في أجران العماد».

كانت الجمهرة تقف صامتة. ولما وصف في النهاية بأية طريقة همجية يُقتل المسيحيون، ساءت حال بعض من كانت دماؤه قد أخذت تغلي من الفرسان، وهاج الجمهور الذي هزه ما يجري. تطايرت عندئذ صيحات غاضبة وهائجة هنا وهناك: أية شناعات يصعب تصورها!. أية عذابات! أية محنة!. انفلت المسيح الدجال وحطم قيوده. ظهر ياجوج وماجوج فحجبت جيوشه المهلكة ضوء الشمس هناك في الشرق البعيد، الذي منه يأتي النور. أية نكبة، بحق يسوع!

لمن غيركم نترك الثأر لهذا الهوان، ولمن غيركم نكل تحرير هذه الديار. لقد منحكم الرب سمعة قتالية ممتازة تفوق ما أعطاه لكل الشعوب الأخرى،

وأعطاكم الشجاعة والمهارة الجسدية والقوة التي تحنون بها هامات أعدائكم. لابد أن تضعوا حدا للكراهية فيما بينكم، ولا بد أن يصمت الشقاق وتهدأ الحرب. لتتوقف جميع المشاجرات القانونية وصراعات الآراء. انطلقوا إلى القبر المقدس، وانتزعوا تلك الأراضي من الشعب الكافر وأخضعوه!. يقول الإنجيل إن الحليب والعسل يسيلان هناك، وإن القدس مركز الأرض والأخصب بين الديار، كأنها فردوس ثان للغبطة. وقد باركها مخلص البشرية بقدومه، وزينها بتبدلات حياته، وقدسها بآلامه، وخلصها بموته، وميزها بقبره. إن مدينة الملك هذه ترجو تحريرها وتتوق إليه، وتتوسل عونكم العاجل. سيروا إذاً على هذه الطريق تكفيراً عن خطاياكم، لتنالوا مجداً لا يزول في الملكوت السماوي.

كان الحشد يصغي وقد انقطعت أنفاسه، عندما صاح البابا: «نعم، نعم، ثلاث مرات نعم! إنكم ستفعلون هذا، ستقضون على الكفار وستحررون القبر المقدس. فليكن الرب معكم، ولتكن مشيئة الرب، لتكن مشيئة الرب»![8]

ترك الراهب البندكتي روبرت فون ريمز لنا هذه الصيغة من خطبة أُوربان، المليئة بزعيق رؤيوي يصمّ الآذان. تفصح الشحنة الرؤيوية الموجهة إلى الجمهور عن نفسها في الصرخة الأخيرة. ويلعب انتظار الملكوت الألفي دوره، وإن كان صوته غير مسموع بصورة مباشرة. إنه انتظار يبرز بوضوح أشد في رواية رئيس الدير البندكتي غيبرت فون نوغان (1053 - 1124 م) التي تقول، بعد إلقاء نظرة على زمن المسيح الدجال، إن حملة الصليب سترد بلدان الشرق إلى الإيمان، وإنها ستجد في القدس مسيحيين سيسارعون إلى ملاقاتها . . . وإن هذه هي المعركة الحقيقية التي لا بد من خوضها.

ربط البابا أُوربان الثاني بطريقة لا تجارى روح العصر بالمشاعر اللحظية، فهيج الشعب في ساحة كليرمونت وحمله على جناح الكلمات إلى محط جميع الأشواق والآمال المتقدة، إلى بلاد الأحلام، إلى الفردوس، إلى مركز الكون.

عندما تقدم الأسقف أديمار فون بوي نحو البابا وأعلن بصوت جهوري رغبته في أن يكون أول محارب ضد الوثنيين، بدا وكأن في الأمر لعبة متفقاً عليها. الحقيقة أن أوربان الثاني كان قد عينه خلال محادثات تمهيدية قاصداً رسولياً ومرافقاً دينياً لرحلة الحج المقررة، غير أن الجمهور كان يجهل هذا بطبيعة الحال. حذا آخرون حذو الأسقف وأعلنوا عن رغبتهم في الذهاب إلى الديار المقدسة، ثم قصوا أرديتهم وأعادوا لصق أجزائها على شكل صليب ثبتوه على ثيابهم. هكذا حملوا العلامة التي اعتقدوا أنهم سيحرزون الانتصار بفضلها، وإن مات بعضهم على الطريق إلى مكان الحج أو في هذا المكان عينه. الموت من أجل القدس، أليس هذا أضمن طريقة للخلاص.

لا يكون الذاهب إلى الحج في سانتياغو مسلحاً، لأن فرسان الأخوية يتكفلون بحمايته. أما من يذهب إلى الحج في الديار المقدسة، فيجب أن يحمل هو نفسه السلاح. لذلك لم تكن حملة الصليب غير رحلة حج مسلحة زودت بامتيازات كهنوتية خاصة، الاشتراك فيها فعل محمود.

لاقت الكنيسة مصاعب جمة أول الأمر في تبرير استخدامها السلاح، رغم أن أغُسطين كان قد وضعه في يدها من خلال مذهبه حول «الحرب العادلة». تكون الحرب مبررة ويسمح بخوضها إن كانت للدفاع عن أو لاسترداد ممتلكات منهوبة، أو شنت ضد هراطقة أو مرتدين. من جانبه، وسع البابا غريغور الكبير دائرة الحرب العادلة لتشمل: «إخضاع الوثنيين» واعتبرها: «حرباً مقدسة». من الناحية الفكرية، لم يكن هناك ما يحول دون قيام رحلات حج مسلحة إلى فلسطين، فحدد أوربان الثاني شهر آب من عام (1095 م) موعداً لانطلاقها.

اقتحم حَمَلَة الصليب القدس عام (1099 م) وأعلنوها في العام التالي عاصمة مملكة جديدة. ثم تبعت حملة الصليب الأولى حملات أخرى قصدت الديار المقدسة وبلداناً أخرى. لكن المسيحيين خسروا فلسطين في النهاية. صحيح أن القدس بقيت عاصمة إلى عام (1187 م) إلا أنها عادت للسيادة الإسلامية بعد

ذاك، وإن رجعت من جديد إلى السيادة المسيحية لفترة قصيرة بين عامي (1229 و 1244 م).

«سيبقى من الصعب دوما أن نبرر، من منظور الأناجيل، قيام هؤلاء الناس بالقضاء على كل شيء أثناء اقتحامهم القدس باسم يسوع المسيح. لقد خاضوا في دماء بلغت ركبهم، وقدموا والدموع تنهمر من مآقيهم شكرهم للمخلّص على الانتصار الذي حققوه؛ المخلص نفسه الذي كان قد طوب الودعاء وأمرهم برد السيف إلى غمده»[9] وأطلقوا أخيراً حناجرهم بأغنية مديح للسيد:

تسيل أنهار كثيرة من الدم الذي سفحناه بسعادة

من شعب الخطيئة

فابتهجي يا قدس!

تغطت أحجار بلاط الهيكل

بسيقان الموتى جميعاً

فابتهجي ياقدس!

ألقوا بهم إلى النار

وتهللوا فرحاً، أيها الطيبون

فالأشرار ينزفون

وابتهجي يا قدس!

إنه ببساطة غناء رؤيوي قيامي.

تبرز لحظة نهاية الزمن في حملات الصليب لدى من يسمون (الفقراء) أكثر مما تبرز لدى جيوش الفرسان. ولما تردد صدى نداء أوربان الثاني في فرنسا وعبر حدود البلدان المجاورة لها، سمعه أناس لم يكن البابا يفكر فيهم أول الأمر. بالنسبة إليه، كان يجب أن يتألف جيش حملة الصليب من الفرسان وتابعيهم، أو

من ذوي الخبرة في الحرب. وهذا ما حدث بالفعل. لكن الجماهير تحركت فجأة، فجاء الفقراء والمحرومون والمظلومون وعديمو المِلكية يطالبون بحصتهم من المشروع الكبير، تحدوهم إلى ذلك أسباب وجيهة كنظر الإنجيل إلى الفقر باعتباره مثلاً أعلى يسدد نظره نحو نهاية الزمن، داوم الرهبان من جانبهم على امتداحه، خاصة أن قَسَمهم كان يتضمن فقرة يلتزمون فيها بالفقر والعفة والطاعة، وأنهم رأوا في أنفسهم «فقراء المسيح» المدعوين، لهذا السبب بالذات، أكثر من أي إنسان آخر لرؤية الرب، وللصلاة من أجل الناس، والدفاع عنهم أمامه. كان الفقر الرهباني محملاً بالخلاص وبخلافة المسيح. ومثله كان الفقر الطوعي » التنسكي، والفقر المفروض، المشروط بأوضاع اجتماعية.

شق الفقراء لأنفسهم طريقاً إلى الخلاص لم يكن يتوقعه أحد، عله يستطيع أخيراً وضع حد لبؤسهم. يا له من أمل! الذهاب إلى القدس من أجل ملاقاة المسيح. أي رنين سحري يسكن آذانهم!. ذهب، زبرجد، زمرد ولآلئ. ياقدس، أيتها المدينة عالية الأركان، التي لا شبيه لها ولا تحتاج إلى أن يضيئها شمس أو قمر، آمن هؤلاء أن قدس فلسطين البعيدة ارتدت أبهى حلل العيد، وأضاءت أسوارها وأبراجها، وأخذت تنتظر بشوق قدوم المحاربين في سبيل الرب لانتزاعها من ظلام الكفر. أليسوا هم، الفقراء، مدعوين لإتمام العمل العظيم أكثر من هؤلاء الفرسان البراقين، الذين يجب على المرء أن يخاف على نفسه منهم، في كل الأحوال.

رافق هؤلاء الفقراء غلام نحيل منفوش الشعر يمتطي حماراً هزيلاً، عرفه قسم كبير منهم باسم بطرس الناسك من إميان، لأنه كان لا يأكل للحم ولا يحتسي النبيذ، يرتدي لباساً طويلاً أبيض، ويلقي مواعظ لا نظير لها بينما يطلع القوم على رسالة سلمه إياها المسيح ذاته في كنيسة القيامة بالقدس، يكلفه فيها الدعوة إلى حملة الصليب.

كان الناس يتجمهرون حوله مسحورين وقد تعلقت أنظارهم بشفتيه. وكانوا يتدافعون في كتل كثيفة ويتضاربون من أجل شعرة من حماره. ألم يدخل الرب

نفسه إلى القدس على ظهر حمار. وبطرس الذي لم يكن الوحيد الذي يحرض على تحرير القبر المقدس، دل سامعيه مقطوعي الأنفاس على الاتجاه، وصاغ وعيهم في قالب ملائم، فتخلى أنصاره عن القليل الذي كانوا يملكونه، وتجهزوا بأسلحة ما قبل الخلاص، وتزودوا للرحلة الطويلة. في آذار من عام (1096 م) بعد أربعة أشهر من خطبة أوربان، وقبل أربعة أشهر من انطلاق الفرسان، تحرك بطرس وأرهاطه يرافقهم بعض النسوة والأطفال، وحاجيات قليلة وضعوها في عربات جروها وراءهم. وتحرك معهم رهبان فاسقون، وقطاع طرق، ومغامرون.

في الطريق، حدث ما كان متوقعاً حدوثه، فقد فَقَدَ الجمع الحائر انضباطه ونظامه، وهو الذي لم يكن يوحده شيء غير هدفه، وانحط إلى عصابات من النهابين واللصوص، أخذت تنهب وتحرق وتقتل كل ما ومن كان على حافة الطرق. في هذه الأثناء، بدأت مواكب «فقراء» أخرى زحفها نحو الديار المقدسة، كان اليهود أول ضحية لها. تألفت المواكب من «ذلك الرعاع الجدير باللعنة، الذي يجده المرء في كل مكان» على حد قول تقرير من ذلك العصر، وآمن أن ضرب العنق، والطعن، والإحراق، والخنق، والإغراق في الماء، ودفن الأحياء، هي أعمال ترضي الرب، فبدأ بارتكابها في براغ مروراً بماينز، وفورمس، وشباير، وكولونيا، وكسانتن، ودورتمُند، وتْرِير، وميتز، وريغنسبورج.

حين بلغ الفقراء جنوبي فرنسا، انضموا إلى جيش الفرسان الأميري، وتسببوا بقدر عظيم من الحيرة والاضطراب، فقد رأوا في أنفسهم نخبة حملة الصليب وشعب الرب المختار، الذي اقترف معظم مذابح وفظاعات الديار المقدسة. لم يكن الفرسان بدورهم أطفالاً في جوقات غنائية، لذلك تنضح التقارير التي تصف أفعالهم بالدماء . . . إذا كان البابا والأمراء يريدون حملة محدودة الأهداف، فان هذه جنحت أكثر فأكثر إلى ما أرادته الجماهير الكبيرة أن تكون: حرب إبادة ضد «أبناء العاهرات» و«أخلاف قايين»[10].

ببلوغ الأمور هذه النقطة، أخذ يحدث شيء يثير الاهتمام. لنفترض أن فارساً في

القدس تذكر خلال إحدى ساعات صفوه أن الرهبان مقاتلون من أجل المسيح وسلاحهم الإنجيل. ألا يكون من المحتمل عندئذ أن يفكر بضرورة تعظيم عمل الأسلحة المستخدمة من خلال تعاون بين الفرسان والرهبان. ألا يفكر بتوحيدهم في شخص واحد، لأن توحيدهم ينجب مقاتلاً لا يقهر، يستحيل أن يهزمه شيء أو شخص. ثم ألم تقدم إسبانيا نموذجاً / قدوة كهذا.

لا نعرف إن كان هوغو فون باين، الفارس من الشامباني، قد بنى أفعاله على هذه التأملات. وإن كنا نعرف أن «فرسان الهيكل» في القدس كانوا يعانون صعوبات، وأن هوغو كان معلمهم الأكبر. بل إننا نعلم أن هذه الأخوية الصغيرة كانت مهددة بالزوال، رغم أن المهمة التي حددتها لنفسها، أعني تقديم حماية عسكرية دائمة لطرق حج محددة، كان يجب أن تعود عليها بتعاطف واحترام كبيرين. لكن هذا لم يحدث، وإنما حدث نقيضه، فقد اتهم الفرسان بالعجرفة وعدّوا أداة خراب وفساد لا أداة خلاص، وتساءل القوم، أخيراً، كيف يمكن لمقاتل بالسلاح أن يعيش حياة عبادة وتأمل. لقد وجد فرسان الهيكل أنفسهم حيال تساؤلات تطال شرعية وجودهم، فكان عليهم أن يجدوا له ذرائع ومسوغات مقنعة.

كان فرسان الهيكل قد نذروا أنفسهم للفقر والعفة والطاعة. والتزموا: «بحمل السلاح ضد أعداء الإيمان والسلام ودفاعا عن المسيحيين». ومع أنهم تصرفوا بما كان يمليه عليهم قسمهم، فإن سلوكهم لم يجد قبولاً، لأن وضعهم ربما يكون قد مثّل انتهاكا لنظام المراتب الثلاث الذي قرره الرب. كان التوحيد الشخصي بين الفارس والراهب شيئاً جديداً، ومن يدري، فربما كانت وراءه قوى شريرة.

في هذا الوضع الصعب، تدخل بيرنارد دو كليرفو (1090 - 1153 م) مؤسس أخوية تِسسترتسينزَر في جنوبي فرنسا البعيد، لأن المعلم هوغو كان قد طلب منه هذه الخِدمة الودية. ألف بيرنارد عام (1128 م) كتاباً جعل عنوانه ‹في مدح الفرسان الجدد› قال فيه إن النمط الجديد من الفروسية هو رأس حربة الخلاص، وإن الفارس الجديد يستطيع أن يكون واثقاً من خلاصه الشخصي،

لأنه إنما يقتل الوثنيين من أجل مجد المسيح. صحيح أن فرسان الهيكل ليسوا سوى عصبة صغيرة، لكنه صحيح أيضاً أنه ليس بينهم مجرمون، أو خطاة، أو نهابون، أو مشركون بالرب، أو قتلة، أو مطلقون، وأن المسيح نفسه هو الذي ينتصر فيهم[11].

عرف برنارد، وهو يقول رأيه، أن سطوته ستجعل الهيكليين على جانب عظيم من الشهرة. والحال، أن الانتماء إلى النخبة الصغيرة سرعان ما صار شرفاً عظيماً. بل إن فرسان يوحنا وأخويات الفرسان الألمان أفادوا في مراحل لاحقة من دفاعه هذا.

شهدت نهاية عصر حملات الصليب أمراً أصاب الناس في أوروبا بالدهشة. فقد تجمعت في شهري آذار وأيار من عام (1212 م) عُصَب كبيرة من الأطفال وأنصاف اليافعين، وأعلنت رغبتها في الحج إلى الديار المقدسة. أتبع هؤلاء الصبية أنفسهم في فرنسا بإسطفان، الصبي الراعي من منطقة الفاندوم الذي زعم أن المسيح ظهر له في صورة غريب فقير. هل كان إسطفان هذا يعتزم الذهاب فعلاً إلى القدس. هذا ما لا نعرفه، وإن كان من الثابت أنه طاف الأرياف، حيث حظي بتأييد تزايد دون انقطاع، جعل ملك فرنسا يعمل لتفكيك فرق الصبية.

وظهر في كولونيا طفل يدعى نيقولاوس تخصص في كشف الوحي، فعاد عليه إعلانه بعدد كبير جداً من الأنصار معظمهم في مثل عمره، فضلاً عن أتباع متفرقين أكبر سناً. كان هؤلاء، إذا ما سألهم المرء عن وجهتهم، يجيبونه: «إلى الرب». ويقولون إنهم يريدون تحقيق ما عجز آباؤهم والملوك عن تحقيقه: أعني استرداد قبر المسيح، الذي بدؤوا مسيرتهم إليه في مطلع شهر تموز، فقصدوا الراين الأعلى، واجتازوا جبال الألب ثم وصلوا، وعددهم سبعة آلاف كما يقال، في نهاية آب إلى جنوا، حيث لم تحدث المعجزة التي كانوا يمنون أنفسهم بها، معجزة انشقاق البحر، بل رفض الجميع بعناد إعطاءهم السفن اللازمة لبلوغ فلسطين.

مازال الغموض يلف ما حدث في النهاية. فقد اختفت آثار الأطفال، وقيل

إن قسماً منهم غادر بيزا على ظهر سفينتين أغرقتهما عاصفة بعد حين. وقيل أيضاً إن مجموعة أخرى منهم توجهت إلى روما، حيث حلها البابا من نذرها. ويزعم البعض أنهم تبعثروا في رانديزي. وهناك ما يؤكد أن تاجرين من مرسيليا شحنوهم على ظهر سبعة سفن غرقت منها اثنتان قرب سردينيا، بينما وصلت الأخرى إلى مرافئ في الجزائر ومصر، حيث أسروا وبيعوا عبيداً. أما من تخلفوا منهم، فقد خاب أملهم وفقدوا حماستهم وعادوا في تشرين الثاني إلى بلدانهم ببطون خاوية، وأرجل حافية، وأجسام عارية.

كان جلياً أن حملة صليب: (كهذه) مآلها الإخفاق. فلماذا لم يتدخل أهالي الأطفال، أو السلطات الكنسية وتلك التابعة للأمراء المحليين؟ لماذا ترك صبية صغار يذهبون إلى هلاكهم، وتم تشجعهم على تحقيق (مشروعهم)؟

حاول رجال دين إيقاف الحملات هنا أو هناك وتفريقها. لكن هذا عاد عليهم غالباً بغضب الناس، وأجبرهم على وقف محاولاتهم. من جانبهم، حبس آباء كثيرون أبناءهم، لكن هؤلاء كانوا يفرون وينضمون إلى رفاقهم. بل إن العاطفة الدينية للأهل، ونظرتهم الرؤيوية، انتقلت إلى الأطفال الذين أمكن شحنهم دوماً بالحماسة لبعض القضايا، وتعلقوا بحماسة عمياء ببعض الأشخاص، وقلدوا البالغين في ألعاب الحرب وغيرها، هذا كله صحيح. لقد كانوا يتبنون تصورات أهليهم، ثم يطورون منها تصورات خاصة بهم كالتصور الذي دفعهم إلى المشاركة في حملة الصليب، وأوهمهم أنهم لم يعودوا أطفالاً وإن كانوا في العاشرة من العمر، وأنه يجب اعتبارهم أعضاء في مجتمع البالغين منذ أن تنتهي رعاية أمهاتهم لهم. لقد كانوا يرون في أنفسهم بالغين[12]، فلم لا يتصرفون كبالغين. ولم لا يحق لهم القيام بمحاولة لانتزاع القبر المقدس من المسلمين. إذا كان آباؤهم قد أخفقوا، فهل يعني هذا أنهم سيخفقون بالضرورة.

لقد فكروا وتصرفوا، بمنظوراتنا الراهنة، كبالغين. وكان البالغون يعرفون أن أبناءهم «بالغين» لذلك سمحوا لهم بالمشاركة في كل الأنشطة الاجتماعية. إذا ما

تذكرنا الآن أن أطفال جنود جيش الصليب كانوا من عداده، وجدنا أن مشاركة الأطفال في حملة الصليب لم تكن شيئاً غير مألوف.

قال غيبرت فون نوغان «كان الأطفال يواصلون طريقهم، عندما كان أهلهم يموتون، وقد عوّدوا أنفسهم على المشقات وضروب الشقاء والحرمان، التي كان عليهم احتمالها، وأظهروا أنهم أنداد للبالغين من الرجال لا يختلفون عنهم في شيء»(13). على المرء أن يضع عواطفه جانباً، إذا كان يريد فهم ظاهرة الأطفال في حملة صليب.

عاش هؤلاء كبالغين، لكنهم بقوا من جهة أخرى أطفالاً تحيط بهم هالة البراءة. الطفل بطبيعته كائن في طور النقاء والبراءة، لذلك يعتبر قريباً من القديسين. فلماذا لا ينجح، تبعاً لإيمان الشعب البدائي، باحتلال القدس دون سلاح. ربما فسر ذلك لم عارض الآباء مساعي رجال الدين، التي تمت بنصف قلب، للحيلولة دون انخراط أطفالهم في الحملة الذاهبة إلى الأرض المقدسة. ولماذا لم يتخذوا جميعهم موقفاً حازماً من أبنائهم. لقد كان العقل يحتم اتخاذ موقف كهذا، لكن هذه النظرة العقلانية لم تكن مألوفة آنذاك.

انطلق الفقراء على طريق القدس، وها هم الأطفال يذهبون في إثرهم. يسارع الذين هم أكثر قرباً من يسوع إلى ملاقاته. إنها أحداث يمكن أن تجري في نهاية الزمن فقط؛ وقد آن للعالم الذي صار «قديماً ومتهالكاً» أن يتحوّل إلى عالم جديد على وشك البزوغ.

يستحضر الكاتب الفرنسي مارسيل شفوب بإلحاح أشواق الأطفال التي تنحاز «إلى الرب» والتي هي، في الوقت نفسه، أشواق عصرهم. تتحدث قصة هذا الكاتب عن «طفل يعيش عندنا اسمه أوشتاشيوس، قد كان ولد أعمى، فهو مفرد دائماً ذراعيه ويبتسم. إننا لسنا بصيرين أكثر منه. وهناك فتاة تقوده وتحمل صليبه اسمها إليس، لا تنطق ولا تبكي، بل تبقى عينيها مسددتين نحو قدميه،

لتسنده إن تعثر . . . لكن إليس ستأخذ يديه معها لتلمس بها أحجار القبر . . . وستمسك بها إلى نهاية الرحلة العظيمة، لأنها يجب أن تريه أرض الخلاص. ولأن أرض الخلاص ستظهر بالتأكيد تعاطفها مع صبر أوستاشيوس وستسمح له أن يراها، فربما كان سيتمكن من رؤية إليس الصغيرة أيضاً»[14].

8) الصاخبون والهامسون متزمتو الملكوت الألفي

كان القرن الحادي عشر مشبعاً بالأسلحة الكهنوتية والدنيوية، عندما نزل إلى حلبة الصراع ضد قوى الشر. ومع أن شوق البشر إلى ملكوت السلام كان شديداً، فإن شيئاً لم يشر إلى إمكانية قدومه حتى في القرون القادمة. تواصلت حملات الصليب، مع أن الإسلام كان أقوى مما اعتقد، وازداد رسوخاً في الشرق رغم الحملات الحربية ضده. وكانت القيصرية قد تبددت كقوة ضبط دنيوية بعد موت القيصر الأخير، فأخذ الأمراء يحكمون الإمبراطورية بعد أن حولوا القيصر إلى كرة تتلاعب بها مصالحهم. بينما عجزت البابوية عن الحفاظ على قوتها، بسبب المناكفات السياسية وتورطها في سياسات زمنية جعلتها هشة داخلياً، ثم أدت إلى إتباعها لملوك فرنسا، وإقامة كرسي رسولي ثان في أفينيون لخليفة بطرس، إلى جانب كرسي روما، فوجد أبوان مقدسان كان إيجادهما حدثاً مخيفاً للمسيحية. في

هذه الأثناء، انخرط العالم انخراطا جذرياً في الفوضى، وساءت أحواله إلى درجة كان من الصعب أن تزداد سوءاً.

بقيت الأزمنة غير آمنة في الفترات التالية أيضاً، فقد تحرك العالم وتفتت النظام المسيحي / الغربي الذي كان البشر يجدون لأنفسهم مكانا ثابتاً فيه. وتفككت وحدة كثير من الدول القومية. وفقدت الدولة نفسها تسويغها اللاهوتي الذي جعل منها أداة تنفذ مهمة إلهية وغدت تكويناً قانونياً، شأنها في ذلك شأن الكنيسة نفسها، التي خاضت صراعاً صعباً في سبيل استمرار الاعتراف بها مؤسسةً خلاصية. بينما تعالت نداءات تدعو إلى «إصلاح يطال رأسها وأعضاءها» يخلصها من أحوالها السيئة التي ضج الناس منها.

أما الإنسان، الذي أضاع بوصلته وترك وحيداً، فبحث عن انفراج روحي وجده في الدين، وذلك أدى إلى زيادة التدين الشعبي تزمتاً، وعبر عن نفسه في تقديس مبالغ به للرقى ورحلات الحج، التي لم تعد تتجه إلى بلدان نائية حصراً، بل قصدت كذلك أماكن قريبة مشكوكاً في قدسيتها، وفي طواف وعاظ جوالين عبر البلاد لتقبل التوبة، أقبل عليهم خلق كثير، ومارسوا نقداً قاسياً للأوضاع الكنسية.

عندما دمر الطاعون، الموت الأسود، أوروبا في عام (1349 م) تكونت أخويات جلادين أدمت مجموعاتها شديدة التعصب ظهور بعضها بعضاً بالسياط، ودعت الشعب إلى القيام برحلات غفران. كما تكونت تحت تأثير الصوفية في ألمانيا خاصة أخويات زمنية انسحب أعضاؤها من العالم مكرسين أنفسهم لتمرينات تقوية، وملتزمين بتقديم نذور رهبانية لبعض الوقت، مثلما فعل «أخوة وأخوات الحياة المشتركة» في منطقة الراين الدنيا.

أدى اختراع الطباعة إلى انتشار الكتابات الدينية، فكان بين المطبوعات نبؤات، وتنجيمات، ومواجز رؤيوية، وتخيلات حول زوال العالم تم استقاؤها

بصورة متزايدة من علم الفلك. لا تكذب النجوم، لذلك استخدمت أكثر فأكثر كمصدر للمعرفة وكإمكانية للتنبؤ بالمستقبل. أما الشيء الرئيس الذي قرؤوه فيها فتركز على أن هناك نهاية لهذا العالم.

قبل بداية الإصلاح اللوثري، حفلت نهاية القرن الخامس عشر بتخيلات حول زوال العالم، وشعر كل إنسان تقريباً أنه منجذب إلى الدوامة وراوده الأمل بقدوم فردوس جديد؛ وحتى عندما كان الناس يقاومون هذا الانجذاب، فإنهم كانوا لا ينجحون في البقاء بمنأى عنه. «لذلك أسلموا أنفسهم للتيار الذي أذهلهم ضجيجه وتدافعه، وبقيت أعينهم موجهة نحو الفوران المضطرم عند مهاويه، واستولت عليهم متعة رؤيته أكثر قتامة بكثير مما هو بالفعل»[1].

عرف القرن الثاني تطوراً سعّر من جديد نار انتظار الخلاص من خلال الملكوت الإلهي. فقد انسحب الراهب يواخيم فون فيوره، حوالي الأعوام (1130 – 1202 م) في كالابريا الإيطالية من الحياة العامة، بعد عمر كان قد أمضاه في التجوال، ليتعمق في دراسة رؤيا يوحنا ويستقصي مسألة ما إذا كان يمكن للمرء أن يتعرف فيها الأحداث المستقبلية، لاعتقاده أن الرؤى تفسر الحاضر. تنقسم صورة العالم المسيحية بالأصل إلى قسمين: زمن سابق لحياة المسيح الأرضية وآخر لاحق لها. فإن عاد المسيح من جديد بدأ يوم الدينونة، واندرج الزمن الأرضي في الأبدية أو امتد لألفية أرضية أخرى.

توصل يواخيم، بعد جهود مكثفة، إلى نتيجة مختلفة، ترى أن زمن العالم لا ينقسم إلى قسمين بل إلى ثلاثة: زمن للأب، وزمن للابن، وثالث للروح القدس. وقد بدأ الزمن الأول بإبراهيم، واستمر عبر الأجيال إلى مولد المسيح تقريباً. هذا هو زمن العهد القديم والشرائع والأنبياء. يخضع الزمن الثاني لسيطرة العهد الجديد ولملكوت الرب والكنيسة، ويخضع الزمن الثالث للروح القدس: (للبشارة الأبدية) من رؤيا يوحنا، وهذه ليست كتاباً جديداً يمكنه أن يتخطى الإنجيل، بل هي معناه الأجلّ والأسمى. في الملكوت الثالث للروح تتم الإطاحة

بعظماء وجبابرة هذا العالم، ويكون خلاص الفقراء والضعفاء.

بودنا أن نتساءل لماذا لم يصل أحد قبل الآن إلى الفكرة الجلية، التي تعطي الروح القدس مكانه في الزمن الأرضي، وتعين الثالوث الإلهي على بلوغ أقصى فاعليته هنا واليوم، في مكاننا وزماننا. الأب والابن، هذان كانا حقيقتين تاريخيتين بنت كل واحدة منهما على الأخرى، وستبلغان أعلى درجاتهما في زمن الروح القدس. لهذا، لن يكون هناك ملكوت أُخروي بل ملكوت أرضي فقط. ولأنه سبق له أن تعين من قبل الروح، فإن إنسان الأرض لم يعد محتاجاً إلى كنيسة، أو بابا، أو أسرار مقدسة، أو رجال دين - لأنه لم يعد هناك من ضرورة لهذا كله في ظل روح هي الكمال ذاته. وقد توصل يواخيم إلى أن الملكوت الثالث سيظهر عام (1260 م).

رفضت الكنيسة، بطبيعة الحال، اكتشافات الراهب الكلاباري. ولم تتخذ أي إجراء ضده في حياته، لكنها دانت تعاليمه بعد نصف قرن من موته، فجعلتها بذلك أكثر جاذبية وقدرة على الإبهار، خاصة بعد أن تكفل الوعاظ بنشرها في الشعب، وأخذ علماء الفلك والمتنبؤون يستشهدون بها ويستندون إليها. من جانبها، رفضت الكنيسة أكثر من أي وقت مضى السنوات الألف، التي غدت الآن ملكوتاً تحت سيطرة الروح القدس ليس فيه مسيح أو قديسون. لكن النزعة الألفية انبعثت من جديد، فلم تجد الكنيسة مفراً من التسليم بها، على مضض.

أشعل انتظار الملكوت المتأجج من جديد فتيل المتفجرات الاجتماعية والسياسية، التي كانت قد تراكمت وارتبطت بالأفكار الدينية خلال الفترة المنصرمة. إنه لأمر جلي أن حروب الهُوسِيّين نسبة إلى جان هوس، وحرب الفلاحين كانت مطبوعة بطابع ألفي. كما أن التعصب الديني بيّن وصريح في هذه الأحداث جميعها، وهو يبلغ ذروته في قضية مجددي العماد في مُنستر.

أطلق اسم (طابور) على أوشتي في جنوب بوهيميا تيمناً باسم جبل الزيتون الذي تحدث المسيح عليه عن نهاية الزمن، وأعلن منه قيامته وعودته. هذا الموقع،

صعد يسوع منه إلى السماء، وهو سيعود منه بكل بهائه وقوته. وأطلق اسم: (الأردن) على نهر لُوشنيتز. بذلك انتقل الهوسيون إلى الأرض المقدسة، رغم أنهم بقوا فعلياً في بوهيميا. وكان هؤلاء، أو بالأصح جناحهم الجذري - أي الطّابُوريّون قد أقاموا مستقراً على الجبل اتسم بأعظم قدر ممكن من البساطة، غرفه مِن ألواح خشبية وأكواخه من طين، وكان قائماً عندما زاره عام (1451 م) آينياس سيلفيوس، الذي عرف لاحقاً باسم البابا بيوس الثاني. هنا، انتظر القوم نهاية الأزمنة، حين كانت جموعهم المقاتلة لا تقوم بتدمير الأرياف وتقتيل الناس. فهل نستطيع اعتبارهم ثوريين اجتماعيين شيوعيي التوجه، يتسمون ببصمة قومية تشيكية واضحة.

انتسب وريون إلى حركة شقت طريقها بالعنف، عندما أعلن نبأ إحراق جان هوس عام (1415 م). انعقد مجلس أساقفة في مدينة كونستانس على بحيرة بودن عام (1414 - 1418 م) تركز الموضوع الذي بحثه على إنهاء انشقاق الكنيسة الذي أدى إلى وجود بابوات ثلاثة في وقت واحد، اختارتهم ودعمتهم قوى متنافسة، وذلك جعل الكنيسة الكاثوليكية التي كانت موحدة في الماضي، تبدو كمؤسسة هزيلة تثير السخرية. ناقش الأساقفة كذلك سبل التخلص من الأوضاع السيئة التي تعانيها الكنيسة، وتداولوا في أمر إصلاحها وفي قرار حول طريقة التعامل مع تعاليم هوس. أما الآباء الثلاثة محدودو القداسة، فقد أجبرهم المجلس على الاستقالة وانتخب بدلاً عنهم بابا جديداً حظي باعتراف عام هو مارتن الخامس. أخفق إصلاح الكنيسة، لكنه تم وضع حل يتفق مع نظرة الكنيسة إلى جان هوس، يرى فيه هرطوقاً يجب أن يدان ويموت حرقاً.

كان هوس عميد جامعة براغ ونصيراً متحمساً لأستاذ جامعة أوكسفورد جون ويكْليف (1324 - 1348 م) طالب مثله بحق الناس العاديين في منح القربانَ، وأَلح على الوعظ الحر بكلام الرب، وقال بضرورة أن يكون رجال الدين فقراء كحواريي المسيح؛ وهي مطالب أيدها الشعب بحماسة. إلى ذلك،

جمع هوس بين مقاصده الدينية وبين مطامح قومية تشيكية موجهة ضد تفوق الألمان الثقافي والاقتصادي في بوهيميا. فرض أسقف براغ الحرمان الكنسي على هوس، لكن القيصر سيجسموند ضمن له حرية السفر إن استجاب لدعوة مجلس كونستانز. وقد كان ساذجاً إلى حد أنه وثق بكلمة القيصر.

انفجر غضب التشيكيين العام في صورة ثورة على الكنيسة. وتزعم النبلاء الحركة القومية التي انتهت إلى صراع خيض بأعظم قدر يمكن تصوره من القسوة والشدة، سقط رجال الدين بالدرجة الأولى ضحايا له، وفقد الكهنة خلاله أملاكهم في الريف والمدينة. وقد صب الملك فِنْتْسِل عام (1419 م) الزيت على نار الانتفاضة، عندما أعاد الكهنة المطرودين إلى مناصبهم في براغ، وعين أعداء موصوفين للهُوسِيّين في إدارة المدينة.

اقتحم الجمهور المستفز مبنى البلدية، وألقى بحملة المناصب الجدد من نوافذه، وتولى عمال حرفيون الإدارة بدلاً منهم. هكذا أدت سياسة فِنْتْسِل قصيرة النظر إلى تسعير المعارك العسكرية التي دخلت التاريخ تحت اسم: حروب الهُوسِيّين. وكان قد نشأ معسكران داخل الحركة: المعتدلون الأوتراقيون، سموا هكذا بسبب مطالبتهم بكأس العشاء الرباني لغير الكهنة أيضاً، والطابوريون الجذريون.

صاغ الهُوسِيّون برنامجهم العام في بنود أربعة، يجب اعتبارها معتدلة بالقياس إلى الظروف الدينية والسياسية. وإن كان الطابوريون قد أعطوا الأولوية لحل ثوري للمسائل الاجتماعية، وأضفوا شرعية مسيحية على مطالبهم، مقدمين بذلك خلطة يصعب إيجاد ما هو أكثر تفجراً منها، احتل جبل طابور مركزها. كان أتباع الجذريين من الطبقات الفقيرة والمحرومة في المدينة والريف كالعمال المياومين، ولصوص النهار، والعاهرات، والشحاذين والمجرمين، تجمعت حثالة الشعب حول الطابوريين تحركها أهداف غائمة، ويوحدها الإيمان بأنه سيكون لمحنتها نهاية إذا ما عاد المسيح أخيراً، لأن سنوات السعادة ستأتي معه.

لخص كهنة سابقون في مواعظ ثورية معتقدات الرأي العام، وبينها القضاء

على مساوئ العالم، والإيمان بأن الكنيسة الكاثوليكية هي عاهرة بابل، والبابا هو المسيح الدجال. وبأن النهاية مباشرة وتوشك على الحدوث، وبأنها ستحترق كل المدن والقرى بين (10 و 14 شباط من عام 1420 م) التي ستتحول مثل سدوم، إلى رماد، وبأن غضب الرب سيدمر كل من لا يلتحق بقلاع الطابوريين وهي خمس مدن بوهيمية: منفذي إرادة الرب، الذين سيقتلون جميع أعدائه بالسيف وسيحرقونهم بالنار!. عندما سيباد هؤلاء، سيظهر الرب ليقضي على أية سلطة دنيوية مهما كان نوعها، بضرائبها وفوائدها وأتاواتها، وعلى الملكية الخاصة. عندئذ، «سيعيش الجميع كأخوة ولن يكون أحد رعية لغيره بعد ذلك». وسيقوم مجتمع خال من الطبقات، مجتمع شيوعية مسيحية. «وسيقتل جميع البارونات والنبلاء والفرسان، وسيبادون في الغابات منبوذين»[2]. بل إن الأمر لن يقف عند هؤلاء، فقد كان الطابوريون يعتزمون القضاء في المستقبل على تجار المدن، وخاصة منهم تجار براغ، التي كانوا يسبونها لاعتقادهم أنها: (بابل) جديدة. ما أن يتم تنظيف بوهيميا من مرتكبي الشر، حتى يبدأ تنظيف العالم، حيث ستنجز بالسيف والنار الأعمال التي ترضي الرب. بعد ذلك «سيكون جميع الملوك خدماً لهم، وسيقضى على أي شعب يرفض خدمتهم».

انطلق الهُوسِيّون، وأنظارهم مثبتة على نهاية العالم، في بوهيميا أول الأمر، حيث قادهم بطريقة فذة يوهان تشيسكا، المنظم والتكتيكي البارع المتحدر من صفوف صغار النبلاء. هكذا تقلب جيش غامض مشحون بالتعصب والنزعات الألفية عبر البلاد، ناهباً القصور والأديرة ومحرقا الكنائس التي وجدها في طريقه، معبِّراً بهذه الطريقة عن الخلطة المتفجرة التي جمعت انتظار نهاية الزمن مع عقد نجمت عن الدونية الاجتماعية. حين بلغ دوي الانفجار مسامع روما، دعا البابا مارتن الخامس المسيحية إلى حملة صليب ضد الهرطقة البوهيمية، منّى المشاركين فيها بغفران تام. بيد أن الحملة وما تلاها من حملات لم تجد نفعاً، لأن الطابوريين كانوا يقاتلون بشراسة ونجاح. عندما مات تسيسكا عام (1424 م) بالطاعون،

تولى القيادة الكاهن بروكوب، بينما كان المحاربون الأشداء ينقلون هجماتهم إلى ألمانيا، حيث بلغوا عام (1430 م) لايبزيغ، نورمبرغ، وبامبرغ، وبعثوا الرعب في أوصال أوروبا بأسرها.

لم يكن الإبقاء على التوتر الألفي العالي للطابوريين ممكناً، فالاندثار الذي تنبؤوا به لعام (1420 م) لم يحدث، والخيبة التي نجمت عن ذلك كانت هائلة. كما أثبت التعلل بأمل حدوثه في الأعوام القادمة خطأه، وتبدد الأمل وسقط التبرير الديني للحروب، التي تحولت إلى قتل صرف يخالطه الجشع. لهذه الأسباب، انخرط الطابوريون، الذين لم ينجحوا أبداً في تقديم برنامج ملزم، في ظلّ تفكك داخلي زاده تفاقماً عجزهم عن ترجمة انتصاراتهم العسكرية إلى وقائع سياسية، واتساع الهوة اتساعاً متزايداً بينهم وبين أوتراقيي براغ.

انتهت النزاعات إلى معركة دامية بين الحزبين هزم فيها الطابوريون بقيادة بروكوب. ومع أنهم استأنفوا كفاحهم بقوى قليلة لبعض الوقت، وحافظوا بشق الأنفس على جبل طابور في وجه هجمة قيصرية، فإنهم ما فتئوا أن أرغموا على تسليم كهنتهم عام (1452 م) فلفظت الحركة أنفاسها الأخيرة دون أن يقضى تماماً على النزعة الألفية في بوهيميا. واصلت النزعة حياتها في الخفاء، وبقي ملكوت الرب شأناً من شؤون الروح، كما كان دوما.

تثير مناقشات بوريين حول جواز شن حرب دينية الأهداف الاستغراب إلى حد ما، باعتبار أن مطالبتهم الصريحة بالقضاء على الكفار بالاستناد إلى نصوص الإنجيل ليست سوى سوء فهم كارثي لها.

تشترك جميع الحركات الدينية، شبه الدينية، أو المطبوعة عموماً بطابع نظرة شاملة إلى العالم في خصيصة تميزها جميعها هي التخلي عن العقل والفهم، أو استعمالهما لتسويغ الضرورة الحتمية للحركة بحجج تبدو عقلانية ظاهرياً. في هذه الحالات جميعها، يسوّغ المرء الحرب بكتابات أضفيت عليها القداسة،

كرؤيا يوحنا في الإنجيل والنبوءات التي لا حصر لعددها التي قدمها أشخاص نصّبوا أنفسهم أنبياء، أو يضيع في فراديس الشيع الدينية. وتبقى الترسيمة التي تجري وفقاً لها الانتفاضات واحدة على الدوام. عندما ينفجر عصيان مشروط اجتماعياً أو سياسيا، نجده يربط نفسه أول الأمر بمطالب معتدلة. لكن السلطات ترفضها أو تستجيب لها بنصف قلب، وتبدأ بإعداد ضربة معاكسة تصعّد بها الأوضاع. يشعر المحرومون عندئذ بالاستفزاز، فيطلقون مطالب جديدة أكثر حدة، ويقومون بتمردات أخرى، فيكون التطور الجديد فرصة يقتنصها رجال دين متطرفون، جذريون، كي يستولوا على الحركة، ويتبنون مطالبها ويؤدلجونها. بذلك يتصعد الصراع إلى آفاق أعلى، حتى يصل إلى مرحلة تجعل منه صراعاً نهائياً ضد المسيح الدجال، تحوله المطالبة بالمشاركة السياسية في كتيبة المدينة، وبتقليص الأعباء الضريبية وفوائد الربا ثقيلة الوطأة، إلى صراع ضد الشر بوجه عام، يجعل المنتفضين مقاتلين في سبيل الرب، يستعجلون قدوم الملكوت الألفي بتضحياتهم، وتصير الحرب الاجتماعية حرباً دينية تخاض بأعظم قدر يمكن التفكير فيه من المرارة، تنتهي بالانتصار أو الموت.

ينطبق هذا الأنموذج على حروب الفلاحين أيضاً. كان شعب الأرياف قد وجد في مذهب مارتن لوثر حول كهانة المؤمنين العامة دعما جديداً لشرعية مطالبه الاجتماعية، وصوغاً لبعض أهدافه السياسية. يقول لوثر في: مقالات الفلاحين الإثني عشرة، بين أشياء أخرى: « . . . إذا كان العرف قد رأى فينا إلى الآن قوماً خاصين يستحقون الرحمة، خلصهم المسيح وافتداهم بدمه. فإن ذلك يترتب عليه، طبقا للكتاب المقدس، أننا أناس أحرار».

عارضت برامج أخرى: الحق الروماني، وشركات التجارة الكبرى، والاحتكارات، وأيدت صك عملة موحدة وإقامة سلطة قيصرية قوية في الإمبراطورية. تلك كانت مطالب معتدلة بوجه عام جعلت بعض مدن الإمبراطورية الصغيرة، وبعض الفرسان من أمثال غوتس فون بيرليشنغن

وفلوريان غاير ينحازون إلى الفلاحين، في حين تململت البرجوازية الصغيرة في المدن الأسقفية الفرنكية بسبب الظروف الكئيبة.

لا داعي للقول إن القسم الأكبر من الأمراء رفض التفاوض مع الفلاحين، الذين لجؤوا الآن (نحن في عام 1525 م) إلى العنف، وامتدت انتفاضتهم بسرعة من مقاطعة شفابن عبر الألزاس والأراضي الألبية وفرنكن وتورينجن إلى منطقة الهارتس. عندما اتسعت أعمال الحرق والقتل والنهب . . . الخ تدخل الأمراء، فلم يستطع المنتفضون الثبات أمام جيوشهم المجربة في ميادين القتال. قمعت العصبة الشفابية فلاحي شفابن وفرانكن، وأخضع أمير الألزاس الفلاحين بوحشية، وأبيدت تجمعات الهُوسِيّين والساكسونيين في تورنغن قرب فرنكنهاوزن.

تزعم فلاحي تورنغن قس بروتستانتي اسمه توماس مُنتسر، آمن ككثير من معاصريه، أنه يعيش على حافة نهاية الزمن. وكانت الأوضاع تبدو وكأنها تشير بالفعل إلى اقتراب النهاية، كما ساد شعور رؤيوي عالمي. يقول مُنتسر (في خطبة الأمراء التي ألقاها في شهر تموز من عام 1524 م): «ليس لإنسان كافر الحق في العيش حيث يكون عقبة في وجه الأتقياء» وهذا إقرار صريح بضرورة العنف.

لقد امتلأ الزمان. وها هوذا الملكوت الجديد يظهر، فلا بد للقس من تسهيل ولادته: «على المرء استئصال النبات الشيطاني من كرمة الرب في زمن جني المحصول، ليضرب القمح الأحمر الجميل بجذور ثابتة في الأرض وينمو منتصب السنابل، على أن يكون معلوماً أن الملائكة الذين يشحذون مناجلهم لجنيه ليسوا غير أول عبيد الرب، الذين يوصلون بحماسة الحكمة الإلهية إلى تمامها». يتطلب الشرع الإلهي، كما يقول الواعظ: «قتل الأوصياء الكفار، وخاصة منهم الكهنة والرهبان، الذين ينقلون إلينا البشارة الإلهية كزندقة» (موعظة الأمراء).

تدخل مُنتسر، الذي كان يعيش منذ عام (1524 م) في مولهاوزن من أعمال تورنغِن، في الاضطرابات السياسية والاجتماعية. هنا، كما في أماكن أخرى كثيرة،

كان الناس يتذمرون منذ وقت طويل من مجلس البلدة، الذي احتكر السلطة واتهم بسوء الاقتصاد. كما كانت قد تعالت احتجاجات ضد إعفاء رجال الدين من الضرائب وضد حياة التشرد، فكان الوضع متوتراً، وانقلب التذمر إلى عنف متخذاً من الكنائس والأديرة أهدافاً مفضلة لهجماته.

تلت ذلك انتفاضة قمعت بسرعة. لكن قيادة تشكلت في الفترة المنصرمة بزعامة مُنتسر أسميت (عصبة الرب الخالدة) ينتمي إليها العادلون الذين يعتبرون أنفسهم مختارين، والذين سيستمتعون بمسرات الملكوت الألفي البادئ. شرع مُنتسر يعظ داعياً إلى الكراهية والنهب والسلب وإلغاء كتائب المدن. وحين انتقلت أحداث مولهاوزن إلى الريف تعاظم التوتر بين السلطات ورعاياها، وعُدّت الخطب النارية التي دأب على إلقائها في كل مكان سبب ما يجري.

في هذا الوضع، تغلغلت انتفاضة الفلاحين من فرانكن إلى ثورنغن. ورأى الواعظ في جموعها محاربين أرسلهم الرب انخرطوا في القتال ضد الشر. بذلك صار قائداً للفلاحين وأضفى قداسة فكرية على نضالاتهم، بينما كان يحرض عمال مناجم مانسفيلدر على خوض القتال النهائي: «تعالوا، تعالوا، تعالوا. هذه هي اللحظة المناسبة. لقد خاب الأشرار كالكلاب . . . انضموا إلينا، انضموا إلينا، فالنار حامية. لا تدعوا سيفكم يبرد، لا تدعوه ينثلم؛ إن الرب يتقدمكم» (بيان إلى صبيان المناجم في مانسفيلد) أصدر يوم (26 نيسان عام 1525 م).

انتهت الحرب بكارثة فرانكنهاوزن، التي قتل الفلاحون فيها بالجملة، ولم ينج منها غير قلة بينهم مُنتسر، الذي نجح في الهرب أول الأمر، لكنه سرعان ما ألقي القبض عليه، وتعرض لأفظع تعذيب يمكن تصوره، قبل أن يشنق في أيار من عام (1525 م) قرب مولهاوزن. لقد أغرق حلم الملكوت الألفي بالدماء.

كان العِماديّون، أو (مجددو العماد) كما أسماهم أولريش تسفينغلي، فئة من أغرب أشكال التدين التي ظهرت في ركاب الإصلاح اللوثري. وقد ضم هؤلاء

مجموعة متنوعة إلى درجة محيرة، اشتركت أطرافها في المطالبة بتعميد البالغين، وفي رؤيوية تهيئية قالت بضرورة اعتماد المؤمن على نور نبوي خاص، هو (النور الداخلي). أراد العماديون أن تتكون جماعاتهم من قديسين حقيقيين، كي يقبلوا جميعهم في الملكوت الألفي الأرضي باعتبارهم الجماعة الحقيقية للمسيح، جماعة المختارين. هؤلاء (المهووسون) كما يسميهم حكم بروتستانتي، تحدر معظمهم من الفئة الاجتماعية الدنيا. وجعلتهم حماستهم للنزعة الألفية بروتستانتيين هامشيين، تميزوا، مقارنة بوضعهم وعددهم، بدينامية لا مثيل لها.

عرف العماديون للمرة الأولى في الأراضي الألمانية باسم (أنبياء تسفيكاو). وتركوا انطباعاً جيداً جداً لدى إصلاحيي فيتنبرغ، حتى أن كارلشتاد، شريك لوثر في الإصلاح، وقف معهم، كما ساور الشك فيليب ميلانغتون: «قادتني أسباب ثقيلة الوطأة إلى الامتناع عن الإقلال من قيمتهم، خاصة أن هناك قرائن كثيرة تؤكد سيطرة عقول معينة عليهم»[3].

غادر لوثر الساخط منفاه على الفارتبورغ ليعيد مواطنيه في فيتنبرغ إلى النظام. قبل ذلك، في شتاء عام (1520 م) كان مُنتسر قد تعرف في تسفيكاو على نيقولاوس شتورخ، وخرج بانطباع مؤثر عن هذه الروح العمادية المفعمة حماسة، وقال إن هذا الرجل الأمي عرف الروح الحقيقية للكتاب المقدس، وإن الرب أدركه مباشرة.

كان صانع المناشف هذا نحيلاً، يلبس رداء بنياً طويلاً ويعتمر قبعة عريضة الحوافي، ينتقل من مكان لآخر واعظاً سامعيه حول «الاستنارة الداخلية» وممارساً تأثيراً هائلاً عليهم. عندما أعلن قرب قدوم الملكوت الألفي، تحمس هؤلاء. وحين قال إن الأتراك والمسيح الدجال سيسودون، لشديد الأسف، لفترة قصيرة، بدا لهم ذلك معقولاً، فالإمبراطورية العثمانية تحتل فعلاً جنوب شرق أوروبا، والمسيح الدجال شخصية إنجيلية. هكذا انتظر أتباعه زوال العالم، الذي سيكون مقدمة لقتل كل الكفار وعودة المسيح. . .

كان بين المنتظرين شخص اسمه ميلشيور هوفمان. هذا الرجل الذي أشرق نوره الداخلي كان ،تاجر فراء كثير التجوال من شفابن، سبق له أن ألقى مواعظ في إيفلاند، والسويد، وهولندا، وستراسبورغ، حيث توفي في السجن عام (1543 م). حدث هذا كله في الفترة التالية لحروب الفلاحين، التي شهدت تراجعاً في انتظار نهاية العالم أدى إلى تبدده، وإن كانت خيبات العصر أبقته حياً لدى أشخاص متفرقين كهوفمان، الذي نجح في رعايته لدى حلقات عمادية كثيرة.

يقنع الآخرين من كان هو نفسه مقتنعاً بقضيته. كان هوفمان شخصاً كهذا، تجمع عديد من أتباعه الهولنديين في روابط دينية انتظر أعضاؤها نهاية العالم جماعة، وأسموا ميلشيوريين، ظهر من بين صفوفهم أولئك الذين أقاموا ملكوت المسيح في مدينة مُنستر.

زعم هوفمان أن الملكوت سيأتي عام (1533 م). وقال إنه سيقوم من جانبه باستباقه «كإليا ثان» وإن ستراسبورغ في الإلزاس ستتحول إلى أورشليم سماوية. أيد شخص غامضٌ أقواله، وزعم أن هذا المنوّر سيدخل السجن قبل تحقق نبؤته. عند هذا، توجه هوفمان إلى ستراسبورغ لنشر رؤيته بين المواطنين.

استغرب معظم الناس أقوال الشخص الهوائي وتجاهلوه أول الأمر. وشجعهم على تجاهله واقعة ظهور أنبياء مختلفي الأشكال والألوان في تلك الحقبة المضطربة، دأبوا على الانتقال من مكان إلى آخر. ثم أن هوفمان هذا لم يأت بجديد في دعوته، بل قال كغيره بوجوب قتل كل الكفار، كي تظهر القدس الجديدة. الآن تدخل مجلس المدينة وألقى به في السجن.

خلع الرجل المبتهج حذاءه، وأقسم أن يعيش على الخبز والماء «إلى أن تحين الساعة التي سيشير فيها بيده إلى الذي أرسله» (4). لقد وجد نفسه مجبراً على الصيام لفترة طويلة جداً، لأن من «أرسله» لم يظهر ذلك العام، وفي العام التالي، وفي عام (1536 م) كذلك، مما عرّض هوفمان لأزمة شديدة، بينما أبقى مجلس

بلدية ستراسبورغ الرجل المسكين وراء القضبان، حيث أصيب بمرض عضال عام (1543 م) بعد عشرة أعوام من الحبس، وتوفي بعد قليل.

انتسب هوفمان إلى ذلك النمط من المتعصبين المعتدلين والهادئين، الذين يقابلهم الآخرون بالإشفاق والابتسام وهز الرأس والكتفين وحركات الأيدي الحائرة. ومع أنهم يبدون مزعجين وثقلاء، فإنهم لا يشكلون خطراً على مجتمعهم في العادة. أما الملشيوريون، الذين أقاموا عام (1534 م) (ملكوت صهيون) في مُنستر من أعمال ولاية فِسْتْفالِن، فانتموا إلى طراز مختلف أشد الاختلاف، أسس نظام إرهاب وسلطة رعب، ومثل أرهب حالة انحراف عرفها العماديون.

بدأ الأمر مع بيرنت روثمان، رجل الدين الكاثوليكي، فالبروتستانتي، فالواعظ العمادي، الذي كان رجلاً موهوباً تمتع بفصاحة خارقة، كشفت مواعظه شيوعية المسيحية الأولى التي نشرها كمثل أعلى لجماعة مسيحية حقا تنظم حياتها على طريقة المسيحيين الأوائل، تسود فيها ملكية مشتركة لكل الأشياء.

تلقف المعدمون داخل مُنستر وخارجها أقوال الواعظ بغبطة خاصة، «وتدفق على المدينة وتجمع فيها هولنديون، وفريزيون، وأشرار لا يطيقون البقاء في مكان واحد» حسب قول إحدى الحوليات. تؤكد معلومات أخرى قدوم متبطلين وأناس سبق لهم أن بددوا ثروات أهليهم في الترف والتبذير، جاؤوا إلى مُنستر طمعاً في أكياس نقود الكهنة والأغنياء. ربما كانت هذه تقارير مغرضة كتبت من وجهة نظر من لا مصلحة لهم في تجمع الفقراء. لكن صار مؤكداً أن من انضموا إلى العماديين، أو جاؤوا إلى مُنستر، انتموا في غالبيتهم إلى محرومي الريف والمدينة، وإلى عناصر إجرامية.

كانت الحرف تركز آنذاك مطالبها على المشاركة في كتيبة المدينة وإدارة شؤون مُنستر البلدية. ذلك كان زمن تشاجر فيه أتباع لوثر بعنف شديد مع مواطنيهم الكاثوليك حول الإيمان الصحيح، سادت فيه أوضاع دينية وسياسية مضطربة

ومحيرة زادها العماديون حيرة واضطراباً.

حاول مجلس المدينة منع روثمان من إلقاء خطبه التحريضية. لكن جهوده باءت بالإخفاق بسبب كثرة أتباع الواعظ. عام (1534 م) احتدم الوضع، حين ظهر في مُنستر «حنوك» و«إيليا» النبيان اللذان تقول التصورات الألفية إنهما سيعودان إلى الأرض ليعلنا عودة المسيح. هذان النبيان كانا الهولنديين يان ماتياس، الفران من هارليم، وهو شاب طويل ونحيل له لحية طويلة سوداء، ويان بوكلسون، الخياط من لايدن. انتسب هذان إلى أوساط الملشيوريين، الذين كان معلمهم قابعاً في سجن ستراسبورغ ينتظر أورشليم الجديدة دون يأس. في هذا الوقت، سرت شائعات تقول إن السيد وجد ستراسبورغ غير جديرة بما اختاره لها، وإن مُنستر ستكون أورشليم الجديدة، لأن العماديين أخذوا موطئ قدم لهم فيها.

قام الهولنديان بأنشطة عمادية مكثفة، فتدفق الشعب عليهما، بمن في ذلك راهبات وزوجات مواطنين أثرياء. ويقال أنه تم تعميد (1400) بالغ في أول أسبوع لهما في المدينة. نقل الهولنديان مُنستر إلى حالة نشوة دينية خلال فترة قصيرة، عززها نجاحهما في كسب تأييد مجلس المدينة الجديد، الذي انتخب في شباط من عام (1534 م) بصورة روتينية. من جانبهم، غادر مواطنون كثيرون مُنستر تحسبا لما قد يحدث.

كان ماتياس وبوكلسون إرهابيين يحركهما هوس ديني جعل مدينة عشرة الآلاف نسمة، التي تعيش من التجارة والحرف، نزل مجانين. وقد أيدهما بقوة بعض المواطنين من أمثال تاجر المناشف بيرنت كنيبردولينغ، رئيس مجلس بلديتها الجديد.

سعى الضغط الرؤيوي الشديد إلى التعبير عن نفسه من خلال هيجانات مفعمة بالوجد والنشوة، جعلت الناس يركضون صارخين عبر شوارع وأزقة المدينة، يعلنون وصول الرب وانطلاق الجيوش السماوية وسقوط السماء، بينما نزع بعض النسوة ثيابهن عن أجسادهن.

لابد لمن يريد امتلاك مسكن في أورشليم السماوية أن يكون طاهراً. ولابد للطاهر أن يكون مؤمناً حقيقياً، أي عمادياً. أما الآخرون من لوثريين وكاثوليك فليسوا أطهاراً، بل هم مفعمون بالإثم وخطرون على المشروع العظيم ويستحيل بناء مجتمع القديسين معهم، فلا مفر من تطهير القدس الجديدة منهم.

أراد ماتياس شنق هؤلاء، فاقترح كنيبردولنغ طردهم من المدينة. وهذا ما كان. في صبيحة يوم 27 شباط، وكان يوما شديد البرودة بسبب عاصفة ثلجية، ضجت مجموعات مسلحة عبر شوارع مُنستر صارخة: «أخرجوا أيها الكفار ولا تعودوا أبداً، لأنكم أعداء الأب»!. ثم قامت بطرد المواطنين المذعورين من منازلهم ومن المدينة: رجالاً ونساء وأطفالاً وشيوخاً وأمهات ورضّعاً، دون أن تسمح لهم بحمل النقود أو الثياب أو المواد الغذائية. أما من بقي منهم، فعمد بالإكراه في ميدان السوق. أخيراً، يوم (3) آذار، اعتبرت مُنستر مطهرة من المؤمنين المزيفين.

فرض حاكم المدينة، الأسقف الأمير فرانز فون فالديك، الحصار عليها، ملقياً بمواطنيها في أحضان مجاعة رهيبة. بينما كان ماتياس ومحازبوه يقيمون النظام الاجتماعي الجديد، ويجبرون الناس على تسليم ممتلكاتهم، التي خزنت أو وزعت على الفقراء. من الآن فصاعداً، صار الاعتراض على تدابير العماديين خطراً يعرض صاحبه للقتل، وغدا امتلاك المال جريمة تستحق الموت، ومثل ذلك امتلاك أي كتاب غير الإنجيل.

حاول ماتياس الخروج من المدينة، فألقي القبض عليه وقطعه المحاصرون إرباً إرباً. عندئذ، تولى بوكلسون زعامة النظام الإرهابي، وبلغت المأساة ذروة احتدامها وتحولت إلى لعبة ملهاوية تعاظمت فظاعتها بلا انقطاع.

كان بوكلسون فتى وسيماً وحالماً في الخامسة والعشرين من العمر شعر منذ طفولته بميل لا يقاوم إلى المسرح. وقد كتب بالفعل مسرحيات عرضها وتولى بعض الأدوار فيها. ثم تعلم حرفة الخياطة دون رغبة منه، وجرب حظه تاجراً

لكنه أفلس بسرعة. في هذه الشروط، رأى الشاب في العماد حرفة بلغ قمتها في مُنستر، فكان محتماً أن تظهر صفاته المرضية على حقيقتها. من ذلك أنه جرى ذات مرة عارياً عبر الشوارع وهو في حال من الهيام الديني، ثم انخرط في تأمل طوال الأيام الثلاثة التالية، أعلن بعده أنه تلقى وحياً إلهياً يخبره أن أنظمة المدينة يجب أن تكون جميعها من صنع البشر، ويأمره بتولي حكومتها مع اثني عشر شخصا من كبار السن. بعد حين، سن بوكلسون قوانين جعلته السيد المطلق والآمر الناهي، وضعت موت وحياة مواطنيه في يديه.

كان الأخذ بتعدد الزوجات أول أمر يصدر عن بوكلسون، الذي أسكت اعتراضات الواعظين وأعضاء المجلس بإشارة إلى كشف إلهي يجعل قول الإنجيل «كونوا خصبين وزيدوا عددكم» أمراً إلهياً واجب الطاعة. وقد تزوج هو نفسه، رغم أنه كانت له زوج في هولندا، من ديفارا، أرملة ماتياس الجميلة الشابة، التي ما لبث أن أتبعها بأربع عشرة امرأة أخرى لا يتجاوز عمر أية واحدة منهن عشرين عاماً. وقد اقتدى الآخرون به. أما نساء مُنستر، فقد ترددن أول الأمر، ثم انضممن إلى اللعبة، إذ لم يكن في المدينة غير عدد جد قليل من الرجال.

عندما نودي به ملكاً ومسيحاً لنهاية الزمن، احتل بولكسون القمة بصورة نهائية. حدث هذا مع إعلان الواعظين أن المسيح عاد أخيراً في شخص بوكلسون. وقالوا إن ملكوت صهيون قد قام، فكان ذلك مسخرة مرعبة قدر ما هي مضحكة.

كان أول عمل قام به المسيح المزعوم تعيين حاشية لبلاطه من مئتي شخص، وتسمية كنيبردولينغ وزيراً أول وروثمان ناطقاً ملكياً. وقرر كذلك اعتبار المنطقة المحيطة بالكنيسة الرئيسة مقراً للملك، وإقامة عرش مغطى بديباج ذهبي اللون في السوق الرئيس توضع إلى جانبه مقاعد المستشارين المقربين، حيث كان المسيح يذهب إلى هناك مرتدياً أفخر الثياب والقلائد تتدلى من عنقه، ليعقد محاكمة أو يكون حاضراً عند إعلان توجيهات جديدة.

بدا موكب الملك وكأنه ينتمي إلى أوبرا فخمة: فقد كان نافخو الأبواق يسيرون

في مقدمته يليهم أصحاب المناصب الرفيعة من موظفي البلاط، فالملك ذاته ممتطياً صهوة جواده وقد وضع تاجه على رأسه وأمسك بيده الصولجان، يليه كنيبردولينغ وروثمان، فجيش العاملين في البلاط، وأخيراً الواعظون والخدم. كان حرس الملك الشخصي يرافق هؤلاء، ثم يتوزع في دائرة تحيط بالسوق الرئيس. أخيراً، كان يقف إلى يمين ويسار العرش خادمان يحمل أولهما العهد القديم وثانيهما سيفا.

يا لها من مسرحية مؤثرة، ويا للأثر الذي أحدثته في أرواح العماديين البسطاء!. لقد أسكرت الشعب. أما من بقي منه نصف صاح، فكسر المسيح مقاومته من خلال تهديده بعقوبة الموت، وفي حالات كثيرة من خلال تنفيذها الفعلي. لم تكن مملكة صهيون مملكة رعب فقط، بل كانت كذلك مملكة دعاوة. كان بوكلسون، الذي انتزع كل ما له قيمة من عماديه، بما في ذلك ثيابهم وأغطية أسرتهم، يلبس وزوجاته الخمس عشرة ورجال بلاطه أفخر الثياب. وقد أغرق نفسه في الفخفخة والمسرات والأطعمة، رغم أن الجوع كان يزداد انتشاراً وبطشاً مع اشتداد الحصار. وقد زعم أنه يعيش بهذه الطريقة امتثالاً لأمر إلهي، مع أنه ليست لديه هو شخصياً أية رغبة في العالم أو أية شهوات.

لم يكن بوكلسون واثقاً من استمرار الوضع القائم، لذلك أراد إبقاء جماعته في مزاج رائق، وأمر روثمان أن يطلب إلى أفرادها تسليم كل ما لديهم من ذهب وفضة وحلي على شرف داود الجديد، بحجة أن الثروة لا يجوز أن تخدم من الآن فصاعداً عجرفة الأغنياء بل مجد الرب.

لا نعرف إن كان الناس قد صدقوه. لكننا نعلم أن بوكلسون أبقاهم في حال تأهب دائم، وأخبرهم أن الرب سينفخ عما قريب ثلاث مرات في الصور، وأن عليهم التجمع في جبل صهيون - ساحة الكنيسة الرئيسة، في لحظة سماع صوت البوق الثالث، لأنهم، هم أبناء الرب، سيغادرون المدينة ليقضوا على أعدائهم أمام أسوارها، قبل أن يتوجهوا إلى أرض الميعاد، علما بأن الرب سيتكفل بإطعامهم خلال ارتحالهم.

تجمع الناس بالفعل عندما نفخ نبي من نِعَمْ بوكلسون في الصور. جاء الملك على صهوة مهره ترافقه حاشيته. تلك كانت مسرحية مألوفة أعلن خلالها أن ما جرى كان مجرد اختبار لولاء شعبه، نجح فيه فاستحق أن يوزّع عليه خبز ونبيذ.

نظمّ المسيح الدفاع عن مملكته تنظيماً صارماً، ألزم كل رجل وامرأة بالدفاع عنها. وقد استجاب القوم له، لأنهم كانوا يعرفون ما ينتظرهم إذا ما وقعوا في يدي سيدهم الزمني الأسقف الأمير فون فالْدِك ومرتزقته. كان فالْدِك قد أسس في نهاية عام (1534 م) حلف أمراء أمده بمال وسلاح ووحدات عسكرية. وكان أعيان الرايخ قد تضامنوا معه بدورهم وتبرعوا له بالمال في آذار من عام (1535 م) حين كان حصار المدينة شاملاً، يمنع أي شخص أو شيء من الدخول إليها أو الخروج منها. بينما تضاءلت مخزوناتها من المواد الغذائية إلى حد الندرة، واتخذ الجوع أبعاداً جعلت الناس يأكلون أي حيوان تقع أيديهم عليه من كلاب وقطط وقنافذ وفئران وجرذان وكذلك الحشائش والطحالب، وينقعون أحذيتهم في الماء ويأكلونها، ويكشطون أخيراً الكلس عن الجدران وينبشون الجثث من القبور.

واصل بوكلسون نشاطاته الجنونية، فأعلن أن الخلاص قبل عيد الفصح (1535 م). في الموعد المحدد، قال إن الخلاص الذي عناه هو خلاص الروح وحدها، ثم أخبر المحاصرين في النهاية أن بلاط الشوارع سيتحول إلى خبز، إذا ما استجابوا لأمر إلهي صدر إليهم بالرقص، وتنظيم منافسات رياضية طوال أيام ثلاثة، هذا ما طلبه من الكائنات المنهكة التي كانت تترنح في شوارع المدينة عاجزة عن السير وهي منتصبة القامة. وقد نظم بالفعل تمثيليات فاضحة في الكنيسة الرئيسة من أجل إبهاج الشعب.

أمر فرانز فون فالْدِك بإلقاء منشورات على المدينة يعلن فيها عزمه السماح لسكانها بمغادرتها بأمان، إن هم سلموه الملك وحاشيته. تلك كانت دعوة إلى الانتفاضة لم تجد أي صدى لدى الشعب، الضعيف والخائف من الإرهاب أكثر

من أي وقت مضى، لأن بوكلسون أخذ يمارس أكثر فأكثر دور الجلاد، وشرع يضرب أعناق من يخالفون تعليماته بيده. رغم هذا، كان في المدينة عدد كافٍ من الموالين له، ضموا بالدرجة الأولى من صعدوا في ظله وبفضل رعايته وخافوا أن يخسروا الآن كل شيء. عندما تمكن رجلان شجاعان من الزحف إلى خارجها، وأرشدوا المحاصرين إلى نقاط ضعف الدفاع عن أسوارها، سقطت مملكة صهيون. فقد اقتحمها المرتزقة يوم 24 تموز من عام (1535 م) وطعنوا وضربوا كل من ظهر أمام معاولهم ورماحهم وسيوفهم. لم ينج أحد من قادة العماديين، فقد قتل روثمان في أثناء المعارك كما يعتقد، وقطع رأس ديفارا زوجة بوكلسون المحببة، وأسر الملك، الذي أمر فون فالْدِك بجره مقيداً عبر أسقفيته وعرضه للفرجة حتى كانون الثاني من عام (1536 م). قبل أن يعيده إلى مُنستر ليعذبه، وكنيبردولينغ ورجل آخر حتى الموت بالحديد المصهور، ويضع جثث الرجال الثلاثة في أقفاص حديدية رفعت إلى أعلى برج كنيسة لامبرتي. ومازالت معلقة إلى اليوم.

نظمت سلطات الرايخ حملات مطاردة حقيقية ضد العماديين المناضلين، فلم تنج واحدة من جماعاتهم. وقضي كذلك على فكرة فرض الملكوت الألفي بالعنف، وإن كان الشكل الأصلي للنزعة العمادية، الذي كان سلمياً، قد استمر إلى اليوم لدى المينونيتيين وحماة السيد.

تراجعت النزعة الألفية مع الضربة التي تلقاها العماديون، لتواصل حياتها في الخفاء حتى القرن السابع عشر، حين عادت إلى الظهور من جديد، ولكن في شكل هادئ ومنكفئ على ذاته. في هذه الأثناء، كانت تعاليم اللوثرية قد تجمدت وتحولت إلى أرثوذكسية جديدة، وصارت إيماناً يوجهه العقل، معصوماً وعقيماً. وكانت قد نمت في النزعة التقوية وتصوفها قوة مضادة لها سعت إلى تحطيم الجمود، فكان من الحتمي تقريباً أن تذكّر بالتصورات القديمة حول الملكوت الإلهي على الأرض.

كان المؤمنون ما يزالون تحت تأثير فظاعات حرب الثلاثين عاما (1618

- 1648 م) عندما قدمت الصوفية لهم مخرجاً من مآزقهم هو الطريق إلى ذواتهم، فكان ذلك تصوراً جديداً حول نهاية الزمن. تعمق اللاهوتي الأرثوذكسي يوهان كوشييوس من لايدن في الرؤى النبوية، فاعتقد أنه يعيش في الطور الأخير الذي يسبق عادة ظهور الملكوت. من جانبه قال الصوفي يعقوب بوهمه (1575 - 1624 م) شيئاً مماثلاً. وتحدث عن: (زمن أبيض) آت، حدد المُرَبّي يوهان آموس كومينوس (1592 - 1670 م) المشهور حتى أيامنا، عام (1672 م) موعداً له.

تفرض التصورات الصوفية أن يصير الدين من جديد اختباراً مباشراً وحياً للرب، وليس مذهباً يتفق مع ملكة الفهم وحدها، كما أرادت كنيسة لوثر المتحجرة له أن يكون، درس فيليب يعقوب سبنر (1635 - 1705 م) رؤيا يوحنا فاكتشف «أن كل شيء يفضي بالضرورة، قصدياً، إلى سيطرة يسوع العجائبية في الملكوت الألفي»[5]. ذلك الكشف توصل إليه أيضاً صديقه ورفيقه في الإيمان يوهان فيلهلم بيترسن عبر إضاءة داخلية. يعدّ هذا الرجلان «أبوي النزعة التقوية». على أن سبينر كان على درجة من الذكاء منعته من فهم (الألفية) بالمعنى الحرفي للكلمة.

سقطت بذور الأفكار التقوية على أرض خصبة في فورتمبرغ، حيث سكنت «واحدة من أكثر عشائر الشعب الألماني موهبة على الصعيد الديني» (فالترنغ) فغدت شأناً شعبياً ولا زالت كذلك بصورة جزئية إلى اليوم.

أثار القس يوهان ألبريشت بنْغل (1687 - 1752 م) بعض الاهتمام في زمنه، حين أعلن انتباهه إلى الفكرة الأَلفية. كان بنْغِل قد حدد لنفسه هدفاً رئيساً هو فهم معاني كلمات الإنجيل، فأوصله مسعاه إلى نتيجة ترى أن رؤيا يوحنا ستبقى مختصراً لتاريخ الكنيسة إلى يوم الدينونة، وأن عام (1836 م) هو عام نهاية العالم، وإن قال على سبيل الحيطة: «فإن مر عام (1836 م) دون تغير ظاهر، يكون هناك خطأ أساسي في نظامي»[6]. وقد كان ذلك بالفعل. عندما تم البحث عن الغلط،

تبين أن حساباته مصطنعة إلى حد بعيد. لكن بنغل لم يتمكن من تصحيحها، لأنه كان قد فارق الحياة منذ وقت طويل.

بعثت النزعة التقوية الحياة من جديد في الملكوت الألفي، وإن لم يكتب له عيش مديد، ذلك أن تهيؤات زوال العالم كانت قد فقدت أرضيتها واقتصر وجودها على حلقات صغيرة مقفلة. لقد صار المستقبل ملكاً للعلم، الذي عقدت عليه الآمال. وصارت المادية والعلم والتقدم الثلاثي الذي تركزت حوله الاهتمامات، واكتسب طابعاً دينياً كمنت فيه سائر مخاوف الاندثار الحديثة لزماننا.

9) تنوير وعقلانية
إنسان جديد وخلاص ذاتي

تمثل حقبة عصر التنوير والعقلانية، القرنان السابع والثامن عشر، بداية تحول أساسي، غير تغييراً جذرياً الشعور بالحياة وفهم العالم اللذين سادا من قبل، وأضعف ذلك التوجه الديني نحو العالم الآخر، وجعل «الأمل في الأعالي» يترك مكانه أكثر فأكثر لتوجه موضوعه العالم الدنيوي. كما قضى على إمكانية نشوء توافق بين ترسيمة السماء «الأرض/ الجحيم» الموروثة والمتداولة وبين وجهة النظر الجديدة حيال العالم.

هذا الانقلاب العظيم، وهذا التقويم الجديد للعالم، سبقتهما تغيرات أساسية عديدة سببت مصاعب متزايدة للكنيسة، وأجبرتها على الدفاع عن نفسها وتقديم مسوغات لوجودها تبين أنها عاجزة عن الإتيان بها. لم يتجسد الانقلاب المذكور في التوسيع المكاني الصرف لصورة العالم، الذي حدث في ركاب الاكتشافات

الجغرافية الكبرى، وإنما عبرت عنه بالدرجة الأولى نظرية نيقولاس كوبيرنيكوس (1473 – 1543 م) التي وضعت الشمس في مركز المنظومة الكوكبية، وأُخرجت الأرض من مركز ما كان يظن أنه الكون؛ ونظريات يوهان كيبلر (1571 - 1630 م) الذي برهن على صحة نظرية كوبيرنيكوس من خلال حساب مدارات دوران الكواكب وأزمنتها. بطبيعة الحال، نفى اللاهوتيون من المذهبين، البروتستانتي والكاثوليكي، نفياً قاطعاً صحة هذه المعارف العلمية، بالاستناد إلى «براهين» مأخوذة من الإنجيل.

وجد العلم الطبيعي نفسه مجبراً بدوره على إيجاد مسوغات لوجوده. لذلك طالب غاليليو (1564 – 1642 م): «بقراءة كتاب الطبيعة بمساعدة الرياضيات». وقد كانت اكتشافاته في مجال الميكانيكا قطعت الشك باليقين، وأثبتت وجود قوانين تكمن في أساس الحدث الطبيعي، يستطيع الفكر البشري دراستها وبحثها. وقام فرانسيس بيكون (1561 – 1626 م) بخطوة حاسمة، فأوضح طريقة اكتساب المعرفة في العلم الطبيعي، التي قال إنها لا تكتسب من الكتب بمعونة التبحر اللغوي، ولا تشتق استنباطاً من حدود عامة على الطريقة السكولاستيكية (المدرسية). ونفى وجود سلطة، مهما كانت جديرة بالاحترام، تستطيع تقرير الصواب من الخطأ؛ وقال إن كل ما تقدر عليه هو إثبات الوقائع عن طريق الخبرة التجريبية وحدها.

وقد كان فيلهلم فون أوكهام قام «بالخطوة الأولى إلى خارج العصر الوسيط»[1]. عندما قال إن للرب حرية غير محدودة لممارسة السلطة، واستخلص من ذلك «أن الإنسان لا يستطيع فعل أي شيء غير التقيد بما هو واقعي صرف، الذي ليس بالضرورة ما هو قائم. أما البحث عن المعنى والترابط فهو عبث لا طائل تحته». (الحقيقي) ليس هو الترابط، لأن الترابط لا يكون في أحسن الأحوال إلا في فكرنا؛ (الحقيقي) هو الوقائع المتفرقة دون غيرها؛ لكن هذا الواقعي الفعلي لا يمكن حسابه أو اكتسابه أو اشتقاقه، بل يمكن اختباره وحسب؛ لذلك لا تكون

المعرفة إلا كلقاء مباشر مع (المشخص) وينفصل ما نؤمن به وما نعرفه، كما ينفصل (الإيمان) و(العقل) اللذان تركزت طاقات ألف عام تقريباً على ربطهما بعضهما ببعض. إن ما يحدث هو، بكلمة واحدة، نهاية العصر الوسيط[2].

بدأ الفكر الدنيوي يسود على أنقاض الحروب الدينية. وأخذ الإنسان يضع ثقته في قوة الفكر والعقل، وامتلأت روح العصر بجهود هدفها كشف أسرار الخلق بواسطة الفكر المنهجي، وجنّح الإيمان بالعقل المرحلة التي شق الطريق لها الفلاسفة رينيه ديكارت (1596 – 1650 م) وباروخ سبينوزا (1632 – 1677 م) وغوتفريد فيلهلم لايبنيتز (1646 – 1716 م).

انطلق ديكارت من أن كل شيء يمكن أن يكون محلاً للشك: «من تعاليم الكنيسة إلى معطيات الحواس، إلى حقيقة الجمل الرياضية، وحتى الوجود الخاص ذاته. غير أن هناك نقطة ثابتة لا مجال للشك فيها هي وجود أنا تشك، أنا مفكرة. أنا أفكر إذاً أنا موجود[3]. لذلك يجب اعتبار كل ما يتم التعرف عليه بوضوح وجلاء أكيداً. هذا المبدأ الرئيس في المعرفة الواضحة والجلية بواسطة العقل هو مبدأ حاسم. وعلى جميع المعارف إثبات صحتها أمام العقل قاضياً وقائداً أعلى» أي أمام الإنسان مفكراً عقلانياً.

يذهب سبينوزا في خطوة إلى أبعد من ديكارت. «ليس الرب، بالنسبة إليه، شخصية تقف فوق الخلق، بل هو متماه مع العالم وبالتالي فهو قانونيته المنطقية» و«لا سبيل إلى معرفته بغير الطريقة العقلانية / المنطقية».

يرى لايبنيتز من جانبه أن الرب يخترق الكون، لكنه يفعل ذلك كحياة وحركة. بدورها، تعتبر المادة روحاً تمتلئ بآخر وحدات الروح: «المونادات» المدركة والفاعلة والمجنحة بالنزوع إلى الكمال، حيث تحيي كل شيء إرادة لانهائية إلى الوضوح والكمال الأخلاقي تجد امتلاءها في الرب: كنه الوضوح والنظام الكاملين . . . هناك «انسجام توازنه مسبق» في الوجود وبين المعرفة والوجود،

يقوم منذ الأزل وهو كلي الحضور.

ليس التنوير والعقلانية سوى ثمرتين لما يمكن اعتباره جنياً علمياً، جعل النظريات والمذاهب تنتشر وتترجم من لغة العلم اللاتينية إلى اللغات المحلية، حيث تلقفها بنهم النبلاء والبرجوازية الصاعدة، واكتسبت صورة العالم الجديدة طابعاً علمانياً ليس للكنيسة فيه أي دور يذكر، فتبدد الإيمان بالرب كما أفصح عن نفسه في الإنجيل، ورفضت الأسرار المقدسة وسلطة الكتاب والمعتقدات. رأى التنويريون في الكنيسة وفي الانتماء الديني بقايا زمن قاتم تم تخطيه. وتمسكوا بتصور عن إله هو خالق الكون ومنبع الخير، لكن الإنسان يدركه من إعمال عقله في البناء العجائبي للكون.

شهدت تصورات زوال العالم وتجدده تبدلاً تاريخياً هائلاً بدورها، أنزلها من السماء وعكسها على الأرض؛ فغدا قيام فردوس مستقبلي، أرضي، ممكناً دون إسهام سماوي، الإنسان مؤهل بذاته لإقامته، ولتأسيس عصر ذهبي ومستقبل سعيد بفضل تقدمه المستمر الذي توجهه طرائق عقلانية. وقد رسمت مثاليات سياسية واجتماعية سيناريوهات حول عالم يسوده السلام والحرية والعدالة، لا مكان فيه للأب والابن وللجيوش السماوية، بعد أن أمسك الإنسان مرة واحدة وإلى الأبد بمصائره وعلى مسؤوليته الخاصة.

هكذا بدأت سيرورة إعادة تقويم للقيم، انتهت إلى تقويم جديد تماماً للإنسان في علاقته بالرب والطبيعة؛ وهي علاقة لم يعد الرب فيها قاضياً غاضباً يتوضع فوق الإنسان، بل صار ضرباً من صديق أبوي «قام بتأسيس هذا العالم الذي هو الأفضل بين العوالم» (لايبنيتز) ليستطيع كل واحد العثور على سعادته فيه، إن لم يأت بتصرفات مناقضة للفهم البشري السليم.

بذلك، تبدلت صورة الرب وتبدلت معها الصورة التي رسمها الإنسان لنفسه. ومع أن المعتقدات الكنسية فقدت كثيراً من قيمتها بفعل المجهودات

الفلسفية، فقد أخلص المرء للمسيحية، عندما اقتنع أنه ليس أهلاً لإقامة نظام اجتماعي ثابت وقادر على الاستمرار بقواه الخاصة.

وصف توماس هوبز (1588 – 1679 م) في كتاب: اللفيتان حالة الطبيعة باعتبارها حرباً يخوضها الجميع ضد الجميع، تسببت بها غريزة حفظ الذات المنفلتة من عقالها. وقال إنه لن يكون بوسع أحد بلوغ الأمان الدائم من خلالها، بينما يمكن حفظ الذات بإيجاد سلطة تقيد قوى التدمير بواسطة نظام عام. لهذا، يتعاقد البشر على نقل جزء من حقوق كل فرد فيهم إلى شخص يحل النظام الملزم محل الصراع العام، فتنشأ الدولة ويحتل الملك قمتها. بذلك تكون ملكية هوبز نتاج أنانية عقلانية وليست نتيجة لتعيين إلهي.

من جانبه، اعتبر جون لوك (1632 – 1704 م) الرغبة في حفظ الذات والسلام والأمان دوافع لتأسيس الدولة. لكنه أضفى طابعاً أخلاقياً على الدافع الأناني، فالناس جميعهم أحرار ومتساوون بالطبيعة، ولكل من يدخل منهم عبر عقد إلى الدولة الحق ذاته. ولا تقوم الدولة إلا على المراعاة المتبادلة للجميع تجاه الجميع. وهذا يضمر في ذاته الالتزام بطاعة اختيار الأغلبية، لأنه يجب أن توجد إرادة واحدة فقط للدولة كجسد سياسي. ثمة قرار أول وأساسي يجب اتخاذه، هو إقامة سلطة تشريعية تكون الأعلى في الدولة، على ألاّ تكون مطلقة، تخضع لها السلطة التنفيذية، وتلزم نفسها بالحكم وفق قوانين ثابتة يقرها الشعب، يطبق الحق تبعا لها ويقتصر استخدام سلطة الجماعة على تحقيقها نحو الداخل والخارج.

اعتمد القرن الثامن عشر بمجمله على هوبز ولوك، لدى مناقشة قضايا الحق العام. وتحولت نظرية لوك على يد الفرنسي شارل دو مونتسكيو (1689 – 1755 م) إلى ملكية عامة لأصحاب الفكر التقدمي في أوروبا. وصارت الأساس الروحي والفكري لإعلان الاستقلال الأميركي، وللثورة الفرنسية.

أدرج الرب الإنسان داخل نظام طبيعي، معبّر عن إرادته في السعادة التي

تلزمه بصياغة الحياة الاجتماعية المشتركة بطريقة تحفظ توافقه مع الطبيعة. وعدّت المسيحية الإنسان خاطئاً، فبدد بروز المواطن وعي الخطيئة وأعاد إنتاج الوضع السابق للخطيئة الأصلية، وأعلنه حالة دائمة في آن معا.

تلك هي الأرض التي وجدت الثورة الفرنسية فيها غذاءها الفكري / الروحي، الذي يلفت النظر انتشاره المعلمن، حيث القديم، المتجاوز، يجب أن يدمر من أجل أن يظهر الجديد. تدمير القديم وظهور الجديد: هذا هو أساس وهدف كل الثورات التي تستحق اسمها، ولا تكتفي بتبدل الأشخاص لمحض الرغبة في تبديلهم. تلك الثورات لها سبب أخير هو سلوك جديد جذرياً للإنسان تجاه العالم، وللفرد حيال المجتمع. لذا، تعلن جميع الثورات الحقيقية في وقت من الأوقات أن حقبة بشرية جديدة بدأت معها، وأنها أتت بجديد إلى العالم لم يسبق أن وجد مطلقا قبلها.

تعين هذه النظرة قوى الثورة الفاعلة: «الطبقة الثالثة» هي جالبة الخلاص وكذلك البرجوازية. أما النبلاء والنظام القديم بأسره والكهنة فلهم دور المسيح الدجال، الجدير بالكراهية. بينما يحقق العصر الذهبي ذاته تحت راية الحرية والمساواة والإخاء.

لقد أخفق النظام القديم إخفاقاً تاماً، بينما ترجّحت الدولة ترجّحاً متواصلاً على حافة الإفلاس، وأخفقت محاولات الإصلاح إخفاقاً ذريعاً أو سقطت في أحابيل تواطؤات البلاط. أما الملك لويس السادس عشر فهو أضعف من أن يستطيع القضاء على حقوق الإقطاع والمراتب، التي صار القضاء عليها مسألة ملحة لا تحتمل التأجيل، وإخفاق بناء الإدارة الذاتية. بالمقابل، يدافع الإقطاع بشراسة عن امتيازاته، ومنها اقتصار سائر مراتب الضباط والموظفين السامين عليه وحده. ويتمسك رجال الكهنوت بمواقعهم، بينما يتمتع التجار والمصرفيون والقانونيون والأطباء والصناعيون بشيء من الحظوة بفضل السياسات التجارية، لكنهم يبقون مع ذلك دون نفوذ سياسي يستحق الذكر. وفي حين يعيش

الفلاحون الأحرار حياة تتسم بشيء من الكفاية، يتعاظم عدد عمال الأرض غير المالكين والفقراء.

تلقي الأعباء الضريبية شديدة الوطأة بثقلها على أكثر أقسام الشعب فقراً، حيث تستأثر الفوائد بقرابة سبعين بالمئة من دخل الفلاح، بينما لا يدفع النبلاء أية فوائد ورجال الكهنوت ما يطيب لهم دفعه. ترتفع الأسعار ويتفاقم الوضع نتيجة تطور مفعم بالأزمة في المجال الصناعي، حيث تظهر النتائج القاسية للمنافسة الإنجليزية. إلى هذا، تفتك المجاعات الناجمة عن سوء المحاصيل بالناس، ويتزايد تردّي الوضع السياسي والاجتماعي الفرنسي إلى حدد يتعذر احتماله. وتتصاعد روائح عفنة من نظام المجتمع الثابت الذي تخطاه الزمن، بعد أن تجمد تراتبه الصارم منذ العصر الوسيط إلى نبلاء ورجال كهنوت من جهة وعامة الشعب من جهة أخرى.

في هذه الظروف، نصبت الطبقة الثالثة مدافعها ضد مبدأ التفاوت، عدم المساواة. لم يقم الأرستقراطي بأي عمل غير قدومه إلى العالم (بيير أُغسطين دو بومارشيه). ولا يحتاج إلى قدر من ذلك لإثبات أهليته للوجود. في حين يدين المواطن بما هو عليه لاجتهاده. أما الشيء الرئيس في فهمه ذاته فليس ما يميزه عن الآخرين، بل ما يربطه بهم. إنه إنسان الجماعة، التي يفصل النبلاء ورجال الدين، وخاصة القسم الأعلى منهم، أنفسهم عنها. يجسد المواطن نمط نظام اجتماعي لا يستند مثله الأعلى إلى الامتيازات، أي التفاوت، بل يقوم على المساواة القانونية.

هذه هي النتيجة التي تم استخلاصها من فلسفة التنوير. لا ترتبط قيمة الإنسان بفئته ومرتبته، لأنه يحمل قيمته في ذاته. إنه ند بين متساوين، من واجبه امتلاك (الفضيلة) أي القدرة على الإخلاص للجماعة (جان جاك روسو) ما دام هذا الإخلاص، الذي يخضع الإرادة الفردية للإرادة العامة، هو وحده الذي يجعل الديموقراطية ممكنة في جماعة أنداد. إنه إخضاع طوعي. أما الحرية، مطلب الفرد، فتصير مطلب الجماعة أيضاً منذ روسو، وتطبع بطابعها المثل الأعلى لمواطن

الدولة: الحر والمقيد في آن معاً، الذي يطيع قانوناً شارك بنفسه في نشوئه، فهو إذاً حر لكونه لا يخضع لتعسف فرد. لكنه مقيد أخلاقياً لأن القانون يعبر عن الإرادة العامة وليس عن رغبات خاصة ما. «هذا هو المواطن الحر في الدولة الحرة» كما يريده روسو. سأل الأب إيمانويل جوزيف سييز في منشور وزعه عشية الثورة: «ما الطبقة الثالثة». وأجاب: «إنها لا شيء! ماذا يجب أن تكون الجواب: كل شيء!».

في نظام القيم هذا، لم يعد النبلاء ورجال الدين إلا ممثلين لأشكال حياتية مجافية للطبيعة، عليها «في النهاية أن ترى هي ذاتها في نفسها ضرباً من التعسف» (يوهان فولفغَنْغ فون غوته).

ما الطبقة الثالثة، إن كان عليها أن تكون «كل شيء». إنها تحمل قسمات شعب الرب. هذا شيء لا شك فيه، لأنها ذلك الفاعل الذي سيأتي بالخلاص، الأرضي على كل حال، أي أنه سيحرر فرنسا من الملكية المطلقة التي فات زمانها، وسيقر بحقوق إنسان متماثلة لكل الفرنسيين. وهي ذلك الفاعل الذي سيلقي إلى الجحيم بالحكومة الفاسدة وبحملة الامتيازات، وبالملك: مجسّد هذه الدولة. ليبني، بعد ذلك الدولة العادلة التي سيجد كل إنسان مكانه فيها وسيكون سعيداً، علماً بأن تلك الحال ستستمر إلى الأبد.

كما في أساطير تدمير العالم وتجديده، تمتلك الثورة معنى كارثة وبداية جديدة في وقت واحد، حيث هي خلاص زمن جديد. من الصعب أن تخطيء العين نمط التعليل الديني الكامن في أساس هذه النظرة، التي تلبس لبوساً أخلاقياً بطبيعة الحال، وترى أن أوروبا «تسير نحو ثورة عامة ستسبق الخلق الجديد . . . أصغوا، يا أبناء آدم: ستختفي كل الشرور، أخلاقية كانت أم جسدية، عن وجه الأرض، وسيبقى الخير وحده إلى الأبد». هذا ما تقوله رسالة ديبلوماسية ثورية.

لكن الخير لن يتمكن من الانتشار، إن لم تتم إبادة الشر. يحتاج الخير من أجل فرض نفسه إلى الفضيلة، وتحتاج الفضيلة إلى الإرهاب كي تصل إلى السلطة. كان

مَكسيميليان دو روبسبيير، الذي يعدّ أعظم إرهابي عرفته الثورة الفرنسية، رجل فضيلة ومعجباً متحمساً بروسو. وقد اقتنع و(حامل سيفه) لويس سان يوست، اقتناعاً لا يأتيه الباطل أن على الجمهورية الدفاع عن طهريتها وشرعيتها من خلال قيامها بأعمال تطهير متواصلة: «بلا فضيلة يكون الإرهاب مفسداً، وبلا إرهاب تكون الفضيلة عاجزة. ولأن الإرهاب قضاء صارم ونقي ومصمم، فانه انبعاث للفضيلة». هذا ما قاله روبسبيير. وقد أعدم شريكه في الثورة جورج دانتون وأصدقاؤه بالمقصلة لأنهم ليسوا فضلاء، أي لأنهم رفضوا الإرهاب. وقد دافع (المنزّه) وهو أحد ألقاب روبسبيير، في خطبة ألقاها في شهر كانون الأول من عام (1793 م) عن الإرهاب، وميز بين (حكومة ثورية) هي حكومته، و(حكومة دستورية). قال روبسبيير: «تدين الحكومة الثورية للمواطنين الأخيار بحماية الأمة، وتدين لأعداء الشعب بالموت وحده. إن الحكومة الثورية هي استبداد الحرية ضد الطغيان».

ليس الأعداء الداخليون غير أولئك «السفسطائيون البلهاء أو المنحلون» الذين لابد من خوض الصراع ضدهم بالمقصلة. هكذا نما حجم الشر، الذي تمثل أول الأمر في النبلاء ورجال الدين دون غيرهم، نموا كبيراً، واكتنز المسيح الدجال شحماً ولحماً. وقد أقنع روبسبيير ورفاقه في الرأي أنفسهم أن البشرية تنقسم إلى أخيار وأشرار، صالحين وطالحين، وأن هدفهم لا يمكن أن يكون غير انتصار النور على الظلمة. ما الخير وما الشر؟ هذا شيء تحدده (الإرادة العامة) إرادة الشعب. يعرف المواطن الفاضل، ونموذجه روبسبيير، وحده ما يريده الشعب حقاً. ويستطيع وحده أن (يمفصل) إرادته. فإن كان المرء منحرف الرأي، مخالفا للإرادة العامة، فهذا يعني أنه مواطن سيئ، بل عدو للشعب فقد حقه في أية حماية يمكن أن تقدمها له حقوق الإنسان. إن امتلاك رأي غير رأي «المنزّه» هو ببساطة شيء خطير على الحياة.

من حيث جوهره، يعد الإرهاب أمراً عارضاً. هذا ما أقر به روبسبيير دون

تحفظ. «فهل هو لهذا السبب أقل عدالة وشرعية. لا!؟ لكونه يستند على أقدس ما في الشرائع: مصلحة الشعب».

أدخل روبسبيير الفضيلة إلى نظراته في خطبة لاحقة: «لما كانت الفضيلة هي روح الجمهورية، ولما كان هدفها تأسيس الجمهورية وتدعيمها، فان أول قاعدة من قواعد سلوككم السياسي يجب أن تكون توجيه كل تدابيركم نحو حفظ المساواة وتطور الفضيلة . . . في نظام الثورة الفرنسية، ما ليس أخلاقياً ليس سياسياً، وما هو فاسد معاد للثورة».

«استبداد الحرية ضد الطغيان» ليس هذا هزءاً يقطر دماً. إنه تعصب بلا قاع يناقض كل قوانين الإدراك البشري السليم. يستطيع المرء، إذا أراد، اعتبار روبسبيير متعصباً شبه ديني، لكنه لا يستطيع اعتباره منافقاً بأي حال. اصطبغ تفكير اليعاقبة بصبغة نشورية، رغم ما قد يبدو في هذا القول من غرابة. إنهم يجلبون الخلاص: للطبقة الثالثة أول الأمر، ثم لفرنسا، وأخيراً للإنسانية جمعاء. وهم يبيدون الأعداء، القدماء منهم والجدد، ومضادّي الثورة، الذين ليسوا جميعهم غير كائنات شيطانية. وهم يبيدون بعضهم بعضاً في النهاية، عندما تبدأ الثورة بالتهام أبنائها.

لا ضير إذاً في استخدام مختلف أنوع الإرهاب، والتضحية بأي رأس وأي جسد، من أجل إقامة ملكوت الفضيلة على الأرض. ولكن ما نفع الفضيلة دون تطلعات سامية وبنية فوقية لها طابع ميتافيزيقي. لقد بحث الفضلاء عن بنية كهذه ووجدوها في: «فكرة كائن أسمى يراقب الخطيئة المكبوتة ويكافح الجريمة» ويلبي: «حاجة رئيس من حاجات الأرواح الطاهرة» حسب ملاحظة غنية لأحد الثوريين. بالنظر إلى أن القضاة والمحلفين بشر يمكنهم أن يخطئوا في نهاية الأمر، لا بد من وجود مرجع متعال يكون وحده في وضع يمكنه من إزالة الحيف، حين يأتي يوم الحساب وتنعقد محكمته انعقاداً دائماً من أجل تطهير الأمة. فإن كان هذا غير ممكن في الحياة الدنيا، فليكن ممكناً على الأقل هناك في السماء أو أي مكان آخر.

أعلن القوم الحرب على الكنيسة منذ البداية، لكن: (الخرافة) واصلت وجودها، رغم الثورة، وإن في شكل سردابي وخفي. قال (المنزّه): «إن تربية الناس على العبادة الطاهرة للكائن الأسمى تعني تسديد طعنة قاتلة إلى التعصب . . . لا تنتظروا أيها الكهنة الطموحون منا أن نعيد سيطرتكم من جديد . . . بغض النظر عن الاختلاف الكبير بين إله الطبيعة وإله رجال الدين، الذين خلقوا الرب على صورتهم: غيوراً، مزاجياً، طماعاً، عنيفاً وغير رحيم؛ وسجنوه في السماء ولم ينزلوه إلى الأرض إلا كي يحصلوا باسمه على ثروات وتكريمات ومتع وسلطة. بالمقابل، إن الطبيعة هي الكاهن الحقيقي للكائن الأسمى، والكون معبده، والفضيلة عبادته، وانفجارات السعادة لشعب عظيم يتجمع تحت عينيه كي يوثق أكثر فأكثر الأواصر الرقيقة للأخوة العامة لعباده».

العيد تفجير لسعادة الشعب: فقد وجد الخبز ووجدت الألعاب دوماً لإبقاء الشعب في مزاج رائق. وكانت مناسبات استغلها أصحاب السلطة لاستعراض أنفسهم. وقد خططت الثورة لتجمّع عملاق كان مقدراً له أن يتواصل طوال عام (1794 م) على أن يكون كل يوم أحد من آحاد التقويم الثوري الستة والثلاثين يوم عيد، يكرس كل عيد منها الفكرة مختلفة. وقد اختار روبسبيير يوم العشرين من بريريال (الثامن من تموز) باعتباره أول وأنبل يوم وكرسه «للكائن الأسمى وللطبيعة».

لم يفجر العيد مسرات روبسبيير، القائد الشعبي الحريص على الفضيلة، أو أن هذا حدث لكن أخباره لم تصلنا. ويبدو أن الذي حدث بالأحرى عكس ذلك، فقد وجب على روبسبيير، الذي سار على رأس المجمع في الطريق إلى حقل مارس في الجزء الثاني من العيد، الاستماع إلى سخرية وشماتة زملائه، الذين هزؤوا من الكاهن الأعلى للكائن الأسمى، الذي يقال إنه بدا عندئذ محطماً ومحبطاً.

كان روبسبيير قد تخطى ذروة نجاحه، لكنه لم يكن يعرف ذلك بعد. وقد تمت يوم (27 / 28) تموز، أي بعد العيد بأسابيع ثلاثة، الإطاحة به، وانتهى مع واحد وعشرين من أنصاره تحت المقصلة.

أحدثت الثورة الفرنسية تأثيراً هائلاً في التاريخ الأوروبي. صحيح أن الملكية لم تزح بصورة نهائية من فرنسا، وأن تركتها السياسية استمرت في الوجود. لكن الرؤى القديمة طرحت منذ (1789 م) للنقاش ووجدت نفسها منخرطة أكثر فأكثر في معارك تراجعية شديدة، جابهت السيادة الشعبية خلالها نظرية النعمة الإلهية، وانتهت إلى النتيجة التي نعرفها. كانت البرجوازية حاملة الوعي السياسي الجديد، لكنها نسيت أن عليها تخطي معضلات اجتماعية متعاظمة الصعوبة والوطأة، فضلاً عن المعارك السياسية الدستورية ضد الملك. ومع أن التغييرات التي أحدثتها الثورة كانت جلية لكل إنسان؛ فإن البرجوازية لم تعترف بها إلا بصورة محدودة: رغم أنه نمت من الدول الزراعية دول صناعية خلقت جيشاً من المنتسبين إلى الشريحة الدنيا، ضمت في من ضمت عمال الأرض وأجراء الحرف اليدوية، وبدت القدرة على صنع السعادة السياسية بما هي حرية: «أيتها الحرية! أيها الصوت الفضي الذي يشنف الآذان» على حد هتاف فريدريش غوتليب كلوبشتوك، وتحقيق فكرة الحرية والمساواة القانونية وحقوق الإنسان متاحة لألمانيا أيضاً بعد عام (1789 م) بغض النظر عن الظواهر السلبية للثورة الفرنسية وبداية عودة النظام القديم بعد نابليون. لكن السعادة لم تكن رغم ذلك من نصيب أحد غير البرجوازي. أما من وقفوا جانباً فلم يصلهم دفء الشمس، وخرج المحرومون بأيدٍ فارغة من الثورة. لم تقم العدالة، واختلطت حالة الانطلاق السياسية «الصِرف» اختلاطاً شديداً مع المشكلات الاقتصادية؛ حيث حدد مالك المال ووسائل الإنتاج وجهة الرحلة. لم تمتلك الشريحة الدنيا المال أو وسائل الإنتاج، وكمنت الحرية في حرية استغلال الآخر.

كان من الطبيعي أن تصاغ نظريات تستهدف تغيير العلاقات الاجتماعية لصالح المحرومين، وأن تزج في مواجهة هذه الرأسمالية التي صاغ أسسها بين آخرين آدم سميث وتوماس روبرت مالثوس وجون ستيوارت ميل. تلك النظريات، عدّت الرأسمالية نظاماً ظلم وفساد مفرطين لا بد لتغييره من تغيير

المجتمع ذاته، لذلك تبنت الفكرة القديمة عن الحرية والمساواة، وإخاء جميع المضطهدين والمتألمين من البشر. هنا، بدا أن شروط تحقيق حد أعظم من السعادة لكل فرد وظيفة من وظائف التقنية، ورأى: (الاشتراكيون الأوائل) أنفسهم رأس رمح لهذا التطور. لم يكن ثمة آنذاك حركة عمالية منظمة ماركسية الفكر، بل اقتصر الأمر على مناضلين متفرقين يدعون إلى عالم أفضل، كانوا: «فلاسفة اجتماعيين واقتصاديين سياسيين، شعراء وصحافيين ديموقراطيين جذريين، مجموعات حرفيين شيوعية ومحسّنين طوباويين للعالم من جميع الفئات، ممهدي طريق لثورة فرنسية أو أتباع لأفكارها»[4].

فضلاً عن هؤلاء، نشر طوباويون اشتراكيون مذاهب خلاصية دنيوية اتجهت جميعها نحو تأسيس عصر ذهبي في مستقبل بعيد، يعطي المتعبين وثقيلي الأحمال حقوقهم. وقد مارس هؤلاء نقداً للنظام الاجتماعي الرأسمالي يتسم ببعد النظر، وصمموا مشاريع جريئة لمجتمع أفضل يخلو من الاستغلال، واعتقدوا أن إدراك لاعقلانية ولاأخلاقية الاستغلال الرأسمالي ستدفع بالبرجوازي المالك إلى إحداث تغييرات جذرية في المجتمع، ستضفي طابعاً من التناغم والانسجام على الحياة المشتركة، وتنهي سائر المنازعات والصراعات: «لا مفر من أن يرى المرء في التفكير الطوباوي للعصر الجديد ضرباً معدلاً من النزعة الألفية المسيحية القديمة، هو شكل جديد من الإيمان المسيحي القديم بالملكوت الألفي، الذي قبع في رؤوس هؤلاء المفكرين الطوباويين. من الضروري رؤية هذه القرابة، القائمة على تجذر العامل الديني في عقول طوباويين انغرست فيها حاجة خفية إلى الخلاص، يبرزها توقهم الطوباوي ويجعلها مرئية بجلاء»[5].

كان فيلهلم فايتلنغ (1808 - 1871 م) الذي اعتبر نفسه «شيوعياً» أحد أبرز الممثلين الألمان للعصر الاشتراكي الأول. ترتبط المسيحية بالاشتراكية لدى فايتلنغ، لتوقظا معاً الأمل في حدوث نهاية جديدة وعادلة للزمن. ويتجلى وعيه المسيحاني الذاتي بصراحة ودون غلالات أو أقنعة. فلا عجب أن تكون أفكاره

قد قوبلت بالنفور في محيط اتسم مزاجه بنزعة إلحادية غالبة، وأن يكون قد تمسك بعناد بأفكاره ووجهات نظره، إلى أن صار عاجزاً حتى عن تصحيحها.

وضع عدو النزعة الإصلاحية فايتلنغ آماله في الثورة الاجتماعية، التي يجب أن تحطم سلطة المال. واعتبر البروليتاريا القوة التي ستأخذ على عاتقها تحرير البشرية، الهدف الذي يتطلب تحقيقه إعادة إنتاج المذهب المسيحي الحق. في كتيبه الصادر عام (1845 م) بعنوان إنجيل خاطئ فقير يصير يسوع المسيح اشتراكياً، لأن فايتلنغ فهم المخلص فهماً ألفياً، باعتبار أنه كان «ثوري» الأهداف، وهو ما أنكرته الكنيسة على الدوام. قال فايتلنغ إن يسوع بشّر بملكوت على الأرض وليس بملكوت آخروي كذلك الذي صنعته المسيحية بمرور الزمن، لهذا السبب، يجب: «أن نقلع عن إدامة النظر إلى الأعلى، نحو الأهوية[6] الزرقاء، حين يدور الحديث عن ملكوت الرب، وأن نؤسسه هنا، على الأرض. لا بد أن يمتلك المحرومون الأمل والشجاعة المتجددة فيما يتعلق بهذا الملكوت، القادم وشيكاً: «إن ملكوت السماء، وهو أحسن ملكوت على الأرض وأسعد وضع للمجتمع، وانتصار الفقراء والمضطهدين، وشيكان» وبهما تنغلق دورة حدها الأول زوال القديم وحدها الثاني بداية الجديد، الذي هو الثورة وملكوت الرب الأرضي.

بذلك يعود الإنسان من جديد إلى وضعه الأصلي، الذي اعتبره فايتلنغ في كتابه: ضمانات الانسجام والحرية (عصراً ذهبياً). يحتاج نظام المجتمع الأمثل إلى نمط من الإنسان تتوازن رغباته وقدراته وتكون في وضع يتسم بالانسجام. أما الملكية والمال فهما البلاء الأصلي الذي دمر ذات يوم مجتمع الانسجام والسعادة الأول. ومع أن المؤلف يوافق على أنه كان للملكية مسوغاتها التاريخية أول الأمر، فإنه يعدّها جذر كل الشرور والمساوئ الاجتماعية، بما أنها تكفل مصالح قلة قليلة على حساب الأغلبية، جاعلة صراع غير المالكين الطبقي ضد المالكين ضرورة لا غنى عنها[7].

ثمة مهمة جليلة تنتظر (المسيح الجديد) ربما اعتبر فايتلنغ نفسه المسيح الجديد

الذي جاء لـ «تحقيق تعاليم المسيح الأول». إنها تحطيم «البناء الكريه للنظام الاجتماعي القديم، وتوجيه ينابيع الدموع نحو بحر النسيان وتحويل الأرض إلى فردوس. فلنعد أنفسنا الإعداد اللائق لاستقباله». ما العلامات التي سنتعرف من خلالها على هذا المسيح الجديد. إنه سيأتي ببساطة ووضوح إلينا، وسيزدري بإباء سحر مامون، وسيفتح قلبه لآلام البشرية، وسينزل من علياء الثروة إلى هاوية البؤس . . . سينضوي المسيح الأعظم ببساطة صامتة في السيطرة الجديدة، لان ذلك سيكون تتويج عمله، وسيجعل العالم كله يتعرف فيه على المسيح الثاني، الذي يفوق الأول عظمة.

لو نظر فايتلنغ إلى وجهه في المرآة وتعرف فيه: (المسيح الثاني) لاستحق أن نرى فيه شخصاً مفعماً بالجنون. وعلى كل حال، فإن جوهره العصبوي حال دون انتشار أفكاره.

اختلف كارل ماركس، المخلص الحقيقي للعصر الجديد وصاحب التأثير الذي شمل العالم بأسره، الملحد من رأسه إلى أخمص قدميه، ومؤسس مذهب خلاص دنيوي أوكل دوراً مسيحانياً للبروليتاريا، أشد الاختلاف عن فايتلنغ.

عرف الماركسيون واللينينيون والستالينيون، وجميع أنصار وملل ونحل هذا الدين أو الدين البديل، وكذلك جيش العقديين والطبقة العاملة المناضلة أن يوماً سيأتي لن تكون قوانينهم الخاصة فعالة فيه أبداً. وقد جاء هذا اليوم بالفعل، لكنه تبين أن جدلية التاريخ، التي ستبدأ طبقاً لها سيطرة المجتمع اللاطبقي، وسيلغي التاريخ ذاته بذاته في اللحظة الملائمة لأنه بلغ هدفه، كانت مفعمة بالسخرية. لقد جاء اليوم الذي لم تعد قوانينها صالحة فيه، لكن ذلك حدث بطريقة مختلفة كل الاختلاف عما كان مفترضاً. وشهد الماركسيون واللينينيون و . . . الخ زوالهم الخاص الذي اتخذ أبعاداً كونية وتاريخية عالمية عوض قيام الفردوس الموعود على الأرض.

تلك كانت نهاية بائسة تدعو للأسف، عانت فكرة الاشتراكية ذاتها معاناة

شديدة بسبب حدوثها. لم يتصور الماركسيون نهاية كهذه، ولم يخطر في بالهم أبداً إمكانية العودة إلى الرأسمالية، التي كان يجب أن تتعفن منذ وقت طويل في مقبرة التاريخ.

لا ينام العدو الطبقي، فقد كانوا على حق بهذا المعنى. وإن كان لم يهزم الطبقة العاملة بشراسته، بل انتظر بكل بساطة، عارفاً أن الماركسية واللينينية والملل والنحل التي تأسست عليهما كانت تعاليم إيمانية ذات عقائد حديدية، ومجامع مقدسة، وأصوليات، وزنادقة، ومحاكم تفتيش، واعترافات، وخطايا . . . الخ؛ هذه التشابهات مع الكنيسة محيرة في بساطتها.

ليس كتاب: «رأس المال لكارل ماركس غير ‹الكتاب›، والحزب هو الكنيسة، واللجنة المركزية للمكتب السياسي هي المجمع المقدَّس، والأمين العام هو البابا، وأمن الدولة محاكم التفتيش، والنقد والنقد الذاتي هما الاعتراف، والخطأ هو الخطيئة. . .»[8]. وهذا يبدو كله قابلاً للتصديق بالنسبة إلى المؤمن، كما قال ذات مرة الأسقف بابياس، الذي لم يفكر «أخوته الدنيويون في الوظيفة» بطريقة مغايرة لطريقته.

بدأت الأمور بسؤال عن كيفية درء بؤس أولئك الذين لا يملكون ما يوظفونه غير قوة عملهم، يجوسون بها عبر حياة مليئة بالبؤس والشقاء، وعندما يخيبون، غالباً، تراهم يذوون ويجوعون. وقد ترك ماركس لنا نفسه تقارير وصفية مؤثرة حول أوضاع هؤلاء. إذا كانت جهود فايتلنغ قد استندت إلى أساس مسيحي، ووجدت هدفها النهائي في المسيحية، فإن تأملات ماركس ترفض ربطها بأي سياق ديني. وقد كان هو نفسه، شأن فريدريك إنجلز أيضاً، ملحداً شديد الإلحاد، يحركه شعور أخلاقي سام.

كيف يمكن التخلص من الشقاء. لن نستعرض هنا المصادر الأصلية التي نهل ماركس وإنجلز منها. تكفي الإشارة إلى الاشتراكية (الطوباوية) للفرنسيين

كلود سان سيمون (1760 - 1825 م) وشارل فورييه (1772 - 1837 م) وللإسكتلندي روبرت أوين (1771 - 1858 م). كما تكفي الإشارة إلى الفيلسوفين الألمانيين جورج فيلهلم فريدريش هيغل ولودفيغ فويرباخ. في النتيجة قال مذهب ماركس ما يلي: «في الإنتاج الاجتماعي لحياتهم، ينخرط البشر في علاقات معينة، ضرورية ومستقلة عن إرادتهم، تتفق مع درجة معينة من تطور قواهم الإنتاجية المادية؛ ويشكل مجموع علاقات الإنتاج هذه البنية الاقتصادية للمجتمع، وهي القاعدة الفعلية التي تقوم عليها بنية فوقية حقوقية وسياسية، تتفق معها أشكال معينة من الوعي الاجتماعي؛ وتشرط طريقة إنتاج الحياة المادية سيرورة الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية. ليس وعي البشر هو الذي يحدد وجودهم، بل إن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم؛ وعلى عتبة معينة من تطورها، تدخل قوى الإنتاج المادية للمجتمع في تناقض مع علاقات الإنتاج القائمة، مع علاقات الملكية . . . فتنقلب هذه العلاقات من أشكال تطور للقوى المنتجة إلى قيود تغلها. عندئذ تبدأ حقبة من الثورات الاجتماعية. مع تغير الأساس الاقتصادي، ينقلب مجمل البنية الفوقية الهائلة آجلاً أو عاجلاً».

صاغ ماركس هذه الأفكار في مؤلفه: إسهام في نقد الاقتصاد السياسي (1859 م) الذي يعكس نصه نظرة إلى العالم هي مزيج من علم الاجتماع والفكر وتطبيقهما العملي. أما الشيء المهم بالنسبة إلى (زوال العالم وتجدده) فهو النظرة المادية حول التاريخ، أو (المادية التاريخية) المتضمنة في تلك الأسطر. وهي مذهب لم يقم ماركس أو إنجلز بتطويره تطويراً منهجياً.

ما هذه المادية التاريخية. إنها بأعظم قدر ممكن من الاختصار نظرية نشأت عن تطبيق المادية الجدلية على التاريخ، الذي يتعين مساره، أي التقدم، من قبل النظام الاقتصادي المعطى تاريخياً، أي من قبل «علاقات الملكية التي يحدث الإنتاج في ظلها». يرسّم إنجلز تأملات صديقه ويقسم مجمل مسار التاريخ بين بدايته ونهايته إلى (حقب) هي في الوقت نفسه: (أنظمة اجتماعية) أو: (أشكال إنتاج)

تبدأ مع المجتمع الأول (ملكية عامة لوسائل الإنتاج) الذي ينقسم فيما بعد إلى طبقات (متناحرة): مالكة وغير مالكة. هذا الانقسام يبدأ مع مجتمع ملاّك العبيد (حيث الطبقات ملاك عبيد وعبيد) ويتواصل في الإقطاعية: (نبلاء إقطاعيون وفلاحون أرقّاء) ثم في الرأسمالية: (البرجوازية والبروليتاريا) آخر مجتمع طبقي، كما يقول إنجلز، لأن (جمعنة)[9] الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، أو تشريكها، يلغي الانقسام إلى طبقات. وهذا ما يحدث في الاشتراكية أو بالأصح في الشيوعية: مرحلة الاشتراكية الأعلى.

يتم التقدم من نظام اجتماعي إلى آخر بفضل تطور الإنتاج، عندما يبلغ مستوى يضعه في تناقض جدلي مع العلاقات الاجتماعية والسياسية القائمة. ويتم هذا الانتقال ثورياً، عبر الصراع الطبقي.

يعتبر الماركسيون واللينينيون وخلفاؤهم هذه الأفكار حقائق نهائية، ويؤمنون أن: «منهج الجدل الفلسفي» يسمح «بإدراك سيرورات تطور الطبيعة والمجتمع في قانونياتها». ولأن الأمر هكذا، يمكن معرفة التطورات الاجتماعية الراهنة والمستقبلية، اعتماداً على قانونياتها التي تمت معرفتها، والتي تضمن، علميتها، حدوثها المؤكد. يقول ماركس وإنجلز إن للتاريخ هدفاً محدداً هو توقيع العقل والحرية في الاشتراكية والشيوعية: شكل المجتمع الأكثر عقلانية وحرية.

بذلك يصل مسار التاريخ إلى نهايته ويتم بلوغ السعادة. بعد هذه الثورة الأخيرة، ستهشم البرجوازية، وستحكم البروليتاريا نفسها من الآن فصاعداً دون أي فرز طبقي، لأنها ستكون قد تماهت مع الشعب: «بارتقائها إلى طبقة سائدة، تلغي البروليتاريا نفسها طبقةً» فيظهر عندئذ عالم هو أفضل العوالم التي يمكن التفكير فيها، ويبزغ عصر الخلاص ويعيش المرء في مجتمع أنداد أخوي، وتنتفي الحاجة إلى سلطة الدولة. كما تضمحل الدولة التي ليست، على كل حال، غير أداة سيطرة طبقية، و«تتحول حكومة البشر إلى إدارة للأشياء».

يا له من تصور رائع للمستقبل،! يجعل الإنسان نزيل عالم يجري فيه الحليب

والعسل، اختفت منه الصراعات وتبخرت النزاعات وبرئت الجراح؛ يعيش فيه كل واحد حسب مؤهلاته وحاجاته، ويسهر فيه الحزب على منع الخصم من رفع رأسه من جديد.

بذلك يبلغ المجتمع وضعه الأخير. لكن الإنسان والتقنية لن يبقيا ساكنين، بل سيواصلان تسلق مراحل جديدة وأرقى من وجودهما، رآها مفوض الحزب وعضو المكتب السياسي ليون تروتسكي بعين النبؤة، فكتب نصاً يقول: «إن الإنسان، الذي سيكون في وضع يستطيع معه تحريك الأنهار والجبال، وإشادة قصور للشعب على قمة الجبل الأبيض وفي قاع الأطلسي، سيفهم بطبيعة الحال . . . كيف يسمو بنفسه إلى طور أعلى، وكيف يخلق نموذجاً حياتياً/ اجتماعياً أرقى، أو إن شئتم، إنساناً أعلى . . . هو أقوى وأذكى وأرق بدرجة لا يمكن مقارنتها بنموذجه الراهن، لأن جسده سيصير أكثر تناسقاً، وحركاته أكثر إيقاعاً، وصوته أكثر موسيقية، وستكتسب أشكال وجوده مسرحية ديناميكية. وسيرتقي الإنسان المتوسط إلى مستوى أرسطو، وغوته، وماركس. وسترتفع على قمة الجبل هذه ذراً جديدة»[10].

انهمك فلاديمير إيليتش أوليانوف (1870 - 1924 م) المسمى لينين، في إقامة الفردوس على الأرض، بدءاً من وطنه: «إننا نشهد حاليا يوم الدينونة، أيها السيد المبجل» هذا ما يقوله الثوري ستريلنيكوف للدكتور جيفاكو: «إن السيف وحيوان سفر الرؤيا المجنح يسودان الساحة»[11]. تدمر كل ثورة ناجحة ما هو قائم لتفسح في المكان للجديد. وقد نجحت الثورة الروسية وانتمت إلى الأحداث البارزة التي عرفها تاريخ العالم. أما الدولة القديمة، أي الملكية القيصرية، فقد انهارت فاسحة في المجال لنشوء جماعة جديدة، جماعة اشتراكية على رأسها لينين، يقودها الحزب الشيوعي، حزب الكوادر شديد التنظيم والانضباط.

ليس الثوريون الحقيقيون غير نساك، وليس غير: «الناسك وحده يستطيع الإمساك بهذه السلطة الواسعة والعميقة دون أن يسقط تحت إغراء طموحه

الشخصي» كما قال مكسيم غوركي وعينه على لينين.

عندما انفجرت الانتفاضة صبيحة الخامس والعشرين من تشرين الأول عام (1917 م) في بتروغراد، كانت علاقات روسيا السياسية قد آلت منذ وقت طويل إلى الفوضى. وقد أمر ليون تروتسكي، قائد البلاشفة العسكري، باحتلال محطات القطار والجسور ومكاتب البريد والتلغراف، فتم احتلالها بالفعل دون أن تطلق رصاصة واحدة. لكن بعض طلبة الكلية الحربية وكتيبة من النساء قاوموا في قصر الشتاء، ثم استسلموا بعد أن أطلقت بارجة راسية في نهر النيفا سميت (أورورا) طلقة واحدة. هكذا بدأت الثورة الروسية ذات الأبعاد التاريخية العالمية دون أن يلاحظ أهالي بتروغراد ذلك، خاصة أن الحياة تابعت سيرها المألوف، فسارت عربات النقل الداخلي كما في كل يوم، وبقيت المسارح ودور السينما مفتوحة الأبواب وكذلك المقاهي، وواصل الناس رقصهم اليومي في المرابع الليلية.

إذا أراد لينين الاستيلاء على السلطة، فإن عليه دفع الدمار إلى مستويات كبيرة، وإقامة أوضاع فوضوية. كان لينين قد وعد الشعب بالخبز، لكن هذا لم يكن متوافراً بكفاية. في حين كان هناك فائض من الأرض، فأمر بتأميم كبار ملاك الأراضي دون تعويض، وحث الفلاحين الفقراء بقوة على: «سرقة ما كان قد سرق منهم» ففعل هؤلاء ما حضهم عليه، وأحرقوا المزارع، ونهبوا مخازن الغلال، وقتلوا بعض الناس. كما غرقت الصناعة في الفوضى، عندما طالب لينين العمال باستملاك المصانع. فكانت النتيجة دماراً لا معنى له وتراجعاً كارثياً للإنتاج.

ساد على جبهة الحرب شعار التآخي مع العدو وعقد هدنة معه دون الرجوع إلى أحد. وقد قتل الجند بعض ضباطهم وانهار النظام العسكري تمام الانهيار. وعدّت الجماعات الكنسية، مسيحية كانت أم يهودية أم إسلامية أم بوذية، جماعات معادية، وتم تحقير الدين بوصفه: «أفيون الشعب» وأممت ملكية الأراضي وصودرت الأموال المنقولة. وأنكر أن يكون للعائلة أية أهمية، وألغي الزوج عملياً، لأنه كان يمكن إبطاله في أي وقت ما أن يعلن أي من طرفيه رغبته في ذلك.

كانت الأحزاب الثورية، والشيوعيون حزب واحد منها، قد دعت دوماً إلى تشكيل جمعية تأسيسية تخول بوضع دستور. وقد استجاب لينين دون رغبة منه لهذا المطلب وحدد موعداً للانتخابات. ولأن بلاشفته كانوا أقلية فيه، وهو ما كان قد أخذه بالحسبان، فقد حل الجمعية وشتت شملها يوم انعقادها.

انفجرت الحرب الأهلية (1917 - 1920 م) وعاد الحمر إلى ديارهم منتصرين، فكان بالإمكان الآن بدء البناء الجديد. غير أنه حدث مع الجماعية القسر والتصنيع الإجباري خلال حكم ستالين، الذي تحول عام (1928 م) إلى مالك أوحد للسلطة في الإمبراطورية السوفيتية، ما كان ليون تروتسكي قد حذر منه عندما قال: «إن الطريق التي شقها لينين لن تؤدي، إن تمت مواصلتها بجذرية، إلى دكتاتورية البروليتاريا بل إلى دكتاتورية على البروليتاريا».

جعل ستالين الإمبراطورية السوفيتية مؤثرة عالمياً، إلى جانب الولايات المتحدة الأميركية. واستطاع خلفاؤه الحفاظ على هذه المنزلة إلى أن انهارت: «إمبراطورية الشر» كما أسماها رئيس أميركا رونالد ريغان، تحت وطأة تناقضاتها الداخلية. وحتى محاولة الإنقاذ الأخيرة التي قام بها غورباتشوف، رئيس الحزب منذ عام (1985 م)، عبر (ثورة من فوق) لم تنجح في درء الانهيار، واختفى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية من التاريخ. ولم يبق من أجزائه السابقة غير روسيا قبل كل شيء، في حين كونت أوكرانيا وغيرها دولاً مستقلة.

لم يكن فلاديمير إيليتش رجلاً متوحشاً أو عقلاً مضطرباً. على العكس من ذلك، كان عقله صاحياً وواضحاً وبارداً. وقد قال ذات مرة: «مذهبنا ليس عقيدة، إنه دليل للعمل». وهو لم ينكر أبداً أن الفعل السياسي له في نظره الأهمية ذاتها التي لاستخدام القوة، التي يحسن استعمالها إلى درجة القسوة، إن تطلب الأمر ذلك. وقد أحدث الفوضى والانهيار بملء إرادته، وأسعد مواطنيه: «بيوم حشر» وعجل بنهاية للعالم هدفها تجديده بأسره كعالم قديم، لكنه لم يبلغ هدفه هذا. إذ انهارت الإمبراطورية السوفيتية بعد ثمانين عاما، وكانت تعتبر عتبة

أولى إلى الفردوس الأرضي، الذي سمي «الشيوعية». لكن فكرة عالم يخلو من الاستغلال ويسيطر عليه السلام لم تنهر بانهياره.

10) اندثارات
رؤى العصر العلمي

كان لا بد من وقوع حرب عالمية ثانية، وبناء قنبلة ذرية جربت فعلياً على عدو، ومن ممارسة النهب الأكثر فظاعة للمواد الأولية الطبيعية، ومن نمو سكاني انفجاري الطابع وتدمير حادث أو مرتقب لمجالات حياة الإنسان والحيوان والنبات، وكان لا بد من مرور زمن لا نهاية له، قبل أن يدرك أناس بصيرون ما كان يحدث، وكيف يمكن للبلاء الحاصل مواصلة تطوره، خاصة أن له أبعاداً قيامية، وأن الإنسان صنعه بنفسه فلا يجوز أن تسأل عنه أية قوة متعالية، إلا إذا كان يرى فيه فعل الشيطان كي يبرئ نفسه!.

كان نادي روما أول من أشار إلى (حدود النمو) وحذر الرأي العام، دون أن يسلم نفسه للأوهام: «يبدو من السهل إدراك الفكرة الرئيسة لمجتمع يشهد توازناً اقتصادياً وبيئياً، ومع ذلك، مازال مجتمعنا الحالي بعيداً كل البعد عن ذلك، حيث

نحتاج فعلياً إلى ثورة فكرية كوبرنيكية الحجم من أجل تحويل تصوراتنا إلى سلوك عملي»[1]. ولأن نادي روما لا يؤمن بالعقل، وخاصة منه عقل الأمم الصناعية، فإنه يدخل الإنسان في تأملاته، ولا يرى إلا فرصاً قليلة لقيامه بسلوكات تمليها عليها رؤية أفضل؛ كان ذلك عام (1972 م).

بعد عشرين عاماً، اجتمعت (البشرية) كما قيل صراحة، في ريو دي جانيرو، لتحديد أسس للتعامل مع كوكب الأرض. وانتهى الاجتماع إلى برنامج عمل جريء للقرن الحادي والعشرين، دعا في أربعين فصلاً إلى الاستخدام العادل والحافظ للبيئة لسائر احتياطيات المواد الأولية الطبيعية. وأيد بقوة العمل المشترك بين الشمال والجنوب، وبين الدول الصناعية والنامية.

وقد بدا وكأن من حق البشرية تعليل نفسها بالآمال، فها هو ذا كوكبنا يتجنب السقوط في الهاوية، وها هم بشره يعون مسؤولياتهم تجاه الأجيال القادمة، التي من حقها هي أيضاً أن تعيش حياة تتسم بالكفاية، ويعقدون العزم على معالجة مشكلة النفايات السامة، إلى جانب مشاكل أخرى، ليتفرغوا فيما بعد لمشكلة مياه الشرب متزايد الندرة، وللحفاظ على تعدد أنواع المجموعتين الحيوانية والنباتية، وحماية مخزونات السمك في المحيطات باعتبارها احتياطيات غذائية، وتطوير الزراعة تطويراً منتجاً إلى أمد طويل، والحد من توسع التصحّر . . . الخ

> بوسعنا النظر إلى إعلان ريو بوصفه نقطة علام في الوعي العالمي بالبيئة. إن من يتحدث بيئياً في الشمال دون أن ينظر إلى قضايا البيئة الكونية وإلى عدالة التوزيع بين الشمال والجنوب يعزل نفسه بنفسه. ومن يواصل في الجنوب شعاراته القديمة حول تطور لا يأخذ البيئة بعين الاعتبار، لن يجد بعد الآن أي صدى لكلماته.[2]

بعد أعوام خمسة من ريو، اجتمع مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة في نيويورك كي يجري كشف حساب، فلم تكن النتيجة مرضية، ولم يكن ممكناً ولو من بعيد

الحديث عن انعطاف في التوجه، هو المعنى الوحيد لتحقيق برنامج عمل ريو، الأمر الذي لم يعتقد أحد أنه كان ممكن الحدوث. خلال هذه السنوات، جعلت زيادة الرفاء الأمم الغنية أشد غنى والفقيرة أكثر فقراً، إلى أن صار ثلاثة مليارات من البشر، هم أكثر من نصف البشرية، يملك أحدهم أقل من دولارين فقط في اليوم لتدبر معاشه. وأصبح حوالي (800) مليون إنسان يعانون سوء التغذية، بينما تخسر الأرض سنوياً قرابة عشرة ملايين هكتار من الأرض الزراعية، ويعدّ ثلث ثروة بحار العالم السمكية مستنزفاً بسبب تعرضه المفرط للصيد، وتتناقص المياه، أثمن وسائل الحياة، وتزداد ندرة، فلا يجد حوالي مليار وثلاثمائة مليون إنسان ماء شرب طازجاً ونقياً. مع أنه لابد، في الوقت نفسه، من تقليل عوادم ما يسمى بغازات البيوت الزجاجية، البلاستيكية، وخاصة منها أكسيد الكربون، من أجل حماية المناخ، علماً بأنه ليس ثمة إلى الآن اتفاقية تنظم ذلك. إلى هذا، لا تحقق حماية الغابات أي تقدم على صعيد العالم، لأن الولايات المتحدة تتخذ موقفاً رافضاً حيالها. وأقلع الجميع عن تذكير البلدان الصناعية بالوعد الذي كانت قد قطعته على نفسها حول تخصيص (7٪) من إجمالي إنتاجها الاجتماعي لمساعدات التنمية، بعد أن انخفض الرقم خلال الفترة المنصرمة إلى (2.7٪).

اجتمع القوم في نيويورك للتأكد من إخفاق برنامج عمل ريو الطموح. وبالفعل، تضمنت الوثيقة الختامية اعترافاً لا لبس فيه بخيبة تلك الجهود «التي لم تبذل أبداً» في حين رفض المجتمعون، من قبيل الحيطة، إقرار تدابير عملية لإنجاحها، فقد كانت تنقصهم الرغبة السياسية في التقاط ومعالجة القضايا الشائكة، و «لأن كلماتنا لا تطابق أفعالنا» على حد قول رئيس الجمعية العامة للأمم المتحدة.[3] لم يكتمل السيناريو القيامي بعد. لاستكماله، لا مفر من التعريج على الطاقة النووية، التي تتخذ، وقد انفلتت من عقالها، أبعادا قيامية، كما تعرف البشرية بأسرها منذ إلقاء القنابل الذرية على هيروشيما وناغازاكي، ومنذ أن مزق انفجار حدث في ساعات الصباح المبكرة المفاعل الرابع في محطة تشيرنوبيل الذرية

للطاقة الذرية في ذلك السبت من السادس والعشرين من نيسان (1986 م).

يقول الخبراء إنه مازال من غير الممكن وضع جردة حساب موثوقة بأضرار هذه الكارثة، ويؤكدون أن المعطيات حول الانفجار النووي ليست كافية، وأن الإحصائيات ليست متوافرة، ومعرفة حجم شحنة الأشعة التي تعرض لها السكان أصبحت بالكاد ممكنة؛ وإن كان من المؤكد مع ذلك أن خمسة ملايين إنسان تعرضوا لشحنة أشعة عالية جداً لوثت أقساماً واسعة من روسيا البيضاء، وأن حوالي مئتي ألف كيلومتر مربع تلوثت بشدة. وتقول تقديرات أوكرانية حكومية رسمية أنه مات إلى الآن (125) ألف شخص نتيجة لكارثة المفاعل، توفي (84٪) منهم بعد عام (1992 م). وتقدر روسيا البيضاء أن ثمانين ألف طفل تضرروا بشدة فيها وحدها، لأن الأطفال يتأثرون بالأشعة أكثر من البالغين.[4]

لم يكن المسافر في تلك الأيام عبر جمهورية ألمانيا الاتحادية يستطيع تحاشي الانطباع بأن المفاعل انفجر قرب مسكنه، وأن هذه الجمهورية تقف على عتبة نهايتها الوشيكة. وبالفعل، فقد قام أناس مذعورون بردود أفعال قيامية الطابع. فهل توقع هؤلاء البرق والرعد، والأبخرة المتقدة السامة، والمطر الناري، وشعل القطران، وضجيج نهاية الزمن بوجه عام. قد خاب ظنهم إذاً، لأن الموت النووي يأتي بخفين صامتين، وهذه سمة يتصف بها تضفي طابعاً خاصاً على غدره. إنه يزحف من خلال الشقوق، في كل مكان وأي وقت، دون أن يمكن وضع يدنا عليه، ذلك أننا لا نراه، ولا نسمعه، ولا نشمه أو نتذوقه. مع ذلك، فإننا نحس به بقوة أكبر. إذا ما تعرض الإنسان للأشعة، اختطفه الموت بعد ساعات أو أيام أو أسابيع، فإن لم تبلغ شحنتها مقادير قاتلة، تعرّض لأضرار لاحقة، منها مثلا ابيضاض (سرطان) الدم.

بقيت الأراضي الألمانية بمنأى عن كمية قاتلة من الأشعة، فلم يدهمها خطر الموت الآني. لكن تهديد الأضرار اللاحقة الذي أصاب أقساماً معينة من الشعب بالقلق، وجعل أعينها المليئة بالذعر لا تفارق أجهزة قياس التلوث بالأشعة، فإن

تجاوزت درجة معينة عزفت عن شراء الخضار الطازجة من الحوانيت، وتخلصت مما كانت قد اشترته منها، لأنها اعتبرته ملوثاً ومصاباً وغير صالح للأكل. لقد كان على الكلب والهرة البقاء في البيت، خاصة عندما تمطر. وكان على الأطفال الابتعاد عن صناديق الرمل. أما من لم يصب بعدوى الخوف وبقي رابط الجأش، فعدّ جاهلاً ومرشحاً للموت. في هذه الأثناء،كانت البلاد الأجنبية تفرك عينيها وهي تراقب هذه الهستيريا.

ابتهج أعداء الطاقة النووية وقالوا: قد عرفنا دوماً أن هذه التقنية ستخرج في النهاية عن أية سيطرة. بينما حار أصدقاؤها فلم تسعفهم ألسنتهم بقول شيء يلائم المناسبة، وإن واصلوا الإشارة إلى مستوى الأمان المرتفع في المفاعلات الغربية، وكرروا تأكيد الحاجة إلى هذه الطريقة لإنتاج الكهرباء. لقد أصيبت ثقتهم العمياء في علم الطبيعة والتقنية بصدمة قاسية بسبب تشيرنوبيل، وإن أعلنت تفوهاتهم الرسمية عكس ذلك.

في هذه الأجواء، طرح موضوع التخلي عن الطاقة النووية للنقاش؛ كان مطروحاً قبل مأساة تشيرنوبيل وطرح بإلحاح خاص بعدها، واتخذت المناقشة أبعاداً تتعلق بنظرة الإنسان إلى العالم، حفزتها بين أشياء أخرى المظاهرات العنيفة، وأججها سؤال بقي حائراً لم يجب عنه إلى اليوم هو: كيف نتخلص من النفايات النووية. نعيد تخصيبها، أم توضع في مخازن مؤقتة أم دائمة؟

بعد عامين من تشيرنوبيل، شعر أصدقاء الطاقة النووية بالنشاط من جديد، وإن لم يشعروا بامتلاك القوة الضرورية لحملهم إلى ذراً جديدة ومضيئة. مهما يكن من أمر، فقد تحرروا من ضغط الحاجة إلى التسويغات الأشد سوءاً، عندما أكد مؤتمر المناخ العالمي المنعقد عام (1988 م) في تورنتو وجود كارثة مناخية تهدد البشرية، إن واصلت إحراق مصادر الطاقة من فحم ونفط وغاز بالوتيرة الحالية. وبغض النظر عن أن إحراق مصادر الطاقة سيجعل المصادر الطبيعية تنفد إلى غير رجعة في وقت ما، فإن الأبخرة المتصاعدة منها ذات المحتوى العالي من أكسيد

الفحم تؤدي إلى تسخين تدريجي للمجال الكوني وبالتالي إلى الفناء.

بهذا المعنى، تعتبر مولدات الطاقة النووية نظيفة. ربما كان هذا صحيحاً، أجابهم خصومها، لكنها تحمل بالمقابل أخطاراً لا يمكن السيطرة عليها في النهاية، انظروا إلى هاريسبورغ وتشيرنوبيل وغيرهما من «حالات الإزعاج» التي اعتبرتموها استراحات إجبارية، وانظروا إلى إصابات سرطان الدم المتزايدة لدى الأطفال، وإلى مفاعل كروملِ النووي، الذي يبعد خمسين كيلومترا فقط عن هامبورغ.

ليس كلامكم قابلاً للإثبات بسبب نقص الأدلة؛ يردّ أصدقاء الطاقة النووية، ويضيفون: يمكننا، استناداً إلى حججكم، إثبات أن نسبة الموت على مقربة من كنائس القرى أعلى كثيراً من متوسطها الوطني، لمحض أنه توجد عادة مقبرة حول هذه الكنائس. انتهى النقاش، وتم تبادل كل الحجج، وصار من غير المحتمل الحصول على معارف جديدة. صحيح أن هذا الجانب أو ذاك يقدم من حين لآخر تقرير خبرة حول مسألة معينة؛ له مسحة علمية على الأقل، إلا أن أحداً لا يصدقه ما دام ينظر إليه كعمل تنطبق عليه القاعدة التي تقول: من يدفع يقرر.

لا يرجع الإقلاع عن بناء مفاعلات نووية في أيامنا إلى عمل إقناعي ناجح أنجزه خصوم الطاقة الذرية، وإلى اقتناع نجم عنه لدى المتحمسين لها. إنه يعود ببساطة إلى معطيات اقتصادية صرف: إن إنتاج الكهرباء من الطاقة النووية لم يعد ريعياً، أقله في اللحظة الراهنة؛ لذلك أعلن الاقتصاد المنتج للطاقة في إنجلترا وفرنسا وألمانيا تخليه عن بناء مفاعلات نووية في المستقبل المنظور، لأن التكاليف مرتفعة جداً، والحاجة إلى الكهرباء متدنية جداً.

هذا التراجع قابله في حينه انطلاقة في صناعة الطاقة النووية أنعشت الآمال في النفوس، فأعلن برنامج باد غوديسبرغ، الذي أصدره الحزب الديموقراطي الاجتماعي عام (1959 م) بحماسة أن الاستخدام السلمي للطاقة الذرية يجب أن يعتبر: «أمل عصرنا» وأن «إنسان العصر النووي يمكنه جعل حياته أكثر

يسراً، والتحرر من الهموم، وضمان الرفاء للجميع». وأضاف أن هذه الطاقة تعني المستقبل السعيد لجميع مواطني جمهورية ألمانيا الاتحادية، ولبقية العالم أيضاً. من جانبها رأت جمهورية ألمانيا الديموقراطية الأمر بطريقة مماثلة، وإن بوعي طبقي أشد: «مثلما انتمى عصر الطاقة البخارية إلى الرأسمالية، ينتمي عصر الطاقة النووية إلى الاشتراكية».

جسدت الأسلحة النووية الإسهام الأكثر قذارة في الموت المعاصر للعالم. بعد أن جرب الأميركيون عام (1945 م) باليابانيين ما يمكن لأسلحتهم النووية فعله بالبشر، وتعادل الاتحاد السوفيتي مع أميركا في تقنية السلاح الذري، بدأ سباق التسلح النووي إلى أن صار بوسع كل واحدة من القوى النووية القضاء مرات عديدة على مختلف أنواع الحياة على الأرض. وعندما ظهرت عام (1970 م) دراسة ألمانية تقع في سبعمئة صفحة حول «نتائج الحرب والوقاية منها» تحلل النتائج الوخيمة التي يمكن أن تنجم عن حرب نووية بالنسبة إلى جمهورية ألمانيا الاتحادية قبل كل شيء، هز قسم من الخبراء أيديهم باستخفاف وقالوا: ليس هذا جديداً؛ وقد سبق أن أجرى حساباته بأهلية أعلى بكثير حلف شمال الأطلسي. عندئذ كتب أحد معلقي الصحف بسخرية مرة: «هي ذي الحرب تصير بدورها شأناً من شؤون أساتذة الجامعات»[5].

وفقا للاتجاهات المسيطرة في السياسة ولتقنيات التدمير، يعدّ نشوب حرب عالمية شيئاً محتمل الحدوث، كما استخلصت دراسة نشرت عام (1962 م) في لندن عنوانها: ‹الصراع في الفضاء الكوني›. قالت الدراسة: «إن الشرق والغرب سيحتاجان ذات يوم إلى خوض تجربة قوة من أجل تسوية تناقضاتهما»؛ أما أفضل حقل للقتال فهو الفضاء الكوني. إن كل ما يحتاج إليه أمر كهذا هو وجود استراتيجي حازم تأخذ هذه القضية بلبه؛ يشبه ذاك الذي وصفه ليو تولستوي في روايته: حرب وسلام بالكلمات التالية: «لا بد أن يكون محدوداً، ومقتنعاً بشدة بالأهمية القصوى لما يفعله، وإلا كان عليه أن يفقد صبره، عندئذ فقط يمكن له أن

يكون قائداً ميدانياً مجتهداً. ليحفظه الرب من أن يكون إنساناً يشعر مثلا بالحب والتعاطف، أو يشغل نفسه بأفكار حول ما هو عادل وما هو ظالم».

فيما بعد، تسلى رئيس الولايات المتحدة رونالد ريغان بفكرة إسقاط صواريخ أطلقت من «إمبراطورية الشر» وهي في الفضاء الكوني، من أجل تغيير توازن الرعب لصالح الغرب، أو بقول أدق: لصالح أميركا. إن عبادة وثني العلم الطبيعي والتقنية، التي لم تخب أبداً، تحتفي هكذا بتأدية وظيفتها على خير وجه.

بجهالة مماثلة، وحب للإنسان امتاز به منذ عام (1962 م) كان رئيس الجمعية الألمانية لتقنية الصواريخ والأسفار الفضائية إيغون سنغر واثقاً، قبل ريغان بوقت طويل، من أن «تطور شبكة الأسلحة الفضائية شديدة الشمول، الذي خطا من القنبلة الذرية إلى الصاروخ العابر، قد أفقد منظومات الأسلحة التقليدية قيمتها إلى أبعد حد يمكن تخيله، فضلاً عن أن هذه الشبكة ستؤدي تدريجياً إلى اختفاء الإمكانية التقنية لخوض الحرب بين بلدان متفرقة اختفاء تاماً، وأن أسلحتها ستتطور إلى نوع من جهاز بوليسي ضروري يمكن استخدامه من الآن فصاعداً ضد قوميين متفرقين ينتهكون السلام ويقلقلون النظام»[6]. يالها من سبحات فكرية تستحق الملاحظة!.

لم يختف التهديد الكوني بالفناء النووي، ليس لأن القوى العالمية أبدت قدراً من العقلانية جعلها تلقي بهذا «الشيء الشيطاني» (إيريش هونيكر) إلى المزبلة، بل لأن: «إمبراطورية الشر» انهارت مخلفة وراءها من اعتبروا أنفسهم أخياراً مع أسلحتهم النووية، وقد تيتموا لأن عدوهم أقلع فجأة عن الوجود. تنفست البشرية الصعداء، ثم حبست أنفاسها وهي تكتشف: «أن الأنظمة المهتمة يمكن أن تضع يدها على بعض أسلحة الاتحاد السوفيتي الذرية، مما يجعل استخدام أسلحة الدمار الشامل في الحروب الإقليمية أمراً مرجحاً أكثر من أي وقت مضى»[7].

هكذا وجدت دون سابق تخطيط أو قصد ثلاث قوى نووية جديدة هي:

أوكرانيا، وروسيا البيضاء، وقازخستان، كانت جمهوريات سوفيتية وصارت منذ نهاية الاتحاد السوفيتي دولاً مستقلة مزودة بأسلحة نووية. لكن هذه تخلت، لحسن الحظ، عن حقها في التصرف بأسلحتها، في حين تكفلت روسيا من جانبها بوضع مختلف أسلحة الإمبراطورية السوفيتية ودول حلف وارسو الذرية تحت رقابتها، فحقق العقل بذلك انتصاراً عظيماً.

لكن مسألة على القدر نفسه من الأهمية تؤرق العالم إلى اليوم: إنها صفقات المواد الانشطارية والمشعة غير الشرعية، التي يحتمل أن يكون مصدرها دول الاتحاد السوفيتي السابق. هذه المواد، بلوتونيوم وأورانيوم عالي التخصيب، تنتج عن تشغيل مفاعل نووي، وهي في الوقت نفسه المواد الأولية التي تصنع منها الأسلحة الذرية. هذه التجارة السوداء لا تنفع معها، بطبيعة الحال، اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية، ويمكن أن تزدهر مع تعاظم عدد الدول التي تستخدم الطاقة النووية لأغراض مدنية، وتنتجِ مواد انشطارية أو قابلة للانشطار. في عام (1995 م) كان هناك (431) مفاعلاً نووياً قيد العمل في (34) بلداً.

وتلزم اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية المطبقة منذ عام (1970 م) التي وافق عليها حتى الآن (179) دولة، البلدان الرسمية الخمسة المالكة للأسلحة النووية، وهي الولايات المتحدة الأميركية، وروسيا، والصين، وبريطانيا، وفرنسا، بالامتناع عن إعطاء أسلحة وتقنية نووية إلى دول لا تمتلكها، وتمنع هذه من تطوير وإنتاج وامتلاك أسلحة نووية. وتتم مراقبة التقيد بالاتفاقية من قبل اللجنة الدولية للطاقة الذرية ومقرها في فيينا. هذه الاتفاقية تم تمديدها عام (1995 م) إلى أجل غير مسمى.

يعرفون في فيينا وغيرها من الأمكنة أن الاتفاقية شيء والحياة شيء آخر. في الواقع، تم نقل مواد انشطارية ومعرفة تقنية بل أسلحة نووية إلى طرف ثان. وليست الهند وباكستان غير مثلين لذلك، علماً بأن الهند تسلح نفسها ضد الصين وباكستان ضد الهند، وتمتلك هاتان الدولتان كلتاهما المعرفة الضرورية

لإنتاج أسلحة نووية، وتعتقد الهند أنها كانت على صواب في سلوكها، بعد أن رفعت أميركا الحظر على تصدير مفاعلات نووية إلى الصين في تشرين أول من عام (1997 م) عقب وعد صيني بعدم نقل تقنية ذرية مدنية إلى بلدان ثالثة كإيران، على سبيل المثال، واستثمار أكثر من خمسين ملياراً من الدولارات لشراء المفاعلات. لم تعد أميركا ترى في المنع القانوني لتصدير المفاعلات النووية إلى الصين أمراً ملزماً لها.

تريد إسرائيل إضافة السلاح النووي إلى ترسانتها، كي تحافظ على تفوقها العسكري حيال جيرانها العرب. وقد كدست مئتي رأس نووي إلى الآن، ورفضت، كالهند وباكستان، توقيع اتفاقية حظر انتشار الأسلحة النووية، والسماح للجنة فيينا بمراقبة منشآتها الذرية. بينما وقع العراق وكذلك كوريا الشمالية، ليتمكنا من متابعة مقاصدهما النووية سراً.

لم تحل مشكلة التجارب النووية بعد. يقال إن إجراءها ضروري لتحسين الرؤوس النووية، مع أن كل طرف يعلن عن رغبته في ممارسة أعلى أشكال التحفظ إلى أن يتم التوصل إلى اتفاقية نهائية تنظم الأمور. هذا ما قررته الدول النووية الرسمية الخمس عام (1995 م) لدى قيامها بتمديد اتفاقية حظر انتشار الأسلحة النووية.

وأجرت فرنسا ستة تفجيرات ذرية على جزيرة موروروا حتى كانون الثاني من عام (1996 م) بذريعة أن إجراءها يخدم الأمن الأوروبي، كما أعلنت باريس بفم بارد. وتعتقد الصين، رغم إعلانات النيات الكثيرة، بضرورة تفجير رؤوس نووية من أجل أغراض سلمية. وتؤيد بقوة استثناءها من محاولات الوقف العام للتجارب. لذلك يبدو التوصل إلى اتفاقية مستبعداً بدرجة لا نهاية لها.

انفجرت قنبلة الأورانيوم فوق هيروشيما في الثامنة والربع بالتوقيت المحلي من صبيحة يوم السادس من آب عام (1945 م). وفي الحادية عشرة والدقيقة الثانية

بالتوقيت المحلي من التاسع من آب عام (1945 م) انفجرت قنبلة بلوتونيوم فوق ناغازاكي.

وقد كتب شخص بخط يده على التقرير المسجل يوم (26) تموز من عام (1945 م) حول المادة الانشطارية المستخدمة في قنبلة هيروشيما يقول: «هذه المادة التي استعرضناها نقلها بارسن وتيبت لتكون حصة هيروشيما من يوم القيامة». واستنزل الكاهن الميداني وليام دوناي بركة الرب على بعثة هيروشيما من خلال الصلاة التالية: «أيها الأب الكلي القدرة، الذي يصغي إلى صلوات من يحبونه، نرجوك أن تقف إلى جانب من يحلقون في أعالي سمائك لينقلوا القتال إلى أعدائنا. احفظهم واحمهم يا رب، حين يطيرون لتحقيق المهام التي أمروا بها، ليكون بمستطاعهم وبمستطاعنا معرفة قوتك وسلطتك، ولكي يكون بوسعهم إيصال هذه الحرب إلى نهاية سريعة بمعونتك. نضرع إليك أن تجعل نهاية الحرب وشيكة، كي ننعم من جديد بالسلام على الأرض. ليكن هؤلاء الرجال، الذي يطيرون الليلة، في حماك وليعودوا إلينا سالمين. سنواصل معتمدين عليك طريقنا، لأننا نعرف أننا تحت حمايتك: الآن وإلى الأبد. آمين»[8]. ولقد استجاب الرب لدعائه.

تبادل الرب والإنسان الأماكن. أما نقطة الذروة والختام المؤقت لهذا التطور فهي: إنسان المختبر.

يعيش ويعمل في كليفلاند من أعمال دولة أوهايو الاتحادية الأميركية علاّمة في جراحة زراعة الأعضاء هو روبرت جوزيف وايت، أستاذ جامعة كيزويسترن ريزرف، الطبيب في المشفى والمواطن المحترم والكاثوليكي المؤمن، وزائر البابا ونصير ديكارت المتحمس. في نظر البروفيسور، يعتبر الدماغ القوام المادي للفكر، أي لكل ما يصنع جوهر الإنسان. بينما الجسم موجود لغاية واحدة فقط هي إبقاء الدماغ ووعائه، الذي هو الرأس، على قيد الحياة. هكذا يكون الجسم ضرباً من صندوق تغذية ذاتية.

يمكننا افتراض أن البروفيسور يعرف جميع أنواع زراعة الأعضاء، ليس مهما في هذا السياق إن كان أجراها مباشرة بيديه أم لم يجرها، إنه يعرف زراعة القلب والرئة والكبد والبنكرياس والكلى . . . الخ. لكنه لا يعرف بالتأكيد كيف يزرع رأس إنسان، أو لنقل إنه لا يعرف هذا بعد، وإن كان ضليعاً في زراعة رؤوس القردة، التي مارسها أول الأمر على القردة طويلة الذيل، ثم على القردة العليا: أقرب أقارب الإنسان الصانع والعاقل (هوموسابيانز) التي نجح في إبقاء بعضها أحياء، لبعض الوقت على الأقل.

عندما شاع نبأ تجاربه، أطلقوا عليه لقب (فرانكشتاين أوهايو). وهذا ضرب من هزء حاقد وظالم، ما دام العالم يعتبر نفسه «فاعل خير للبشرية» و«حاملا لراية التقدم»[9] ويأمل أن يتمكن الإنسان أيضاً من التمتع بنعم الفن الطبي الجديدة. إلى أن يحدث هذا، لا بد من حل للمشكلة الأكثر إلحاحاً، مشكلة ربط أعصاب الرأس القديم، الرؤوس القديمة، الذكية والبارعة والقيمة التي تستحق وحدها الزرع، بالجسم الجديد، لأن أي إخفاق في هذا الربط يصيب الجسم بالشلل.

ربما كانت جهود البروفيسور وايت ستصير غير ضرورية، إذا ما نجح زميله في الطب ريتشارد سيد في استنساخ إنسان كامل، يلغي استنساخه الحاجة إلى زراعة الرأس. ليس هناك شكوك جدية في احتمال نجاح هذا المسعى، فما أنجزه العلماء الاسكتلنديون مع النعجة دوللي لا بد أن يكون ممكن التحقق لدى الإنسان أيضاً، الذي هو في نهاية الأمر حيوان ينتمي إلى فصيلة الثدييات، إن نحن تأملناه بأعين بيولوجية.

يتم منذ وقت طويل استنساخ أجنة أعراق عليا، عجول وخراف، في مخابر حديثة لتنشئة الحيوانات، تنتج حيوانات متماثلة إلى أبعد حد من الناحية الوراثية. في عام (1993 م) جرب العالم الأميركي جيري هول هذه الطريقة على أجنة بشرية، فنجحت التجارب وقوبلت باحتجاجات شملت العالم بأسره. عندما قدمت دوللي إلى الرأي العام في نهاية شهر شباط من عام (1997 م) تحول الرعب الذي

أطلقه حتى ذلك الحين استنساخ الأجنة إلى ذعر صريح. تلك كانت أول مرة تنظر فيها نسخة من حيوان بالغ إلى الكاميرا، علما بأن دوللي لم تستنسخ من أجنة مزروعة بل من خلايا أخذت من ضرع خروف ومزجت بخلايا مستنسخة، تم إبعاد نوى الخلايا الحاملة للصفات الوراثية، لخروف آخر. إن دوللي هي النسخة المطابقة وراثياً لخروف الخلايا الضرعية.

لن تلبث أعمال مماثلة أن تبدأ مع الإنسان. ويبدو أن بعض الأميركيين تتأكلهم الرغبة في التوجه إلى مخبر الدكتور سيد. في هذا السياق، يتم التذكير بالأخلاق والقانون وبكرامة الإنسان. وقد أصدرت ولاية كاليفورنيا منعاً عاماً للاستنساخ. أما في ألمانيا، فإن قانون حماية الأجنة يسمح بفرض منع كهذا، وإن كان الوضع القانوني غير واضح تماماً بعد. كما أقر مجلس أوروبا في تشرين الثاني من عام (1997 م) محضراً يحظر فيه استنساخ الإنسان. فهل يتحول الحظر إلى قانون ملزم؟

11) آمال خائبة
انحدار العلم الطبيعي

حمل العلم الطبيعي قيماً فكرية رفيعة منذ نشأته في بداية القرن السابع عشر، مع أن هدفه كان حل أسرار العالم الفيزيائي. فقد اعتقد الرأي العام أن قيمته الاستعمالية لا تقتصر على المعارف العلمية الطبيعية، بل تمتد لتشمل كذلك الوجود الأخلاقي والمعنوي للإنسان، من حيث تساعده في توجهه الحياتي، وتأسيس معنى لوجوده، وتستطيع تعيين موقعه ضمن العالم. هكذا عقدت آمال كبيرة على العلم الطبيعي، الذي تعين موقعه وتقررت قيمته من خلال معرفة الطبيعة وإسهامها في تحسين شروط الحياة المادية وخاصة منها المعنوية، وارتقى ليصبح شأناً ثقافياً من أرفع طراز.

لفك الأسرار، كان لا بد من قراءة: (كتاب الطبيعة) وحل رموزه. كان ذلك ممكناً من وجهة النظر السائدة آنذاك، بمساعدة العقل، أو بقول أدق: بمساعدة

الرياضيات بوصفها: (أكثر العلوم عقلانية) بما أن الواقع، المتطابق مفهومياً مع العالم والطبيعة والمادة، منظم وفق أسس رياضية.

تعني معرفة هذا النظام معرفة الواقع، أي «العثور على الطريق التي تقود إلى الرب» وهي طريق جديدة، مستقيمة وعريضة. لم يعد التوغل إلى الأسرار ممكناً بواسطة الإيمان. ولم تعد سالكة الدروب القديمة، الملتوية، التي كان اللاهوت قد شقها ذات يوم. وأقلع الكتاب عن أن يكون صالحاً كمصدر للمعرفة، ما دامت مقولاته تكتسب فقط عبر تأويلات يقدمها الإنسان؛ فهي مقولات متعددة المعاني! في حين أبان إصلاح مارتن لوثر الديني في العقد الثاني من القرن السادس عشر القوة التفجيرية التي يمكن أن تكمن في هذه التأويلات.

لم تبق هذه النظرات الجديدة دون اعتراض، بل تحركت ضدها السلطات القديمة، وقاومتها الكنيسة وعقائدها، فدانته عام (1632 م) محاكم التفتيش، وفرضت عليه إقامة إجبارية مفتوحة في بيته. وكان على رينيه ديكارت، العائش منذ (1629 م) في هولندا، قبول إدانة أصدرتها جامعة أوترشت ضد فلسفته. قبل أن يشعر في النهاية بخطورة وضعه، ويجد نفسه مجبراً على طلب الحماية لشخصه من السفير الفرنسي، الذي تدخل بالفعل لصالحه لدى أمير أورانيان.

غير أن أبنية السلطات القديمة تصدعت وآلت للسقوط، مذ هدمت العلوم، وليس فقط العلم الطبيعي وحده، بمعول العقل أساساتها. عندئذ، تحول العالم إلى ورشة بناء جلب العلم أحجارها واحدا بعد آخر وأشاد منها مسكنا جديداً وعصريا هو صورة العالم العلمية. وكان هذا العالم يكشف حقيقته بامتلاء ووضوح طاغيين لكل من ينظر إليه من نافذة المسكن الجديد.

منذ الآن، صار كل شيء قابلا لأن نتعرفه ونفسره: من حقيقة الطبيعة الفيزيائية والمادية، إلى تلك الأجزاء الحياتية غير المادية والروحية، ومنها الحق بوصفه: (حقاً طبيعياً) كان الرب قد غرسه في الإنسان الذي يستطيع معرفته بالتفكير العقلاني؛؛

والدولة كعقد بين بشر أحرار، والدين كخرافة.

هذا هو التقدم، الذي أفعم العلم، وفي المقدمة منه علم الطبيعة، متعاظماً بالقيمة. وهذا هو الإيمان القطعي باستحالة وقف التقدم. سيتمكن «الإنسان من تجهيز العالم بطريقة تلائم مقاصده الحقيقية بصورة نهائية» . . . إن ما كان قد بدأ مثل (طريق يفضي إلى الرب) قد صار الآن «طريقاً إلى الإنسان وإلى تحديده الأصلي»[1]. مع الإيمان بالتقدم بلغت العلوم الطبيعية مرتبة وقيمة مخلّص دنيوي، كأن أمل القياميين في الملكوت الألفي شرع يتحقق.

في الواقع كانت التطبيقات التقنية للتقدم تبعث على الدوار العلمي. فقد اكتشف غاليليو قوانين حركات الرقاص، وتوصل عام (1609 م) إلى معرفة قوانين السقوط الحر. لكن النجم الرئيس في فلك العلوم الطبيعية كان إسحاق نيوتن (1643 – 1727 م) مؤسس الفيزياء النظرية الكلاسيكية الذي اكتشف قانون الثقالة، وقدم بميكانيكه السماوي البرهان على صلاحية قوانين الأرض الطبيعية للأجسام السماوية أيضاً، ووجد أن ضوء الشمس الأبيض يتكون من ألوان الطيف، وطوّر حساب اللانهايات؛ هذا كله ليس سوى بعض إنجازاته.

وقع اختيارنا في المجال التقني على فرنسي المنفى دينيس بابان، الذي نعلم كم كان اختياره نموذجياً وتعسفياً في آن معاً. فقد طور عام (1680 م) مرجل بخار بصمام أمان واخترع بعد عشرة أعوام آلة بخارية هوائية. ووقع اختيارنا على جيمس واط، الذي بنى أول آلة بخارية صالحة للاستخدام عام (1765 م) والأميركي بنيامين فرانكلين، مخترع مانعة الصواعق عام (1752 م) والأخوين مونتغولفييه، اللذين أطلقا أول بالون يطير بالهواء الساخن عام (1783 م) وعلى ظهره من الركاب: خروف وديك وبطة.

يا لها من أحداث تحبس الأنفاس! ومع ذلك، بدأ أصحاب الطبائع المفكرة يتساءلون: أين يكمن بعد كل ذلك التقدم الأخلاقي والتمدن الرفيع. وهل يرتبط

بهذه المعارف الغامرة توجه فعلي للوجود. لقد كان واضحاً أنه يمكن استخدامها لفائدة الإنسان، ما أن تتم ترجمتها إلى تقنية. لكن هذه المنفعة كانت تقتصر على قيمتها الاستعمالية وحدها، لذلك لم يكن ممكناً الحديث في هذا السياق عن الرقي الأخلاقي على سبيل المثال.

لا عجب أن يكون نقد الإيمان بالتقدم قد رافق العلم منذ بدايته. يصور الكاتب الأيرلندي جوناثان سويفت في: رحلات غوليفر (1726 م) تصويراً ساخراً الجمعية الملكية، التي كانت قد نذرت نفسها تماماً لتجارب علمية بالمعنى الذي قال به فرانسيس بيكون، ويدفع تطبيق المعارف الجديدة على الحياة إلى حدود العبث. يصل غوليفر إلى مملكة لابوتا، الجزيرة التي تحوم فوق الأرض، وهي رمز للجمعية الملكية، حيث تجري الأمور بطريقة غريبة إلى أقصى حد، في الحياة الفعلية كما على لابوتا: «لاحظ السادة الذين وكّلهم الملك بي رثاثة ثيابي، فأمروا بقدوم خياط إليّ في صبيحة اليوم التالي كي يأخذ قياسي ويصنع لي بدلات جديدة. هذا الحرفي تصرف بطريقة مختلفة كل الاختلاف عن الطريقة الأوروبية، فقد قاس أول الأمر ارتفاعي بربع دائرة، ثم أخذ بمقياس وبوصلة أبعاد وثنايا جسدي، ودون ملاحظاته على الورق. بعد ستة أيام أحضر ثيابي إليّ، فلم تكن ملائمة أبداً لأن خطأ في الحساب الجبري كان قد تسلل إلى قياساتي. لكنه كان لدي مع ذلك سبب يعزيني، هو أن حوادث كهذه كانت كثيرة التكرار حتى أقلع القوم عن إعارتها أي اهتمام». ليس سكان لابوتا سوى «منطقيين سيئين وشديدي الميل إلى المناكفة. وهم لا يملكون رأيا صائباً إلا في ما ندر، ويجهلون جهلاً تاماً القدرة على التفكير والخيال وموهبة الابتكار، لذلك تخلو لغتهم من الكلمات المعبرة عنها . . . في حين يؤمن معظمهم، وخاصة منهم أولئك المهتمين بالرياضيات الفضائية، بالتنجيم، رغم أنهم يخجلون من الاعتراف بذلك علناً»[2].

لم يكن شيئاً محبباً على الإطلاق ذاك الذي كتبه المؤلف السويسري/ الفرنسي جان جاك روسو. فقد خصصت أكاديمية ديجون جائزة لأفضل إجابة عن

السؤال حول ما إذا كان: «تقدم العلوم والفنون قد أسهم في تنقية الأخلاق» فجاء جواب روسو، نشر عام (1750 م) غير تقليدي بالمرة، إذ أبدى تنكراً ساطعاً لروح العصر التقدمية الميل، حين قال في كتابه، الفائز بالجائزة، في ما قاله: «لا تنفع العلوم أبداً بسبب ما تطمح إليه، وهي أشد خطرا بكثير بسبب التأثير الذي تحدثه. لقد نشأت في التنبلة، وهي تعززها بدورها». يسمي روسو المسؤولين عن ذلك أنهم: «صناع الكتب، الكتّاب، والمتعلمين التنابل، صناع الجمل المتكبرين والفارغين هؤلاء، الذين يقوضون بمفارقاتهم الكارثية أسس الإيمان، ويقضون على الفضيلة. إنهم يسخرون باحتقار من التعابير القديمة حول الوطن والدين وينذرون مواهبهم وفلسفتهم لتحقير كل ما هو مقدس للبشر»[3]. بالنسبة إلى روسو، اهتزت ركائز العالم الأخلاقية، لذلك يستحيل الحديث عن تنقية الأخلاق من خلال العلوم. ولا بد من إقامة جبهة ضد هذا التدهور، والتسلح بالفضائل كالصرامة الأخلاقية، والبساطة والاجتهاد في العمل.

هز زلزال لشبونة، الذي وقع في الأول من تشرين الثاني عام (1755 م) وقتل فيه ثلاثون ألف إنسان، التفاؤل بالتقدم لبرهة. فقد اتضح منذ ذلك اليوم المأساوي وجود حدود مطلقة لقدرتنا على التحكم بالطبيعة. ومع أن الناس أخذوا علماً بهذا، فإنهم واصلوا تمجيد الإيمان بالتقدم، الذي بلغ ذروته في القرن التاسع عشر: القرن المشبع إلى أبعد حد بالتفاؤل.

بقيت الشكوك قائمة في قيمة العلم منشئاً لمعنى، لتعيين موقع الإنسان في العالم. فقد كان جلياً أن الوعود بعالم أفضل جديد تحققت في المجال المادي، وأن الحيز الفكري - المعنوي - بقي خالي الوفاض. رغم ذلك، بقي صوت النقد خافتا بوجه عام وسط تفاؤلية التقدم الصاخبة التي ردد القرن التاسع عشر أصداءها.

تغير هذا الوضع مع منعطف قرننا الحالي، إذ تساءل العلم نفسه إن كان قد أفرط في تقديم الوعود، وكانت آماله في تقديم طريق وتفسير جديدين للوجود الإنساني محض هوس متعجرف، أو كان الإيمان بالتقدم محض خرافة، وأخيراً إن

كان هو نفسه قد أخفق بصفته مخلّصا دنيوياً.

هذه التساؤلات كانت بداية تطور عدّه عالم الاجتماع فريدريش هاينريش تنبروك عام (1984 م) «وداعاً للأمل باكتساب الإنسان وجهة لوجوده من خلال المعرفة»[4]. في مقالة كتبها عام (1975 م) وصف ما أسماه: «سيرورة تسطيح» العلم، وتوصل إلى نتيجة ترى: «أنه نشأ من الرسالة البدئية، التي تزعم قدرة العلم على الاستجابة لكل قضايا الإنسان الجوهرية وعلى وضعه في صلب الحقيقة، مذهب جديد معاكس يقول أن القضايا التي يمكن الإجابة عنها بدقة منطقية . . . هذه النزعة العلموية ترجع إلى محاولة تجميد القضايا الأصلية، عقب قرون من الجهود التي أخفقت في إيجاد حلول ملائمة لها»[5].

تعني «سيرورة التسطيح» أن نلقي عن كاهلنا بالآمال الذهنية، لكونها تضييع للامتلاء بالقيم وتبديد لطاقة الثقافة. لنرجع إلى تنبروك (1984 م): «لم يبق غير المعارف المنصبة على الترابطات بين الوقائع، المهمة لجميع ضروب المقاصد التقنية الممكنة، والخالية في الوقت نفسه من أي معنى لتعيين وجهة للوجود، والتي غيبت كذلك الطبيعة مصدراً من مصادر تأويل هذا الوجود»[6].

مع نشوء إمكانية إنزال فناء شامل بالإنسان، حلت النهاية النهائية للعلوم الطبيعية كعلوم تمنح نظاماً، وتنشئ معنى، وتحدد موقع العالم والإنسان. بهذه الإمكانية صار ممكناً إحداث أي شيء، بما في ذلك الفناء النهائي. في هذا السياق، جرت الإشارة إلى مشكلات البيئة، والطاقة النووية، والإنسان موضوعاً للعبث. واتضح أن وعد الخلاص الدنيوي السابق تحول إلى تهديد بالكارثة، وأن الرغبة في استخلاص توجه للوجود منه هي عبث لا طائل تحته.

منذ هذه اللحظة، تحدد موقع الإنسان من العلم «بالقيمة الاستعمالية» (تنبروك) دون غيرها. إن ما يبدو نافعاً يتم بحثه وتجريبه وإنتاجه واستعماله. بالمقابل، يعدّ متجاوزاً السؤال حول ما إذا كان لهذا كله معنى بالنسبة إلى توجه

الإنسان في الوجود، ولتأويل هذا الوجود ورفع سويته الأخلاقية. لقد صار الإنسان سجين ذاته. ويتحدث ماكس فيبر في: ‹الأخلاق البروتستانتية› عن: «محبس صلب كالفولاذ» هو العلم، نفي الإنسان إليه، بعضه عن بعض، دون أن يكون قد توصل بعد إلى معرفة أي شيء عن العقلانية المنشئة للمعنى، التي كانت قد أقامت هذا المحبس ذات يوم.

يبدأ أدورنو وماكس هوركهايمر كتابهما: ‹ديالكتيك التنوير› بالجمل التالية: «مذ كان، لاحق التنوير بالمعنى الأشمل لفكر يتقدم هدف نزع الخوف من الإنسان الذي يريد استخدامه كسيد. لكن الأرض المكتمل تنويرها تشع في ظل الكارثة الظافرة»[7].

يلوح: ‹الإعلان للدفاع عن الاستنساخ› وكأنه تغطية لهذا الرأي. وهو إعلان أصدره اثنان وعشرون عالماً بارزاً، بعد تعرض منتجي الخروف دوللي والعالم ريتشارد سيد لنقد فظ. وثمة بين أسماء الموقعين اسم الفيلسوف إشعيا برلين، المتوفى مؤخراً، واسم حامل جائزة نوبل فرنسيس كريك. يطالب هؤلاء العلماء والفلاسفة: «بمواصلة تطور مفعم بالمسؤولية لتقنيات الاستنساخ» وينظرون «بقلق إلى النداءات واسعة الانتشار الداعية إلى تعويق أو قطع البحث فيه أو حرمانه الوسائل والأدوات . . . إننا لا نرى أية معضلات أخلاقية محايثة لاستنساخ حيوانات عليا غير بشرية. وإن كنا نرى بجلاء أن التطورات اللاحقة لاستنساخ نسج بشرية أو حتى استنساخ الإنسان ذاته ستطرح معضلات أخلاقية قد لا يتمكن العقل من حلها . . . يجب اعتبار الطبيعة البشرية فريدة في نوعها ومقدسة . . . ولكن العلم يقول في الوقت نفسه إن الإنسان الصانع والعاقل ليس سوى ممثل لمملكة الحيوان . . . وإن المخزون البشري الغني بالأفكار والأحاسيس والأشواق والآمال يتغذى من سيرورات كهرومغناطيسية تحدث في الدماغ وليس من روح غير مادية . . . لذا، يطرح النقاش الجاري سؤالاً حول ما إذا كان الناطقون باسم صور عالمية مافوق طبيعية أو روحية يتمتعون فعلاً

بالمؤهلات التي تمكنهم من الإسهام في ذلك النقاش . . . إننا نرى الخطر في واقعة أن البحث، الذي قد يكون ذا نفع هائل، يقمع لا لسبب إلا لمحض تعارضه مع التصورات الدينية لبعض الناس»[8].

هل يمكن أن يتلبس الخوف من جديد هؤلاء الناس عند تشبههم بالرب، على غرار ما تنبأ مِفِيستو للتلميذ في فاوست غوته. هذا ما لا نعتقده.

مع نهاية القرن العشرين، أحبطت الجهود التي استمرت قروناً طويلة واستهدفت تكريس العلوم الطبيعية علوماً منشئة للمعنى ومؤسسات تحدد توجهها لوجود الإنسان. وضاعت الآمال في اكتساب نموذج تفسيري للحياة، تاركة وراءها إنساناً فقد اتجاهه يبحث يائساً عن معنى لوجوده؛ قد يجد تفسيرات للحياة لدى العلوم الإنسانية والاجتماعية: ،«التي تعاظم فيها مطلب امتلاك معرفة حقيقية، ووضع كمال الإنسان والعالم قيد الفعل»[9]. ربما كان هذا يفسر الطابع الخلاصي الدنيوي الذي اكتسبته علوم النفس والاجتماع والطب قبل غيرها.

لا يغير هذا شيئاً من واقعة أن الإنسان لا يشعر بغير الذعر حيال علم طبيعي رؤيوي الأبعاد، وأن شعوره لا يني يتعاظم كلما تأكد له أنه متروك دون حول أو قوة تحت رحمة الأحداث. ترى، ماذا يستطيع الإنسان أن يفعل في عالم فرض عليه محنة وجودية، لأنه ما عاد يجد نفسه فيه أو يفهمه.

إنه يستطيع أن يبحث عن إيمان يعده بالأمان، والاطمئنان، وبحقيقة صلبة لا تقبل الكسر، ليكتشف أنه لن يجد ما يبحث عنه لدى: (دين علماني) وسيحصل على الحجارة عوض الخبز؛ يمكن توقع شيءٍ كهذا لدى العلوم الطبيعية وبالنسبة إلى العلوم الإنسانية/ الاجتماعية أيضاً. عندئذ، سينصرف عنها خائب الرجاء، ليواصل البحث عن خلاصه لدى قوى متعالية، دون أن يعود بالضرورة إلى التدين الكلاسيكي. إنه قد يعد نفسه بتوجه صحيح يأتيه من التشكلات الدينية

الهامشية. وستكون زمرها التقليدية جاهزة بدورها لاستقباله، ومثلها تلك التي يرمزون إليها بمفهوم جامع هو (العبادات الجديدة).

يتوقف كل شيء الآن على الكيفية التي استعد الإنسان بها روحياً. هل صار العالم بالنسبة إليه محض فظاعة ومسرح أحداث ضد الرب لا تلقى أي عقاب، فلا جدوى بعد من العيش فيه، ولا بد للإنسان أن يتمنى هلاكه وفق النموذج القيامي المعهود، وأن يضع ثقته كلها في أمل الانتقال إلى ملكوت الرب الأرضي. إنه سيجد ملجأ عندئذ لدى واحدة من زمر هلاك العالم من أمثال: (شهود يهوه) والمبشرين باليوم السابع.

في حالة روحية أخرى، عندما يعتقد بإمكانية تحسين العالم في الأرض، ما أن يغير ذاته، ربما كرس نفسه لأكثر حركات (العبادات الجديدة) نجاحاً في وقتنا: حركة 'نْيُو إيدج'[10] التي لا تحمل تصورات حول هلاك العالم، وتعوض عن هذا النقص بشوق جارف إلى عالم جديد، مسالم وسعيد. يؤمن أتباع هذه الحركة بوعي كوني متخط للفردية، يتم فيه، بين أشياء أخرى، تجاوز التعارضات بين الذات والموضوع والروح والطبيعة. ويقولون إن الشيء الرئيس للإنسان هو قهر أناه الفردية، والتوحد مع الوعي الكوني العام. يرى جماعة 'نْيُو إيدج' أن لا خلاص لهم بغير توحد كهذا، لاعتقادهم أن الإنسان والطبيعة والكون وحدة لا تقبل التقسيم، وإن انفرد التفكير القائم على ثنائية الذات/ الموضوع بتقسيمها بطريقة خاطئة إلى مجالات وجود خاصة بكل من هذين الحدين. تتضمن حركة 'نْيُو إيدج' التي انتقلت في ثمانينيات قرننا من أمريكا إلى أوروبا، قليلاً من نزعة الكشف عن الغيب: التنجيم هنا، وبعض الغرائبية هناك؛ وتفوح منها رائحة مشاهد العلاج والتجريب الذاتيين، فهي تقدم نفسها كحركة مرتبطة بالأرض، مفعمة بالطبيعة ونباتية، تستخدم التنجيم، والتخاطر وتحضير الأرواح وغيره كثير – لكنها لا تكاد تستخدم العقل أبداً. ويؤمن أتباع هذه البدعة إيماناً شديداً بأن عدداً متزايداً من البشر سيسير على طريق الكشف الداخلي، طريق الخلاص،

وسينشأ عالم جديد أكثر جمالاً من العالم الحالي، متى تم تخطي الأنا والتوحد مع الوعي الكوني.

سنأخذ، (شهود يهوه) أو (أول الباحثين الإنجيليين) كما كان اسمهم سابقاً، مثالاً أول على الزمر التي نريد الآن العودة إليها. كان شارل تازه رَسِل (1852 – 1916 م) التاجر من مدينة بتسبرغ مؤسس الجماعة، يؤمن أن الرب اصطفى مجموعة من المبشرين قد كانت تنبأَت بعودة المسيح عام (1872 / 1873 م). عندما مر الموعد دون عودته، قال رَسِل، الذي كان شرع يصدر في هذه الأثناء مجلة (فَخ تُورم/ أي: برج المراقبة): إن عام (1914 م) سيشهد فناء جميع الممالك وبداية الفردوس الأرضي، الذي هو ملكوت المسيح. عندما لم يحدث هذا بدوره، أرجأه إلى عام (1915 و1916 م) وأخيراً إلى عام (1918 م). لكنه كان قد فارق الحياة قبل الموعد النهائي. ومع ذلك، يفترض بالهلاك الأخير أن يكون قد تم عام (1975 م)؛ كان هذا محض تخمين، كما أعلنت القيادة المركزية للشهود، الذين بلغ عددهم خمسة ونصف مليون عضو عام (1995 م) ومازالوا يواصلون بإصرار انتظار: (نهاية نظام الأشياء) ويثقون كل الثقة بحتمية انتقالهم إلى الفردوس الأرضي.

بدورها، تعدّ جماعة المبشرين باليوم السابع أميركية المنشأ، مهدت لها حركة قيامية أسسها الواعظ البابتستي وليام ميلر (1782 – 1849 م) الذي كان قد حدد يوم (21 آذار 1844 م) موعدا لعودة المسيح، ثم أرجأ الموعد إلى يوم 21 تشرين أول من العام ذاته. عندما انصرم يوم الموعد الجديد دون حدوث أي شيء، نقل بداية نهاية الزمن إلى السماء، حيث دخل يسوع قدس أقداس المعبد السماوي وأقام يوم دينونة دائم يفصل فيه من صفح عنهم عن الذين أدانهم. بالمناسبة، ما زال هؤلاء ينتظرون أيضاً عودة المسيح وبداية ملكوت السعادة الألفي على الأرض.

تحتل عناوين الصحف أخبار المجموعات التي يقتل أفرادها أنفسهم بطرق فظيعة، لاعتقادهم أنها ستنجيهم يوم هلاك العالم، الوشيك جداً. ربما كانت دوافع هؤلاء مختلفة في التفاصيل، لكنها تشترك جميعها في انتظار الانتقال إلى

عالم أفضل، وقابل للتحسين الدائم، وفي تشكل تصوراتها من خلطة فجة تضم الغرائبية، إلى أساطير الشرق الأقصى، إلى تفسيرات نفسية مشوهة وتصورات حول وحدة تشمل كل شيء، إلى وعود خلاصية عجائبية ونزعة إيمانية أميركية بالغرائبيات الفضائية، إلى جانب أشياء أخرى.

ينظر الخبراء بقلق كبير إلى تغير القرن، لأن بدعاً ومجموعات عقائدية متزايدة العدد تغرق نفسها أكثر فأكثر في مزاج لحمته وسداه هلاك العالم.

إن قائمة الانتحارات الجماعية طويلة جداً؛ وسنكتفي هنا بتقديم القائمة التي نشرتها يوم (9 كانون الثاني 1998 م) آبَنْدْبْلَتْ الصادرة في هامبورغ. فقد حدث الموت الجماعي الأفظع، بسبب عدد من لَقوا حتفهم فيه، عام (1978 م) في غويانا، حيث ذهب إلى الموت (923) عضواً في جماعة معبد الشعب في جونزتاون مع مسيحهم جيم جونز. في نيسان من عام (1993 م) اقتحمت الشرطة والجيش في بلدة ويكو التكساسية مزرعة تمتلكها جماعة ديفيد، عندما لقي اثنان وثمانون من أفرادها الَموت حرقاً مع زعيمهم ديفيد قورش.

بلغ عدد موتى جماعة: (معبد الشمس) أربعة وسبعين عضواً إلى الآن. وقد عثرت الشرطة يوم (23 كانون الأول 1995 م) على جثث ستة عشر من أعضائها قرب موقع تزلج سان بيير دو شيرين في جبل الفيركور الفرنسي، بينهم ثلاثة أطفال عمر أولهم سنتان وثانيهم أربعة وثالثهم ستة أعوام. وكان أربع عشرة من الجثث مرتبة على شكل نجم في زاوية من الغابة. وتم في شهر تشرين الأول من عام (1994 م) العثور على خمسة موتى من أتباع (معبد الشمس) في مرتفعات مورين الكندية. وفي بداية شهر تشرين الأول من عام (1994 م) وجد إلى الغرب من فريبورغ بسويسرا ثلاث وعشرون جثة، نضدت ثماني عشرة منها على شكل دائري في شيري ضمن منزل اسمه لاروشيت. ووجد خمس وعشرون جثة في نهاية شهر تشرين الأول داخل نزل بولاية فاليس في ليغرانج سورسلفان السويسرية، رتب تسع عشرة منها على شكل دائرة. في آذار عام (1997 م)

وجدت الشرطة الكندية قرب مونتريال جثثاً على شكل صليب لخمسة موتى من أتباع (معبد الشمس) ممن كانوا يتوقعون الانتقال إلى سيروس، أكثر نجوم السماء سطوعاً: «ليس للموت من وجود. إنه تهيؤ خالص وحسب»؛ هذا ما وجد مكتوباً على أوراق عثر عليها لدى الموتى.

هذه اللائحة يمكن إطالتها بإضافة حادثة إليها عرفت قبل فترة في تاناناريف، حيث أراد اثنان وثلاثون عضوا في طائفة ألمانية ممارسة انتحار جماعي، لكن الشرطة الأسبانية منعتهم من ارتكابه قبل لحظات من وقوعه.

ليست هذه الأحداث غير صرخة تحذير. إنه ضياع الماهية الروحية ومضمون القيم الذي يشمل سائر مجالات الحياة تقريباً ولا يقتصر على العلوم الطبيعية؛ .فإذا ما واصل الإنسان والعالم قياس نفسيهما في المستقبل أيضاً بمقياس قيمتهما النفعية، فلن يكون بإمكاننا قراءة شيء غير الهلاك من خط النار الذي كتب على الجدار، مثلما حدث ذات مرة في أزمنة بلصازار.

تنويه

في الوقت الذي نتقدم فيه بهذا الكتاب القيم إلى القارئ العربي، نود لفت الانتباه إلى أن النسخة الألمانية الأصلية حوت مقاطع رأينا أنها «دخيلة» على منهجية البحث ذلك أنها تنتمي، برأينا، إلى الخطاب السياسي «الألماني» – عندما يتعلق الأمر بالتلموديين وما يدعونه لنفسهم من تاريخ. ونظراً لأهمية المؤلّف، وحتى لا نترك لمقاطع صغيرة تشويش المادة ولفت انتباه القارئ بعيداً عن مادة المؤلف الأساسية، قررنا، بعد تردد طويل، حذف تلك المقاطع التي أخضع فيها الكاتب بحثه لـ«ضوابط« الحياة السياسية الألمانية المثقلة بماضي النازيين. وكنا لفتنا انتباه المؤلف، قبيل رحيله المحزن والمفاجئ في السابع عشر من شهر تموز المنصرم، إلى مجموعة من الأغلاط المنهجية التي ارتكبها، وخاصة عندما تعلق الأمر بتوظيف مراجع عتيقة ينبذها أهل الاختصاص حالياً بعد أن ثبت انتماء

معظم محتوياتها إلى ضرب الاختلاق والأسطورة، وعلى رأسها كتابات يوسفوس فلافيوس، خاصة ما كتبه عن الحرب الأهلية الطائفية الفلسطينية الثانية، التي تعرف في الخطاب الكتابي باسم (حرب الحُمس) وكذلك ما كتبه عن أحداث (مسعدة) حيث ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن روايته عن «صمودها» و«الانتحار الجماعي» ما هي إلا أخبار اختلقتها ريشته.

وبالإضافة إلى ما سبق، لفتنا انتباه المؤلف إلى أنه يرتكب غلطاً كبيراً بإشارته إلى عقيدة بعض الجماعات الطائفية التي عرفتها فلسطين وباقي أنحاء بلاد الشام باسم (اليهودية) فهي اتجاه «يَهْوي» بدأ في النشوء في القرن الثاني للميلاد، ويعتمد، وكما هو معروف، التلَمود، أي (التفاسير والتعاليم) وليس العهد القديم، مرجعاً. وانطلاقاً من هذه الحقائق العلمية المثبتة التي يجمع عليها أهل الاختصاص الذين يتمتعون بالجدية العلمية، قمنا بتغيير المصطلح، حيث وجب، إلى (اليَهْويّة / اليهوذية) علماً بأن المؤلف الراحل وظف المصطلح الأخير، ولكن ليس بالانسجام العلمي المطلوب.

لقد أبلغنا المؤلف، عبر دار النشر، بآرائنا هذه بالتفصيل، وطلبنا إذنه بشطب تلك المقاطع التي رأينا أنها ستؤثر سلباً على كيفية استقباله من قبل القارئ العربي، وشرحنا له أن سبب طلبنا ليس الرغبة في الالتزام الحاسم بالعلمية فحسب، وإنما في جعله مناسباً للقارئ العربي. وقد أبلغتنا دار النشر، عبر العديد من الرسائل الإلكترونية، بأن الكاتب الراحل يتخذ موقفاً إيجابياً من ملاحظاتنا، وبأنه سيرد خطياً على اقتراحاتنا. لكن، وكما أسلفنا، اختطفه الموت قبل أن يتمكن من الإجابة خطياً عن ملاحظاتنا، وتولت دار النشر هذه المسألة.



الهوامش

هوامش: الفصل الأول

1. Theodor Lessing, Geschichte als Sinngebung des Sinnlose, München 1983, S. 15.
2. Thomas Mann, Joseph und deine Brüder, I, Frankfurt a. M. 1983, S. 7.

هوامش الفصل الثاني

1. Georg Fohrer, Geschichte Israels, Heidelberg 19905, S. 222f.
2. Eugen Drewermann, Tiefenpsychologie und Exgese, Bd. 2, München 1993, S. 469.
3. Drewermann, a.a.O. S. 468.
4. Ebd., S. 477.
5. Georg Fohrer, Geschichte Israels, Heidelberg 19905, S. 214.

هوامش الفصل الثالث

1. Jurek Becker, Jackob der Lügner, Frankfurt a. M. 1978, S. 99
2. Zvi Kolitz, Jossel Rakovers Wendung zu Gott, Berlin 1997., S. 49.
3. ١ Buch Makkabäer apokryph, zit. Nach: Geschichte in Quellen. Altertum, Mдnchen 19783, Nr. 401.
4. Ebd.
5. Flavius Josephus, Der Jüdische Krieg, 5 Buch, München 19823, Rand-Nr. 243ff.

هوامش الفصل الرابع

1. Flavius Josephus, Der Jüdische Krieg, 6 Buch, München 19823, Rand-Nr. 288-309.
2. Ebd.
3. Gustave Flaubert, Drei Erzählungen, Frankfurt a. M. 1961 ،S. 163ff.
4. Karl Heussi, Kompendium der Kirchengeschichte, Tübingen 19764, S. 27.
5. Zit. nach: Erich Fromm, Das Christusdogma, München 1984, S. 36ff.
6. Zit. nach: ebd., S. 28f.
7. Walter Nigg. Das Ewige Reich, Erlenbuch bei Zürich 1944, S. 60.
8. Heussi, a.a.O., S. 32.
9. Siehe Nathen Peter Levinson, Der Messias, Stuttgart 1994, S. 46-51.
10. Martin Buber, Hundert chassidische Geschichten, Zürich 1996, S. 87.

هوامش الفصل الخامس

1. Walter Nigg, Das Ewige Reich, Erlenbuch bei Zürich 1944, S.76.
2. Ebd., S. 70.
3. Papias. Zit. nach: Norman Cohn, Das Ringen um das Tausendjährige Reich, Bern 1961, S. 19.
4. Justin, zit. nach Nigg, a.a.O. S. 73.
5. Tertulian, zit. nach Nigg, a.a.O., S. 73.

6) اسم الروح القدس بالإغريقية (م. ك).

7. Nigg, ebd., S. 71.
8. Cohn, a.a.O., S. 75.
9. Fjodor Dostojewski, Die Bürder Karamasow, Bd. 1, Berlin 1994, S. 394-417.
10. Nigg. Ebd., S. 75.
11. Aurelius Augustinus, Vom Gottesstaat, München 19783, 20 Buch, Kap. 7.
12. Suetonius, Caesarenleben, Stuttgart 1986, S. 367.
13. Tacitus, Annalen, 15,44, zit. nach Geschichte in Quellen. Altertum, München 19783, S. 622.
14. Brief Trajans an Plinius d. J., zit nach: ebd., S. 656.
15. Brief Plinius' d. J. an Trajan, zit. nach: ebd., S. 655ff.
16. Zit. nach: ebd., S. 712.
17. Apologie des Tertullian. Zit. nach: ebd., S. 718.
18. Karl Heuss, Kompenium der Kirchengeschichte, Tدbingen 19764, S. 43ff.
19. Ebd., S. 85-87

هوامش الفصل السادس

1. Geschichte in Quellen. Altertum, Mدnchen 19783, S.738-740.
2. Ammianus Marcellinus.
3. Suetonius, Caesarenleben, Stuttgart 1986, S. 152.
4. Ernst Dassmann, Augustinus, Stuttgart 1993, S. 132ff.
5. Aurelius Augustinus, Vom Gottesstaat, München 19783, 13. Buch 13, Kap. 14
6. Ebd., 20. Buch, Kap. 9.
7. Walter Nigg, Das ewige Reich, Erlenbuch bei Zürich 1944, S.133.
8. Ebd., S. 139
9. Eugen Drewermann, Tiefenpsychologie und Exegese, Bd. 1, Mدnchen 1993, S. 311.
10. Michael Seidlmayer, Das Mittelalter, Göttingen 1967, S.12.
11. Petrus Damiani, zit. nach: ebd., S. 12.
12. "Dictatuspapae",zit.nach:GeschichteinQuellen.Mittelalter,München31978,S.291
13. Synode von Worms 1076, zit. nach: ebd., S. 297.
14. Otto von Freising, ebd., S. 325
15. Salimbene von Parma, ebd., S. 584.
16. Zit. nach: Damian Thompson, Das Ende der Zeiten, Hildesheim 1997, S. 70ff.

17. Radolfus Glaber, zit. nach: ebd., S. 70ff.
18. Zit. nach: Nigg, a.a.O., S. 144
19. Salvador de Madariaga, Spanien, Stuttgart 19793, S. 15.
20. Ebd.
21. Zit. nach: Will Durant, Kulturgeschichte der Menschheit, Bd. 5, Berlin 1981, S. 558.
22. Ebd.
23. Madariaga, a.a.O., S. 16.

هوامش الفصل السابع

1. Georges Duby, Die Kunst der Zisterzienser, Stuttgart 1993, S.36.
2. Ebd.
3. Regel Benedikts, 1. Kap. zit. nach: Hans Urs von Balthasar, Die großen Ordensregeln, Einsiedeln 19804.
4. Johanna Maria van Winter, Rittertum, München 1979, S.23.
5. Ebd., S. 37.
6. Meier Helmbrecht, zit. nach: Gustav Freytag, Bilder aus der deutschen Vergangenheit, 2. Bd. Leipzig 1924.
7. Georges Duby, Die Zeit der Kathedralen, Frankfurt a. M. 1980, S.69.
8. Zit. nach :Arno Borst, Lebensformen im Mittelalter, Frankfurt a. M., 1979, S. 319.
9. Walter Nigg, Das ewige Reich, Erlenbuch bei Zrich 1944, S.159.
10. Norman Cohn, Das Ringen um das Tausendjährige Reich, Bern 1961, S. 50.
11. Josef Fleckenstein, in: Die geistlichen Ritterorden Europas, Sigmaringen 1980, S. 13ff.
12. Philippe Aris, Geschichte der Kindheit, München 19774, S.209.
13. Paul Habermann, in: Massenwahn in Geschichte und Gegenwart, Stuttgart 1965, S. 189.
14. Marcel Schwob, Der Kinderkreuzzug, Leipzig 1914, S. 19, 28.

هوامش الفصل الثامن

1. Will-Erich Peuckert, Die große Wende, Darmstadt 1976, S.152.

2. Norman Cohn, Das Ringen um das Tausendjährige Reich, Bern 1961 S. 202.
3. Walter Nigg, Das ewige Reich, Erlenbuch bei Zrich 1944, S. 234.
4. Ebd., S. 244.
5. Ebd., S. 280.
6. Ebd., S. 291.

هوامش الفصل التاسع

1. Josef Pieper, Scholastik, Mسnchen 1978, S. 133.
2. Ebd., S. 135f.
3. cogito, ergo sum.
4. Karl Josef Rivinius, Die soziale Bewegung im Deutschland des 19, Jahrhunderts, Mسnchen 19892, S. 19.
5. Nigg, a.a.O., S. 350.

6) جمع هواء (م. ك).

7. Rivinius, a.a.O., S. 30ff.
8. Wilhelm Treue, in: Massenwahn in Geschichte und Gegenwart, Stuttg-art 1965, S. 79.

9) أي: إضفاء طابع اجتماعي (م. ك).

10. Ebd., S. 80.
11. Boris Pasternak, Doktor Schiwago, Frankfurt a. M. 1960, S.299.

هوامش الفصل العاشر

1. Denis Meadows, Die Grenzen des Wachstums, Stuttgart 1972, S. 167ff.
2. Ernst Ulrich Weizsäcker, Erdpolitik, Darmstadt 19944, S.212.
3. UN-Vollversammlungs-Präsident, nach: Hamburger Abendblatt vom 30. Juni 1997.
4. Gemma Pärzgen, in: Der Tschernobyl-Schock, Frankfurt a. M. 1996, S. 57.
5. Hans-Georg von Studnitz, in: Welt am Sonntag vom 31. Januar 1971.
6. Horst Afheldt u. a., Durch Kriegsvehütung zum Krieg?, München 1972, S. 170.
7. Manfred Sapper, in: Der Tschernobyl-Schock, a.a.O., S.163.
8. Zit. nach: John Hersey, Hiroshima, München 1982.

9. Frankfurter Allgemeine Zeitung vom 8. November 1997.

هوامش الفصل الحادي عشر

1. Gottfried Kenzlen, Der Neue Mensch, Frankfurt a. M. 1997, S. 89f.
2. Jonathan Swift, Gullivers Reisen, Frankfurt a.M. 1960, S. 157f.
3. Georg Holmsten, Jean-Jacques Rousseau, Reinbek 1996, S.66.
4. Friedrich H. Tenbruck, Die unbewältigten Sozialwissenschaften oder die Abschaffung des Menschen, Kخln 1984, zit. nach: Küenzlen, S. 91.
5. Ders., Das Werk Max Webers, in: Kölner Zeitschrift für Soziologie und Sozialpsychologie, 1975, zit. nach: Küenzlen, S. 232.
6. Wie Anm. 4.
7. Max Horkheimer / Theodor W Adorno, Dialektik der Aufklärung, Frankfurt a. M. 1982, S. 7.
8. Auszugsweise veröffentlicht in: Die Zeit, Nr. 4 vom 15. 1. 1998.

9 Küenzlen, a. a.O., S. 91.

١٠) أي العصر الجديد.

ثبت المراجع والمصادر

BibelzitatenachderLutherbibel,TextinderrevidiertenFassungvon1984Stuttgart1985.
Der kleine Pauly. Lexikon der Antike, 5 Bde., München 1979.
Die Religion in Geschichte und Gegenwart, 7 Bde., Tübingen 1957.
Gasper, H. / Müller, J. / Vallentin, F. Lexikon der Sekten, Sondergruppen und Weltanschauungen, Freiburg i. Br. 1997.
Geschichte in Quellen, 7 Bde., Mډnchen 1982.
Lexikon des Mittelalters, bisher 8 Bde., Zürich ab 1980.
Afheldt, Horst, u.a., Durch Kriegsverhtung zum Krieg?, Mnchen 1972.
Ariès, Philippe, Geschichte der Kindheit, München 1977.
Augustinus, Aurelius, Vom Gottesstaat, München 1978
Babel, Isaak, Petersburg 1918, Pfullingen 1977
Bacon, Francis, Essays, Wiesbaden o. J.
Baeck, Leo, Das Wesen des Judentums, Wiesbaden o. J.
Balthasar, Hans Urs von, Die großen Ordensregeln, Einsiedeln 1980.
Bannach,Klaus/Rommel,Kurt(Hg.),ReligiöseStrömungenunsererZeit,Stuttgart1992.
Barret, Pierre / Gurgand, Jean-Noel, Der König der letzten Tage, Hamburg.1982

Ben - Sasson, Haim Hillel (Hg.), Geschichte des jüdischen Volkes, München 1995.
Birnbacher, Dieter (Hg.) Ökologie und Ethik, Stuttgart 1980.
Bitter, Wilhelm (Hg.), Massenwahn in Geschichte und Gegenwart, Stuttgart 1965.
Bochenski, I. M., Der sowjetrussische dialektische Materialismus, Bern 1960.
Borst, Arno, (Hg.), Das Rittertum im Mittelalter, Darmstadt 1976.
___:Lebensformen im Mittelalter, Frankfurt a. M, 1979.
Boshof, Egon, Heinrich IV., Göttingen 1990.
Bottineau, Yves, Der Weg der jakobspilger, Bergisch Gladbach 1987.
Brecht, Franz Josef, Vom menschlichen Denken, Heidelberg 0. J.
Buber, Martin, Hundert chassidische Geschichten, Zürich 1996.
Capra, Fritjof, Wendezeit, Bern 1983.
Carnap, R., u.a., Wissenschaftliche Weltauffassung - der Wiener Kreis, Wien 1929.
Carozzi, Claude, Weltuntergang und Seelenheil, Frankfurt a.M. 1996.
Cassin, E., u.a., Die altorientalischen Reiche, II, III, Fischer Weltgeschichte Bd. 3 und 4, Frankfurt a.M. 1972/73.
Cohn, Norman, Das Ringen um das Tausendjährige Reich, Bern 1961.
Cohn, Norman, Die Erwartung der Endzeit, Frankfurt a. M. 1997.
Crawford, Michael, Die römische Republik, München 1984.
Dassmann, Ernst, Augustinus, Stuttgart 1993.
Delumeau, Jean, Angst im Abendland, Reinbek 1989.
Dinzelbacher, Peter, Angst im Mittelalter, Paderborn 1996.
Dostojewski, Fjodor, Die Brüder Karamasow, Berlin 1994.
Drewermann, Eugen, Der Krieg und das Christentum, Regensburg 1982.
___: Der tödliche Fortschritt, Freiburg i. Br. 1990.
___: Tiefenpsychologie und Exegese, 2 Bde. Mnchen 1993.
Duby, Georges, Die drei Ordnungen, Frankfurt a. M. 1986.
___: Die Kunst der Zisterzienser, Stuttgart 1993.
___: Die Zeit der Kathedralen, Frankfurt a. M. 1980.
Durant, Will, Weltreiche des Glaubens (Kulturgeschichte der Menschheit Bd. 5), Frankfurt a. M. 1981.
Eisele, Petra, Babylon, München 1983.
Eisenhardt, Ulrich, Deutsche Rechtsgeschichte, München 1984.
Ekschmitt, Werner, Die sieben Weltwunder, Frankfurt a. M. 1984.
Eliade, Mircea, Mythos und Wirklichkeit, Frankfurt a. M. 1988.
Fichtenau, Heinrich, Lebensordnungen des 10. Jahrhunderts, Mnchen 1992.
Flasch, Kurt / Jeck, Udo Reinhold, Das Licht der Vernunft, Mnchen 1997.
Flaubert, Gustave, Drei Erzählungen, Frankfurt a. M. 1961.
Fleckenstein, Josef / Hellmann, Manfred (Hg.), Die geistlichen Ritterorden Europas,

Sigmaringen 1980.
Flusser, David, Entdeckungen im Neuen Testament, Bd. 1, Neukirchen - Vluyn 1992.
___: Jesus, Reinbek 1995.
Fohrer, Georg, Geschichte der israelitischen Religion, Freiburg i. Br.١٩٩٢.
___: Geschichte Israels, Heidelberg 1990.
Freund, Michael, Deutsche Geschichte, Gütersloh 1974.
Freytag, Gustav, Bilder aus der deutschen Vergangenheit, Bd. 2, Leipzig 1924.
Friedell, Egon, Kulturgeschichte der Neuzeit, 3 Bde. München 1927/28.
Fromm, Erich, Das Christusdogma, München 1984.
Fuhrmann, Manfred, Rom in der Spätantike, Zürich 1994.
Gall, Lothar, Europa auf dem Weg in die Moderne, München 1997.
Giesen, Heinz, Johannes - Apokalypse, Stuttgart 1992.
Glaser, Hermann, Spießer-Ideologie, Frankfurt a. M. 1979.
Goetz, Hans-Werner, Leben im Mittelalter, München 1994
Grant, Michael, Das Römische Reich am Wendepunkt, München 1972.
Grundmann, Herbert, Wahlkönigtum, Territorialpolitik und Ostbewegung im 13. und 14. Jahrhundert (=Gebhardt, Handbuch der deutschen Geschichte Bd. 5). München 1980.
Gurjewitsch, Aaron J. Das Weltbild des mittelalterlichen Menschen, Dresden 1978.
Herbers, Klaus, Der Jakobsweg, Tübingen 1990.
Heussi, Karl, Kompendium der Kirchengeschichte, Tübingen 1976.
Holl, Adolf, Der letzte Christ, Frankfurt a. M. 1982.
___: Jesus in schlechter Gesellschaft, München 1981.
Holm, Nils G. Einfhrung in die Religionspsychologie, München 1990.
Holmsten, Georg, Jean-Jacques Rousseau, Reinbek 1996.
Horkheimer, Max/Adorno, Theodor W. Dialektik der Aufklärung, Frankfurt a. M. 1982.
Hutten, Kurt, Seher, Gürbler, Enthusiasten, Stuttgart 1989.
Janich, Peter, Kleine Philosophie der Naturwissenschaften, München 1997.
Jordan, Karl, Investiturstreit und frühe Stauferzeit (Gebhardt, Handbuch der deutschen Geschichte Bd. 4), München 1981.
Josephus, Flavius, Der jüdische Krieg, 4 Bde. München 1982.
Karisch, Karl - Heinz / Wille, Joachim, Der Tschernobyl - Schock, Frankfurt a. M. 1996.
Kehrer, Günter, Einführung in die Religionssoziologie, Darmstadt 1988.
Ker¡nyi, Karl, Die Mythologie der Griechen, München 1981.

Knackstedt, Wilhelm/Ruppert, Hans-Jürgen, Die New Age Bewegung, EZW Texte, Stuttgart 1988.
Knoll, Joachin H./ Schoeps, Julius H. Von kommenden Zeiten, Stuttgart 1984.
Kocka ،Jürgen, Bürgertum im 19. Jahrhundert, 3 Bde. Göttingen 1995.
Kortrn, Hans-Henning, Menschen und Mentalitäten, Berlin 1996.
Kenzlen, Gottfried, Der Neue Mensch, Frankfurt a. M. 1997.
Lamartine, Alphonse de, Gestalten der Revolution, München 1984.
Lanczkowski, Günter (Hg.), Geschichte der Religionen, Frankfurt a. M. 1977.
Langer, Norbert, Leben und Sterben der Sterne, München 1995.
Lay, Rupert, Das Ende der Neuzeit, Düsseldorf 1996.
Le Goff, Jacques, Für ein anderes Mittelalter, Weingarten 1987.
Lenin, Wladimir Iljitsch, Staat und Revolution, Berlin 1959.
Lessing, Theodor, Geschichte als Sinngebung des Sinnlosen, München 1983.
Levinson, Nathan Peter, Der Messias, Stuttgart 1994.
Levinson, Pnina Navè, Einführung in die rabbinische Theologie, Darmstadt 1993.
Mackey, James P. Jesus, München 1981.
Madariaga, Salvador de, Spanien, Stuttgart 1979.
Mann, Thomas, Joseph und seine Bürder, Frankfurt a. M. 1983.
Markow, Walter/Soboul, Albert, 1789. Die Große Revolution der Franzosen, Köln 1980.
Martin, Gerhard Marcel, Weltuntergang, Stuttgart 1984.
Marx, Karl/Engels, Friedrich, Manifest der kommunistischen Partei, Stuttgart 1997.
Mayer, Hans Eberhard, Geschichte der Kreuzzüge, Stuttgart 1980.
Mechtersheimer, Alfred, Rstung und Frieden, München 1982.
Meyer, Ernst, Römischer Staat und Staatsgedanke, Darmstadt 1961.
Mitteis, Heinrich, Deutsche Rechtsgeschichte, München 1958.
Mommsen, Wilhelm, Größe und Versagen des deutschen Bürgertums, München 1964.
Nietzsche, Friedrich, Der Antichrist, München 1995.
Nigg, Walter, Das Buch der Ketzer, Zürich 1986.
___: Das ewige Reich, Erlenbuch bei Zürich 1944.
Nipperdey, Thomas, Deutsche Geschichte 1800 - 1866, München 1983.
O'Rourke, P. J. Alle Sorgen dieser Welt, Hamburg 1995.
Pasternak, Boris, Doktor Schiwago, Frankfurt a. M. 1960.
Peuckert, Will-Erich, Die große Wende, Darmstadt 1976.
Pieper, Josef, Scholastik, München 1978.
___: Über das Ende der Zeit, München 1980.
Pinna, Lorenzo, Fnf Hypothesen zum Untergang der Welt, München 1996.

Pirenne, Henri, Mahomet und Karl der Große, Frankfurt a. M. 1963.
Rimscha, Hans von, Geschichte Rußlands, Darmstadt 1970.
Rivinius, Karl Josef, Die soziale Bewegung im Deutschland des 19. Jahrhunderts, München 1989.
Rohden, Peter Richard, Robespierre, Berlin 1935.
Schwartz, Hillel, Zeitenwende-Weltenende?, Braunschweig 1992.
Schwob, Marcel, Der Kinderkreuzzug, Leipzig 1914.
Seidelmayer, Michael, Das Mittelalter, Göttingen 1967.
Spaemann, Robert/ Fuchs, Thomas, Töten oder sterben lassen?, Freiburg i. Br. 1997.
Stierlin, Henri, Die Visionen der Apokalypse, Zürich 1978.
Sudbrack, Josef, Neue Religiosität, Mainz 1990.
Suetonius, Caesarenleben, Stuttgart 1986.
Swift, Jonathan, Gullivers Reisen, Frankfurt a. M. 1960.
Teichmann, Jürgen, Wandel des Weltbildes, München 1983.
Theimer, Walter, Der Marxismus, Bern 1960.
Thompson, Damian, Das Ende der Zeiten, Hildesheim 1997.
Tolstoi, Leo, Krieg und Frieden, München 1975.
Weidinger, Erich, Die Apokryphen, Augsburg 1995.
Weizsäcker, Carl Friedrich von (Hg). Kriegsfolgen und Kriegsverhütung, München 1971.
Weizsäcker, Ernst Ulrich von, Erdpolitik, Darmstadt 1994.
Wetter, Gustav A. Sowjetideologie heute I: Dialektischer und historischer Materialismus, Frankfurt a. M. 1963.
Winter, Johanna Maria van, Rittertum, München 1979.




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين